الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ
شَرْحُ
العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ

تأليف

أَبِي الحَارِثِ عُمَرَ بْنِ سَالِمِ بْنِ ضَبْعَانَ بَاوَزِيرِ العَبَّاسِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ

الحَمْدُ للهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ، العَلِيمِ الخَبِيْرِ، الرَّزَّاقِ الكَرِيْمِ، ذِيْ النَعَمِ الوَاسِعَةِ، وَالفَضَائِلِ السَابِغَةِ، وَالرَحَمَاتِ المُتَتَابِعَةِ، وَالحُجَجِ البَالِغَةِ، تَعَالَىٰ رَبُّنَا عَنْ صِفَاتِ المَخْلُوقِيْنَ، وَعَنْ تَعْطِيْلِ المُعَطِّلِيْنَ، وَتَمْثِيْلِ المُمَثِّلِيْنَ، وَتَكْيِيفِ المُكَيِّفِيْنَ، سُبْحَانَهُ فَهُوَ ذُوْ الصِفَاتِ العُلَىٰ، وَالأَسْمَاءِ العُظْمَىٰ، العَلِيُّ الأَعْلَىٰ، عَلَىٰ رَبُنَا فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ وَخَلْقِهِ، ثُمَّ عَلَىٰ عَرْشِهِ اسْتَوَىٰ، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ.

وَنَحمَدُه سُبحَانَهُ، الَّذِي أَنْزَلَ القُرْآنَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيءٍ، بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ، وَأَكْمَلِ بَيَانٍ، تَحَدَّىٰ بِهِ الفُصَحَاءَ، وَعَجِزَ أَنْ يَأتِيَ بِمِثْلِهِ الشُعَرَاءُ، فِيْهِ هِدَايَةٌ لِلنَّاسِ، لَيْسَ فِيْهِ ضَلَالٌ وَلَا التِبَاسٌ.

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِاللهِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، المَبْعُوثِ رَحْمَةً وَهِدَايَةً لِلْعَالَمِيْنَ، رَسُوْلِ اللهِ المُصْطَفَىٰ، وَنَبِيِّهِ المُجْتَبَىٰ، أَفْصَحِ العَرَبِ لِسَانًا، وَأَكْمَلِهِمْ بَيَانًا، وَأَكْثَرِهِمْ رَحْمَةً، بَلَّغَ الرِسَالَةَ أَكْمَلَ بَلَاغٍ، أَرْسَلَهُ اللهُ بِالهُدَىٰ وَدِيْنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّيْنِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ كِتَابَ العَقِيْدَةِ الوَاسِطِيَةِ لِشَيْخِ الإِسْلَامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ مَعَ صِغَرِ حَجْمِهِ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ أَجْمَعِ كُتُبِ العَقِيْدَةِ، وَأَسْلَمِهَا، وَأَجْمَلِهَا، وَقَدْ أَلَّفَهُ لَمَّا

طَلَبَ مِنْهُ القَاضِي رَضِيُّ الدِيّنِ الوَاسِطِي رَحِمَهُ اللهُ مِنْ بَلْدَةِ وَاسِطٍ بِالعِرَاقِ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتَابًا فِي بَيَانِ مُعْتَقَدِ السَّلَفِ الصَالِحِ، أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فَاعْتَذَرَ شَيْخُ الإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ بِسَبَبِ كَثْرَةِ المُؤَلَّفَاتِ فِي هَذَا البَابِ لَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَيْهِ فِي كِتَابَةِ ذَلِكَ، فَكَتَبَهَا شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ بَعْدَ صَلَاةَ العَصْرِ، وَقَدْ دَرَسْتُ هَذَا الكِتَابَ عَلَىٰ عَدَدٍ مِنْ العُلَمَاءِ مِنْ أَوَّلِهِمْ فَضِيْلَةُ الشَيْخِ عَبْدِاللهِ بْنِ جِبْرِينِ ثُمَّ مُحَمَّدِ الصَادِقِ الأَنْصَارِيِّ ثُمَّ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِينِ –رَحِمَهُمْ اللهُ جَمِيْعًا – وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِتَدْرِيْسِهِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ثُمَّ رَأَيْتُ أَنْ أَكْتُبَ شَرْحًا لَهَا أُلَخِّصُ فِيْهِ فَوَائِدَ مَشَائِخِي، وَأَزِيْدُ عَلَيْهَا مَا لَا بُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ فِي هَذَا البَابِ أَنْ يَعْلَمَهُ، وَأَنْ يَضْبِطَهُ وَيُتْقِنَهُ.

وَأَسْأَلُ اللهَ العَظِيْمَ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِأَصْلِهِ، وَأَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ وَوَالِدَيَّ وَزَوْجَتِي وَذُرِّيَتِي فِي الدَارَيْنِ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالقَادِرُ عَلَيْهِ.

كَتَبَهُ/

أَبُوالحَارِث

عُمَرُ بْنُ سَالِمِ بْنُ ضَبْعَانَ بَاوَزِيْرِ العَبَّاسِيِّ

تَرْجَمَةُ شَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ

١) اسْمُهُ وَنَسَبُهُ:

هُوَ أَحْمَدُ تَقِيُّ الدِيْنِ أَبُو العَبَّاسِ بْنُ عَبْدِ الحَلِيْمِ بْنِ عَبْدِالسَلَامِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ أَبِي القَاسِمِ الخَضْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الخَضْرِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ تَيْمِيَّةَ الحَرَّانِي.

وَقَدْ ذَكَرَ مُتَرْجِمُوهُ أَقْوَالاً فِي سَبَبِ تَلْقِيْبِ العَائِلَةِ بِآلِ (تَيْمِيَّةَ) مِنْهَا مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِالهَادِي رَحِمَهُ اللهُ: (أَنَّ جَدَّهُ مُحَمَّداً كَانَتْ أُمُّهُ تُسَمَّىٰ (تَيْمِيَّةُ)، وَكَانَتْ وَاعِظَةً، فَنُسِبَ إِلَيْهَا، وَعُرِفَ بِهَا.

وَقِيْلَ: إِنَّ جَدَّهُ مُحَمَّدَ بْنَ الخِضْرِ حَجَّ عَلَىٰ دَرْبِ تَيْمَاءَ، فَرَأَىٰ هُنَاكَ طِفْلَةً، فَلَمَّا رَجَعَ وَجَدَ امْرَأَتَهُ قَدْ وَلَدَتْ بِنْتاً لَهُ فَقَالَ: يَا تَيْمِيَّةُ، يَا تَيْمِيَّةُ، فَلُقِّبَ بِذَلِكَ.

٢) مَوْلِدُهُ وَنَشْأَتُهُ:

وَلِدَ رَحِمَهُ اللهُ يَوْمَ الاثْنَيْنِ، عَاشِرَ، وَقِيْلَ: ثَانِي عَشَرِ مِنْ رَبِيْعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ ٦٦١هـ. فِي حَرَّانَ.

وَفِي سَنَةَ ٦٦٧هـ أَغَارَ التَتَارُ عَلَىٰ بَلَدِهِ، فَاضْطَرَّتْ عَائِلَتُهُ إِلَىٰ تَرْكِ حَرَّانَ، مُتَوَجِّهِيْنَ إِلَىٰ دِمَشْقٍ، وَبِهَا كَانَ مُسْتَقَرُّ العَائِلَةِ، حَيْثُ طَلَبَ العِلْمَ عَلَىٰ أَيْدِي عُلَمَائِهَا مُنْذُ صِغَرِهِ، فَنَبَغَ وَوَصَلَ إِلَىٰ مَصَافِ العُلَمَاءِ مِنْ حَيْثُ التَأَهُّلِ لِلْتَدْرِيْسِ وَالفَتْوَىٰ قَبْلَ أَنْ يُتِمَّ العِشْرِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ.

وَمِمَّا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الهَادِي رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ فِي صِغَرِهِ أَنَّهُ: سَمِعَ مُسْنَدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ مَرَّاتٍ، وَسَمِعَ الكُتُبَ السِتَّةَ الكِبَارَ وَالأَجْزَاءَ، وَمِنْ مَسْمُوعَاتِهِ

مُعْجَمَ الطَبَرَانِي الكَبِيْرِ.

وَعَنِيَ بِالحَدِيْثِ وَقَرَأَ وَنَسَخَ، وَتَعَلَّمَ الخَطَّ وَالحِسَابَ فِي المَكْتَبِ، وَحَفِظَ القُرْآنَ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الفِقْهِ، وَقَرَأَ العَرَبِيَّةِ عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ القَوِيِّ، ثُمَّ فَهِمَهَا، وَأَخَذَ يَتَأَمَّلُ كِتَابَ سِيبَوَيْه حَتَّىٰ فَهِمَ فِي النَّحْوِ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ التَفْسِيْرِ إِقْبَالاً كُلِّيًا، حَتَّىٰ حَازَ فِيْهِ قَصَبَ السَبْقِ، وَأَحْكَمَ أُصُولَ الفِقْهِ وَغَيْرَ ذَلِكَ.

هَذَا كُلُّهُ وَهُوَ بَعْدُ ابْنُ بِضْعِ عَشْرَةَ سَنَةً، فَانْبَهَرَ أَهْلُ دِمَشْقٍ مِنْ فَرْطِ ذَكَائِهِ، وَسَيَلَانِ ذِهْنِهِ، وَقُوَّةِ حَافِظَتِهِ، وَسُرْعَةِ إِدْرَاكِهِ.

وَقَلَّ كِتَابٌ مِنْ فُنُونِ العِلْمِ إِلَّا وَقَفَ عَلَيْهِ، كَأَنَّ اللهَ قد خَصَّهُ بِسُرْعَةِ الحِفْظِ، وَإِبْطَاءِ النِسْيَانِ لَمْ يَكُنْ يَقِفُ عَلَىٰ شَيءٍ أَوْ يَسْتَمِعُ لِشَيءٍ - غَالِبًا - إِلَّا وَيَبْقَىٰ عَلَىٰ خَاطِرِهِ، إِمَّا بِلَفْظِهِ أَوْ مَعْنَاهُ، وَكَانَ العِلْمُ كَأَنَّهُ قَدْ اخْتَلَطَ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ وَسَائِرِهِ.

فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُسْتَعَاراً، بَلْ كَانَ لَهُ شِعَاراً وَدِثَاراً، وَلَمْ يَزَلْ آبَاؤُهُ أَهْلُ الدِرَايَةِ التَّامَّةِ وَالنَقْدِ، وَالقَدَمِ الرَاسِخَةِ فِي الفَضْلِ، لَكِنْ جَمَعَ اللهُ لَهُ مَا خَرَقَ بِمِثْلِهِ العَادَةَ، وَوَفَّقَهُ فِي جَمِيْعِ عُمُرِهِ لِأَعْلَامِ السَعَادَةِ، وَجَعَلَ مَآثِرَهُ لإِمَامَتِهِ أَكْبَرُ شَهَادَةٍ.

وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ حَسَنَ الاسْتِنْبَاطِ، قَوِيَّ الحُجَّةِ، سَرِيْعَ البَدِيْهَةِ، قَالَ عَنْهُ البَزَّارُ رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَمَّا مَا وَهَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَمَنَحَهُ مِنْ اسْتِنْبَاطِ المَعَانِي مِنْ الأَلْفَاظِ النَّبَوِيَّةِ وَالأَخْبَارِ المَرْوِيَّةِ، وَإِبْرَازِ الدَلَائِلِ مِنْهَا عَلَىٰ المَسَائِلِ، وَتَبيينِ مَفْهُومِ اللَّفْظِ

وَمَنْطُوقِهِ، وَإِيْضَاحِ المُخَصِّصِ لِلْعَامِ، وَالمُقَيِّدِ لِلْمُطْلَقِ، وَالنَّاسِخِ لِلْمَنْسُوخِ، وَتَبْيِينِ ضَوَابِطِهَا، وَلَوَازِمِهَا وَمَلْزُومَاتِهَا، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا، وَمَا يَحْتَاجُ فِيْهِ إِلَيْهَا، حَتَّىٰ إِذَا ذَكَرَ آيَةً أَوْ حَدِيْثًا، وَبَيَّنَ مَعَانِيْهِ، وَمَا أُرِيْدَ فِيْهِ، يَعْجَبُ العَالِمُ الفَطِنُ مِنْ حُسْنِ اسْتِنْبَاطِهِ، وَيُدْهِشُهُ مَا سَمِعَهُ أَوْ وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْهُ).

(وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَا عَفَافٍ تَامٍّ، وَاقْتِصَادٍ فِي المَلْبَسِ وَالمَأْكَلِ، صَيِّنًا، تَقِيًّا، بَرّاً بِأُمِهِ، وَرِعًا عَفِيْفًا، عَابِداً، ذَاكِراً للهَ فِي كُلِّ أَمْرٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، رَجَّاعًا إِلَىٰ اللهِ فِي سَائِرِ الأَحْوَالِ وَالقَضَايَا، وَقَّافًا عِنْدَ حُدُودِ اللهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، آمِراً بِالمَعْرُوفِ نَاهِيًا عَنْ المُنْكَرِ، لَا تَكَادُ نَفْسُهُ تَشْبَعُ مِنْ العِلْمِ، فَلَا تَرْوَىٰ مِنْ المُطَالَعَةِ، وَلَا تَمَلُّ مِنْ الاشْتِغَالِ، وَلَا تَكَلُّ مِنْ البَحْثِ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الهَادِي (٧٤٤هـ) - رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ -: (ثُمَّ لَمْ يَبْرَحْ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي ازْدِيَادٍ مِنْ العُلُومِ وَمُلَازَمَةِ الاشْتِغَالِ وَالإِشْغَالِ، وَبَثِ العِلْمِ وَنَشْرِهِ، وَالاجْتِهَادِ فِي سُبُلِ الخَيْرِ حَتَّىٰ انْتَهَتْ إِلَيْهِ الإِمَامَةُ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَالزُهْدِ وَالوَرَعِ، وَالشَجَاعَةِ وَالكَرَمِ، وَالتَوَاضُعِ وَالحِلْمِ وَالإِنَابَةِ، وَالجَلَالَةِ وَالمَهَابَةِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَهْيِ عَنْ المُنْكَرِ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الجِهَادِ مَعَ الصِدْقِ وَالعِفَّةِ وَالصِيَانَةِ، وَحُسْنِ القَصْدِ وَالإِخْلَاصِ، وَالابْتِهَالِ إِلَىٰ اللهِ وَكَثْرَةِ الخَوْفِ مِنْهُ، وَكَثْرَةِ المُرَاقَبَةِ لَهُ وَشِدَّةِ التَمَسُكِ بِالأَثَرِ، وَالدُعَاءِ إِلَىٰ اللهِ وَحُسْنِ الأَخْلَاقِ، وَنَفْعِ الخَلْقِ، وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالصَبْرِ عَلَىٰ مَنْ آذَاهُ، وَالصَّفْحِ عَنْهُ وَالدُعَاءِ لَهُ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الخَيْرِ).

٣) عَصْـــرُهُ:

أَوَّلاً: النَاحِيَةُ السِيَاسِيَّةُ:

يَسْـتَطِيعُ الوَاصِـفُ لِلْحَالَـةِ السِيَاسِـيَّةِ لِعَصْـرِ ابْـنِ تَيْمِيَّـةِ رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يُحَـدِّدَ مَعَالِمَهَا بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ رَئِيْسِةٍ:

أ- غَزوِ التَتَارِ لِلْعَالَمِ الإِسْلَامِي.

ب- هُجُومِ الفِرِنْجَةِ عَلَىٰ العَالَمِ الإِسْلَامِي.

جـ- الفِتَنِ الدَاخِلِيَّةِ، وَخَاصَّةً بَيْنَ المَمَالِيْكِ وَالتَتَارِ وَالمُسْلِمِيْنَ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الأَثِيْرِ رَحِمَهُ اللهُ وَصْفًا دَقِيْقًا لِذَلِكَ العَصْرِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِهِ:

فَقَالَ: (لَقَدْ بُلِيَ الإِسْلَامُ وَالمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ المُدَّةِ بِمَصَائِبٍ لَمْ يُبْتَلَ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الأُمَمِ: مِنْهَا هَؤلَاءِ التَتَر: فَمِنْهُمْ مَنْ أَقْبَلُوا مِنَ الشَرْقِ فَفَعَلُوا الأَفَعِالَ الَّتِي يَسْتَعْظِمُهَا كُلُّ مَنْ سَمِعَ بِهَا.

وَمِنْهَا: خُرُوجُ الفِرِنْجِ - لَعَنَهُمْ اللهُ - مِنَ الغَرْبِ إِلَىٰ الشَامِ وَقَصْدُهُمْ دِيَـارَ مِصْرَ وَامْتِلَاكِهِمْ ثَغْرَهَا - أَيْ دِمْيَاطَ -، وَأَشْرَفَتْ دِيَارُ مِصْرَ وَغَيْرَهَا عَلَىٰ أَنْ يَمْلِكُوهَا لَوْلَا لُطْفَ اللهِ تَعَالَىٰ وَنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ.

وَمِنْهَا: أَنَّ السَيْفَ بَيْنَهُمْ مَسْلُولٌ، وَالفِتْنَةُ قَائِمَةٌ

فَأَمَّا التَتَارُ: فَقَدْ كَانُوا فَاجِعَةَ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ فِي القَرْنِ السَابِعِ الهِجْرِي، فِي سُقُوطِ بَغْدَادٍ - وَبِهَا سَقَطَتْ الخِلَافَةُ العَبَّاسِيَّةُ - سَنَةَ (٦٥٦هـ) وَمَا قَبْلَ سُقُوطِ بَغْدَادٍ بِسَنَوَاتٍ، وَمَا بَعْدَ سُقُوطِ بَغْدَادٍ حَيْثُ كَانَتْ هَذِهِ الأَحْدَاثُ قَرِيْبَةً

مِنْ وِلَادَةِ شَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ (وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ شَاهَدَ آثَارَ هَذَا الخَرَابِ وَالدَمَارِ بِأُمِّ عَيْنَيْهِ، وَسَمِعَ تَفَاصِيْلَهُ المُؤلِمَةَ عَمَّنْ رَأَوْا مَنَاظِرَهُ وَشَهِدُوهَا وَشَاهَدُوهَا، فَمِنْ الطَبِيْعِيِّ أَنْ يَتَأَثَّرَ قَلْبُهُ الغَيُورُ المَرْهَفُ بِنكْبَةِ المُسْلِمِيْنَ هَذِهِ وَذِلَّتِهِمْ، وَتَمْتَلِئُ نَفْسُهُ غَيْظًا وَكَرَاهِيَّةً لِأُولَئِكَ الوُحُوشِ الضَوَارِي.

وَأَمَّا ظُهُورُ الفِرِنْجَةِ أَوْ (الحُرُوبُ الصَلِيبِيَّةِ): فَقَدْ كَانَتْ وِلَادَةُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بِدَايَةِ الدَوْرِ الرَابِعِ لِهَذِهِ الحُرُوبِ الَّذِي يُمَثِّلُ دَوْرَ الضَعْفِ الفِرِنْجِي وَتَجْدِدِ قُوَّةِ المُسْلِمِينَ، بِاسْتِرْدَادِ كَثِيْرٍ مِنْ المُدُنِ الشَامِيَّةِ الكُبْرَىٰ، وَإِكْمَالِ مَسِيْرَةِ طَرْدِ الفِرِنْجِ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ.

وَأَمَّا الفِتَنُ الدَاخِلِيَّةُ: فَمَا كَانَ يَحْصُلُ بَيْنَ المَمَالِيْكِ وَتَنَازُعِهِمْ عَلَىٰ السُلْطَةِ وَمَا كَانَ يَحْصُلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ التَتَرِ المُسْلِمِينَ، وَقَدْ كَانَ لِابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ مُشَارَكَةً فِي إِصْلَاحِ بَعْضِ هَذَا، وَفِي مُقَدِمَةِ مَوَاقِفِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَذْكُرُ المُؤَرِخُونَ قِصَّتَهُ مَعَ آخِرِ أُمَرَاءِ المَمَالِيْكِ وَذَلِكَ بِتَذكِيْرِهِ بِحِقْنِ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ، وَحِمَايَةِ ذَرَارِيْهِمْ وَصَوْنِ حُرُمَاتِهِمْ.

ثَانِيًا: <u>النَاحِيَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ</u>:

كَانَتْ مُجْتَمَعَاتِ المُسْلِمِينَ خَلِيْطًا مِنْ أَجْنَاسٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَعَنَاصِرَ مُتَبَايْنَةٍ بِسَبَبِ الاضْطِرَابِ السِيَاسِيِّ فِي بِلَادِهِمْ.

إِذْ اخْتَلَطَ التَتَارُ - القَادِمُونَ مِنْ أَقْصَىٰ الشَرْقِ حَامِلِيْنَ مَعَهُمْ عَادَاتَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ وَطِبَاعَهُمْ الخَاصَّةِ - بِالمُسْلِمِينَ فِي دِيَارِ الإِسْلَامِ الَّذِيْنَ هُمْ أَقْرَبُ

إِلَىٰ الإِسْلَامِ عَقِيْدَةً وَخُلُقًا مِنْ التَتَرِ.

وَنَوْعِيْةٌ ثَالِثَةٌ: أَلَا وَهِيَ أَسْرَىٰ حُرُوبِ الفِرِنْجَةِ وَالتُرْكِ إِذْ كَانَ لَهُمْ شَأنٌ فِي فَرْضِ بَعْضِ النُظُمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَتَثْبِيْتِ بَعْضِ العَوَائِدِ السَيِّئَةِ، وَالتَأثِيْرِ اللُغَوِي العَامِ عَلَىٰ المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ.

إِضَافَةً إِلَىٰ امْتِزَاجِ أَهْلِ الأَمْصَارِ الإِسْلَامِيَّةِ بَيْنَ بَعْضِهِمْ البَعْضِ بِسَبَبِ الحُرُوبِ الطَاحِنَةِ مِنْ التَتَارِ وَغَيْرِهِم، فَأَهْلُ العِرَاقِ يَفِرُّونَ إِلَىٰ الشَّامِ، وَأَهْلُ دِمَشْقٍ إِلَىٰ مِصْرَ وَالمَغْرِبِ وَهَكَذَا.

كُلُّ هَذَا سَاعَدَ فِي تَكْوِيْنِ بِيْئَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ غَيْرَ مُنْتَظِمَةٍ وَغَيْرَ مُتَرَابِطَةٍ، وَأَوْجَدَ عَوَائِدَ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ لَا يُقِرُّهَا الإِسْلَامُ، وَأَحْدَثَ بِدَعًا مُخَالِفَةً لِلْشَرِيْعَةِ كَانَ لِابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَكْبَرَ الأَثَرِ فِي بَيَانِ الخَطَأ وَالنُصْحِ لِلأُمَّةِ، وَمُقَاوَمَةِ المُبْتَدَعَةِ.

ثَالِثًا: النَاحِيَةُ العِلْمِيَّةُ:

فِي عَصْرِ ابْنِ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَلَّ الإِنْتَاجُ العِلْمِيِّ، وَرَكَدَتْ الأَذْهَانُ، وَأُقْفِلَ بَابُ الاجْتِهَادِ وَسَيْطَرَتْ نَزْعَةُ التَقْلِيْدِ وَالجُمُودِ، وَأَصْبَحَ قُصَارَىٰ جُهْدَ كَثِيْرٍ مِنْ العُلَمَاءِ هُوَ جَمْعُ وَفَهْمُ الأَقْوَالِ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا مُنَاقَشَةٍ، فَأُلِّفَتِ الكُتُبُ المُطَوَّلَةُ وَالمُخْتَصَرَةُ، وَلَكِنْ لَا أَثَرَ فِيْهَا لِلابْتِكَارِ وَالتَجْدِيْدِ، وَهَكَذَا عُصُورُ الضَعْفِ تَمْتَازُ بِكَثْرَةِ الجَمْعِ وَغَزَارَةِ المَادَةِ مَعَ نُضُوبٍ فِي البَحْثِ وَالاسْتِنْتَاجِ.

وَيُحِيْلُ بَعْضُ البَاحِثِيْنَ ذَلِكَ الضَعْفُ إِلَىٰ: سِيَادَةِ الأَتْرَاكِ وَالمَمَالِيْكِ مِمَّا

سَبَّبَ اسْتِعْجَامِ الأَنْفُسِ وَالعُقُولِ وَالأَلْسُنِ، إِضَافَةً إِلَىٰ اجْتِمَاعِ المَصَائِبِ عَلَىٰ المُسْلِمِيْنَ، فَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ مِنْ الاسْتِقْرَارِ مَا يُمَكِنُهُمْ مِنْ الاشْتِغَالِ بِالبَحْثِ وَالتَفْكِيْرِ.

وَلا يُنْكَرُ وُجُودُ أَفْرَادٍ مِنْ العُلَمَاءِ النَابِهِيْنَ أَهْلِ النُبُوغِ، وَلَكِنْ أَولَئِكَ قِلَّةٌ لَا تَنْخَرِمُ بِهِمْ القَاعِدَةُ. وَثَمَّةَ أَمْرٌ آخَرُ فِي عَصْرِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ أَثَّرَ فِي عِلْمِهِ أَلَا وَهُوَ: اكْتِمَالُ المَكْتَبَةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِكَثِيْرٍ مِنْ المَوْسُوعَاتِ الكُبْرَىٰ فِي العُلُومِ الشَرْعِيَّةِ: مِنْ التَفْسِيْرِ، وَالحَدِيْثِ، وَالفِقْهِ، وَغَيْرِهَا.

فَالسُنَّةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالمَذَاهِبُ مُدَوَّنَةٌ، وَلَمْ يَعُدْ مِنْ السَهْلِ تَحْدِيْدُ الكُتُبِ الَّتِي قَرَأَهَا وَتَأَثَّرَ بِهَا، وَلَا مَعْرِفَةُ تَأْثِيْرِ شُيُوخِهِ عَلَيْهِ بِدِقَّةٍ.

٤) محنُ الشَّيْخ:

أُمْتُحِنَ الشَّيْخُ مَرَّاتٍ عِدَّةٍ بِسَبَبِ نِكَايَةِ الأَقْرَانِ وَحَسَدِهِمْ، وَلَمَّا كَانَتْ مَنْزِلَةُ شَيْخِ الإِسْلَامِ فِي الشَّامِ عَالِيَةً عِنْدَ الوُلَاةِ وَعِنْدَ الرَعِيَّةِ وَشَىٰ بِهِ ضِعَافُ النُفُوسِ عِنْدَ الوُلَاةِ فِي مِصْرَ، وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ القَدْحِ فِي عَقِيْدَتِهِ، فَطُلِبَ إِلَىٰ مِصْرَ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا سَنَةَ ٧٠٥هـ. بَعْدَمَا عُقِدَتْ لَهُ مَجَالِسٌ فِي دِمَشْقٍ لَمْ يَكُنْ لِلْمُخَالِفِ فِيْهَا حُجَّةٌ، وَبَعْدَ أَنْ وَصَلَ إِلَىٰ مِصْرَ بِيَوْمٍ عَقَدُوا لَهُ مَحْاكَمَةً كَانَ يَظُنُّ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهَا مُنَاظَرَةً، فَامْتَنَعَ عَنْ الإِجَابَةِ حَيْنَ عَلِمَ أَنَّ الخَصْمَ وَالحَكَمَ وَاحِدٌ.

وَاسْتَمَرَّ فِي السِجْنِ إِلَىٰ شَهْرِ صَفَرَ سَنَةَ ٧٠٧هـ، حَيْثُ طَلَبَ مِنْهُ وَفْدٌ مِنْ

الشَّامِ بَأَنْ يَخْرُجَ مِنْ السِجْنِ، فَخَرَجَ وَآثَرَ البَقَاءَ فِي مِصْرَ عَلَىٰ رَغْبَتِهِمْ الذَهَابَ مَعَهُمْ إِلَىٰ دِمَشْقٍ.

وَفِي آخِرِ السَّنَةِ الَّتِي أُخْرِجَ فِيْهَا مِنْ السِّجْنِ تَعَالَتْ صَيْحَاتُ الصُوفِيَّةُ فِي مِصْرَ، وَمُطَالَبَاتُهِمْ فِي إِسْكَاتِ صَوْتِ شَيْخِ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فَكَانَ أَنْ خُيِّرَ شَيْخُ الإِسْلَامِ بَيْنَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَىٰ دِمَشْقٍ أَوْ إِلَىٰ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ أَوْ أَنْ يَخْتَارَ الحَبْسَ، فَاخْتَارَ الحَبْسَ، إِلَّا أَنَّ طُلَّابَهُ وَمُحِبِيْهِ أَصَرُّوا عَلَيْهِ أَنْ يَقْبَلَ الذَهَابَ إِلَىٰ دِمَشْقٍ، فَفَعَلَ نُزُولاً عِنْدَ رَغْبَتِهِمْ وَإِلحَاحِهِمْ.

وَمَا إِنْ خَرَجَ مَوْكِبَ شَيْخِ الإِسْلَامِ مِنْ القَاهِرَةِ مُتَوَجِهاً إِلَىٰ دِمَشْقٍ، حَتَّىٰ لَحِقَ بِهِ وَفْدٌ مِنْ السُلْطَانِ لِيَرُدُّوْهُ إِلَىٰ مِصْرَ وَيُخْبِرُوهُ بِأَنَّ الدَوْلَةَ لَا تَرْضَىٰ إِلَّا الحَبْسَ.

وَمَا هِيَ إِلَّا مُدَّةً قَلِيْلَةً حَتَّىٰ خَرَجَ مِنْ السِّجْنِ وَعَادَ إِلَىٰ دُرُوسِهِ، وَأَكَبَّ النَّاسُ عَلَيْهِ يَنْهَلُونَ مِنْ عِلْمِهِ.

وَفِي سَنَةِ ٧٠٩هـ نُفِيَ مِنْ القَاهِرَةِ إِلَىٰ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَكَانَ هَذَا مِنْ الخَيْرِ لِأَهْلِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ لِيَطْلُبُوا العِلْمَ عَلَىٰ يَدَيْهِ، وَيَتَأَثَّرُوا مِنْ مَوَاعِظِهِ، وَيَتَقَبَّلُوا مَنْهَجَهُ، لَكِنْ لَمْ يَدُمْ الأَمْرُ طَوِيْلاً لَهُمْ، فَبَعْدَ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ طَلَبَهُ إِلَىٰ القَاهِرَةِ النَاصِرُ قلاوون بَعْدَ أَنْ عَادَتْ الأُمُورُ إِلَيْهِ، وَاسْتَقَرَّتْ الأُمُورُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَدْ كَانَ مِنْ مُنَاصِرِي ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَعَادَ الشَّيْخُ إِلَىٰ دُورُسِهِ العَامِرَةِ فِي القَاهِرَةِ.

وَامْتُحِنَ شَيْخُ الإِسْلَامِ بِسَبَبِ فَتْوَاهُ فِي مَسْأَلَةِ الطَلَاقِ، وَطُلِبَ مِنْهُ أَنْ

يَمْتَنِعَ عَنْ الإفْتَاءِ بِهَا فَلَمْ يَمْتَنِعْ حَتَّىٰ سُجِنَ فِي القَلْعَةِ مِنْ دِمَشْقٍ بِأَمْرٍ مِنْ نَائِبِ السَلْطَنَةِ سَنَةَ ٧٢٠هـ إِلَىٰ سَنَةِ ٧٢١هـ لِمُدَّةِ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ وَبِضْعَةِ أَيَّامٍ.

وَبَحَثَ حُسَّادُهُ عَنْ شَيءٍ لِلْوِشَايَةِ بِهِ عِنْدَ الوُلَاةِ فَزَوَّرُوا كَلَامًا لَهُ حَوْلَ زِيَارَةِ القُبُورِ، وَقَالُوا بِأَنَّهُ يَمْنَعُ مِنْ زِيَارَةِ القُبُورِ حَتَّىٰ قَبْرَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَتَبَ نَائِبُ السَلْطَنَةِ فِي دِمَشْقٍ إِلَىٰ السُلْطَانِ فِي مِصْرَ بِذَلِكَ، وَنَظَرُوا فِي الفَتْوَىٰ دُوْنَ سُؤَالِ صَاحِبِهَا عَنْ صِحَتِهَا وَرَأيِهِ فِيهَا، فَصَدَرَ الحُكْمُ بِحَقِهِ فِي شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ ٧٢٦هـ بِأَنْ يُنْقَلَ إِلَىٰ قَلْعَةِ دِمَشْقٍ وَيُعْتَقَلُ فِيْهَا هُوَ وَبَعْضُ أَتْبَاعِهِ وَاشْتَدَّتْ مِحْنَتِهِ سَنَةَ ٧٢٨هـ حِيْنَ أُخْرِجَ مَا كَانَ عِنْدَ الشَّيْخِ مِنْ الكُتُبِ وَالأَوْرَاقِ وَالأَقْلَامِ، وَمُنِعَ مِنْ مُلَاقَاةِ النَّاسِ، وَمِنْ الكِتَابَةِ وَالتَأْلِيْفِ.

٥) وَفَاتُهُ رَحِمَهُ اللهَ:

فِي لَيْلَةِ الاثْنَيْنِ لِعِشْرِيْنَ مِنْ ذِي القَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ ٧٢٨هـ تُوفِيَ شَيْخُ الإسْلَامِ بِقَلْعَةِ دِمَشْقٍ الَّتِي كَانَ مَحْبُوسًا فِيْهَا، وَأُذِنَ لِلنَّاسِ بِالدُخُولِ فِيْهَا، ثُمَّ غُسِّلَ فِيْهَا وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ بِالقَلْعَةِ وَالطَرِيْقِ إِلَىٰ جَامِعِ دِمَشْقٍ، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بِالقَلْعَةِ، ثُمَّ وُضِعَتْ جِنَازَتَهُ فِي الجَامِعِ وَالجُنْدُ يَحْفَظُونَهَا مِنْ النَّاسِ مِنْ شِدَّةِ الزِحَامِ، ثُمَّ صُلِّيَ عَلَيْهِ بَعْدَ صَلَاةِ الظُهْرِ، ثُمَّ حُمِلَتْ الجَنَازَةُ، وَاشْتَدَّ الزِحَامُ، فَقَدْ أَغْلَقَ النَّاسُ حَوَانِيْتَهُمْ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ الحُضُورِ إلّا القَلِيْلُ مِنْ النَّاسِ، أَوْ مَنْ أَعْجَزَهُ الزِحَامُ، وَصَارَ النَعْشُ عَلَىٰ الرُؤوسِ تَارَةً يَتَقَدَّمُ، وَتَارَةً يَتَأَخَّرُ، وَتَارَةً يَقِفُ حَتَّىٰ يَمُرُّ النَّاسُ، وَخَرَجَ النَّاسُ مِنْ الجَامِعِ مِنْ أَبْوَابِهِ كُلِّهَا وَهِيَ شَدِيْدَةُ الزِحَامِ.

٦) مُؤَلَّفَاتِهِ:

مُؤَلَّفَاتُ الشَّيْخِ كَثِيْرَةٌ يَصْعُبُ إِحْصَاؤهَا، وَعَلَىٰ كَثْرَتِهَا فَهِيَ لَمْ تُوْجَدْ فِي بَلَدٍ مُعَيَّنٍ فِي زَمَانِهِ إِنَّمَا كَانَتْ مَبْثُوثَةً بَيْنَ الأَقْطَارِ كَمَا قَالَ الحَافِظُ البَزَّارُ (٧٤٩هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وَأَمَّا مُؤَلَّفَاتُهُ وَمُصَنَّفَاتُهُ، فَإِنَّهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ أَقْدِرَ عَلَىٰ إِحْصَائِهَا أَوْ يَحْضُرُنِي جُمْلَةَ أَسْمَائِهَا. بَلْ هَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَالِبًا أَحَدٌ؛ لِأَنَّهَا كَثِيْرَةٌ جِدًّا، كِبَاراً وَصِغَاراً، أَوْ هِيَ مَنْشُورَةٌ فِي البُلْدَانِ فَقَلَّ بَلَدٌ نَزَلْتُهُ إِلَّا وَرَأَيْتُ فِيْهِ مِنْ تَصَانِيْفِهِ).

وَقَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِي (٧٩٥هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وَأَمَّا تَصَانِيْفُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ فَهِيَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ، وَأَعْرَفُ مِنْ أَنْ تُنْكَرَ، سَارَتْ سَيْرَ الشَّمْسِ فِي الأَقْطَارِ، وَامْتَلَأَتْ بِهَا البِلَادُ وَالأَمْصَارُ، قَدْ جَاوَزَتْ حَدَّ الكَثْرَةِ فَلَا يُمْكِنُ أَحَدٌ حَصْرَهَا، وَلَا يَتَسِعُ هَذَا المَكَانُ لِعَدِّ المَعْرُوفِ مِنْهَا، وَلَا ذِكْرِهَا).

وَذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الهَادِي (٧٤٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَجْوِبَةَ الشَّيْخِ يَشُقُّ ضَبْطُهَا وَإِحْصَاؤُهَا، وَيَعْسُرُ حَصْرُهَا وَاسْتِقْصَاؤُهَا، لِكَثْرَةِ مَكْتُوبِهِ، وَسُرْعَةِ كِتَابَتِهِ، إِضَافَةً إِلَىٰ أَنَّهُ يَكْتُبُ مِنْ حِفْظِهِ مِنْ غَيْرِ نَقْلٍ فَلا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَكَانٍ مُعَيَّنٍ لِلْكِتَابَةِ، وَيُسْأَلُ عَنْ الشَّيءِ فَيَقُولُ: قَدْ كَتَبْتُ فِي هَذَا، فَلا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ؟ فَيَلْتَفِتُ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، وَيَقُولُ: رُدُّوا خَطِّي وَأَظْهِرُوهُ لِيُنْقَلَ، فَمِنْ حِرْصِهِمْ عَلَيْهِ

لَا يَرُدُونَهُ، وَمِنْ عَجْزِهِمْ لَا يَنْقُلُونَهُ، فَيَذْهَبُ وَلَا يُعْرَفُ اسْمُهُ.

وَلَمَّا حُبِسَ شَيْخُ الإِسْلَامِ خَافَ أَصْحَابُهُ مِنْ إِظْهَارِ كُتُبِهِ، وَتَفَرَّقُوا فِي البُلْدَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تُسْرَقُ كُتُبُهُ فَلَا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَطْلُبَهَا أَوْ يَقْدِرَ عَلَىٰ تَخْلِيْصِهَا.

٧) بَعْضُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ:

قَالَ العَلَّامَةُ كَمَالُ الدِيِّنِ بْنُ الزَمَلْكَانِي (٧٢٧هـ): (كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ فَنٍّ مِنْ العِلْمِ ظَنَّ الرَائِي وَالسَامِعِ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ ذَلِكَ الفَنَّ، وَحَكَمَ أَنَّ أَحَداً لَا يَعْرِفُهُ مِثْلَهُ، وَكَانَ الفُقَهَاءُ مِنْ سَائِرِ الطَوَائِفِ إِذَا جَلَسُوا مَعَهُ اسْتَفَادُوا فِي مَذَاهِبِهِمْ مِنْهُ مَا لَمْ يَكُونُوا عَرَفُوهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَا يُعْرَفُ أَنَّهُ نَاظَرَ أَحَداً فَانْقَطَعَ مَعَهُ وَلَا تَكَلَّمَ فِي عِلْمٍ مِنْ العُلُومِ، سَوَاءٌ أَكَانَ مِنْ عُلُومِ الشَرْعِ أَمْ غَيْرِهَا إِلَّا فَاقَ فِيْهِ أَهْلَهُ، وَالمَنْسُوبِيْنَ إِلَيْهِ، وَكَانَتْ لَهُ اليَدُ الطُوْلَىٰ فِي حُسْنِ التَصْنِيْفِ، وَجَوْدَةِ العِبَارَةِ وَالتَرْتِيْبِ وَالتَقْسِيْمِ وَالتَبْيِينِ).

وَقَالَ أَيْضاً فِيْهِ: (اجْتَمَعَتْ فِيْهِ شُرُوطُ الاجْتِهَادِ عَلَىٰ وَجْهِهَا).

وَقَالَ ابْنُ دَقِيْقِ العِيْدِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَمَّا اجْتَمَعْتُ بِابْنِ تَيْمِيَّةَ رَأَيْتُ رَجُلاً العُلُومُ كُلُّهَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، يَأْخُذُ مِنْهَا مَا يُرِيْدُ، وَيَدَعُ مَا يُرِيْدُ).

وَقَالَ أَبُو البَقَاءِ السُبْكِي: (وَاللهُ يَا فُلَانُ مَا يَبْغَضُ ابْنَ تَيْمِيَّةِ إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ صَاحِبُ هَوَىٰ، فَالجَاهِلُ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ، وَصَاحِبُ الهَوَىٰ يَصُدُّهُ هَوَاهُ عَنْ الحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِهِ)، وَحِيْنَ عَاتَبَ الإِمَامُ الذَهَبِيُّ (٤٨هـ) الإِمَامَ السُبْكِيَّ كَتَبَ مُعْتَذِراً مُبَيِّنًا رَأْيَهُ فِي شَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ بِقَوْلِهِ:

(أَمَّا قَوْلُ سَيِّدِي فِي الشَّيْخِ، فَالممْلُوكُ يَتَحَقَّقُ كِبَرُ قَدْرُهُ، وَزَخَارَةِ بَحْرِهِ، وَتَوْسُعِهِ فِي العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ، وَفَرْطُ ذَكَائِهِ وَاجْتِهَادِهِ، وَبُلُوغِهِ فِي كُلٍّ مِنْ ذَلِكَ المَبْلَغُ الَّذِي يَتَجَاوَزُ الوَصْفَ، وَالمَمْلُوكُ يَقُولُ ذَلِكَ دَائِماً، وَقَدْرُهُ فِي نَفْسِي أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَجَلُّ، مَعَ مَا جَمَعَ اللهُ لَهُ مِنْ الزَهَادَةِ وَالوَرَعِ وَالدِيَانَةِ، وَنُصْرَةِ الحَقِّ وَالقِيَامِ فِيْهِ، لَا لِغَرَضٍ سِوَاهُ، وَجَرْيِهِ عَلَىٰ سَنَنِ السَّلَفِ، وَأَخْذِهِ مِنْ ذَلِكَ بِالمَأْخَذِ الأَوْفَىٰ، وَغَرَابَةِ مِثْلِهِ فِي هَذَا الزَمَانِ بَلْ مِنْ أَزْمَانٍ).

وَأَمَّا ثَنَاءُ الإِمَامِ الذَهَبِيِّ عَلَىٰ شَيْخِهِ شَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فَهُوَ كَثِيْرٌ، وَلَعَلِّي أَذْكُرُ بَعْضَ مَقُولَاتِ الإِمَامِ الذَهَبِيِّ فِي ابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ:

(ابْنُ تَيْمِيَّةَ: الشَّيْخُ الإِمَامُ العَالِمُ، المُفَسِّرُ، الفَقِيْهُ، المُجْتَهِدُ، الحَافِظُ، المُحَدِثُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، نَادِرَةُ العَصْرِ، ذُو التَصَانِيْفِ البَاهِرَةِ، وَالذَكَاءِ المُفْرِطِ).

وَقَوْلُهُ: (... وَنَظَرَ فِي الرِجَالِ وَالعِلَلِ، وَصَارَ مِنْ أَئِمَّةِ النَقْدِ، وَمِنْ عُلَمَاءِ الأَثَرِ مَعَ التَدَيُنِ وَالنَبَالَةِ، وَالذِكْرِ وَالصِيَانَةِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ الفِقْهِ، وَدَقَائِقِهِ، وَقَوَاعِدِهِ، وَحُجَجِهِ، وَالإِجْمَاعِ وَالاخْتِلَافِ حَتَّىٰ كَانَ يُقْضَىٰ مِنْهُ العَجَبُ إِذَا ذَكَرَ مَسْأَلَةً مِنْ مَسَائِلِ الخِلَافِ، ثُمَّ يَسْتَدِلُّ وَيُرَجِّحُ وَيَجْتَهِدُ، وَحُقَّ لَهُ ذَلِكَ فَإِنَّ شُرُوطَ الاجْتِهَادِ كَانَتْ قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيْهِ، فَإِنَّنِي مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَسْرَعُ انْتِزَاعاً لِلآيَاتِ الدَالَّةِ عَلَىٰ المَسْأَلَةِ الَّتِي يُورِدُهَا مِنْهُ، وَلَا أَشَدَّ اسْتِحضَاراً لِمُتُونِ الأَحَادِيْثِ، وَعَزْوِهَا إِلَىٰ الصَحِيْحِ أَوْ المُسْنَدِ أَوْ إِلَىٰ السُنَنِ مِنْهُ، كَأَنَّ

الكِتَابُ وَالسُنَنُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ وَعَلَىٰ طَرَفِ لِسَانِهِ، بِعِبَارَةٍ رَشِيْقَةٍ، وَعَيْنٍ مَفْتُوحَةٍ، وَإِفْحَامٍ لِلْمُخَالِفِ...).

وَقَالَ: (... هَذَا كُلُّهُ مَعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الكَرَمِ الَّذِي لَمْ أُشَاهِدْ مِثْلَهُ قَطْ، وَالشَجَاعَةُ المُفْرِطَةُ الَّتِي يُضْرَبُ بِهَا المَثَلُ، وَالفَرَاغُ عَنْ مَلَاذِ النَفْسِ مِنْ اللِّبَاسِ الجَمِيْلِ، وَالمَأكَلِ الطَيِّبِ، وَالرَاحَةِ الدُنْيَوِيَّةِ).

وَقَالَ عَنْهُ: (... لَا يُؤتَىٰ مِنْ سُوءِ فَهْمٍ، بَلْ لَهُ الذَكَاءُ المُفْرِطُ، وَلَا مِنْ قِلَّةِ عِلْمٍ فَإِنَّهُ بَحْرٌ زَخَّارٌ، بَصِيْرٌ بِالكِتَابِ وَالسُنَّةِ، عَدِيْمُ النَظِيْرِ فِي ذَلِكَ، وَلَا هُوَ بِمُتَلَاعِبٍ بِالدِيْنِ، فَلَو كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ أَسْرَعَ شَيءٍ إِلَىٰ مُدَاهَنَةِ خُصُومِهِ وَمُوَافَقَتِهِمْ وَمُنَافَقَتِهِمْ، وَلَا هُوَ يَنْفَرِدُ بِمَسَائِلٍ بِالتَّشَهِي.... فَهَذَا الرَجُلُ لَا أَرْجُو عَلَىٰ مَا قُلْتُهُ فِيْهِ دُنْيَا وَلَا مَالاً وَلَا جَاهاً بِوَجْهٍ أَصْلاً، مَعَ خِبْرَتِي التَّامَّةِ بِهِ، وَلَكِنْ لَا يَسَعُنِي فِي دِيْنِي وَلَا فِي عَقْلِي أَنْ أَكْتُمَ مَحَاسِنَهُ، وَأَدْفِنَ فَضَائِلَهُ، وَأَبْرِزَ ذُنُوباً لَهُ مَغْفُورَةً فِي سِعَةِ كَرَمِ اللهِ تَعَالَىٰ....).

وَقَالَ الشَوكَانِي رَحِمَهُ اللهُ: (إِمَامُ الأَئِمَّةِ المُجْتَهِدُ المُطْلَقُ).

رَحِمَ اللهُ شَيْخَ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ، وَأَسْكَنَنَا وَإِيَّاهُ فِي الفُرْدَوْسِ الأَعْلَىٰ مِنْ جَنَّتِهِ[1]

---

(١) نقلًا عن كتاب (دعاوىٰ المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية) للدكتور عبدالله الغصن وفقه الله، طبع دار ابن الجوزي بالدمام،(١٦١-١٣٩).

بِسْـــمِ[1] اللهِ[2]..................................

(١) البَاءُ لِلاِستِعَانَةِ وَهِيَ مُتَعَلِقَةٌ بِمَحْذُوفٍ مُتَأَخِرٍ قَدَّرَهُ بَعْضُهُمْ فِعْلاً مِثْل اَبْتَدِأُ أَوْ أَقْرَأُ، وَقَدَّرَهُ بَعْضُهُمْ اِسْمًا اِبْتِدَاءٌ أَوْ مُسْتَقِرٌ أَوْ ثَابِتٌ.

وَالقَوْلَانِ مُتَقَارِبَانِ.

وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ المُقَدَّرُ مُتَأَخِرَاً لِأَمْرَيْنِ:

١ - لِأَنَّ لَفْظَ الجَلَالَةِ أَحَقُ بِالتَقْدِيْمِ.

٢ - لِأَنَّ تَقْدِيْمَ الجَارِ وَالمَجْرُورِ يُفِيْدُ اِخْتِصَاصَ لَفْظِ الجَلَالَةِ بِكَوْنِهِ مُتَبَرَّكًا بِهِ وَاخْتَلَفُوا فِي أَصْلِ اِشْتِقَاقِ الاِسْمِ قِيْلَ: مُشْتَقٌّ مِنْ السِّمَةِ، لِأَنَّ الاِسْمَ عَلَامَةٌ لِمَا وُضِعَ لَهُ. وَقِيْلَ: مُشْتَقٌّ مِنْ السُمُوِ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَرْتَفِعُ بِهِ مِنْ حَيِّزِ الجَهْلِ إِلَىٰ حَيِّزِ الْعِلْمِ، وَاخْتَارَهُ القُرْطُبِيُ وَابْنُ عَطِيَّةَ وَالشَوْكَانِي[1].

وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْسُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ الاِسْمَ لِلْمُسَمَّىٰ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وَلِأَنَّ الاِسْمَ هُوَ اللَفْظُ الدَالُ عَلَىٰ المُسَمَّىٰ، وَأَمَّا المُسَمَّىٰ هُوَ المَدْلُولُ عَلَيهِ بِذَلِكَ الاِسْمِ.

(٢) اِسْمٌ لِلْمَوجُودِ الحَقِ الجَامِعِ لِصِفَاتِ الأُلُوهِيَّةِ، المَنْعُوتِ بِنُعُوتِ الرُبُوبِيَّةِ المُتَفَرِدِ بِالْكَمَالِ.

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١/ ٧١)، والمحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٦١)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ١٧).

وَلَفْظُ الجَلَالَةِ فِي الأَصْلِ مُشْتَقٌّ مِنْ أَلَهَ يَأْلِهُ إِلَاهَةً، فَأَصْلُ الاِسْمِ الْإِلَهُ فحُذِفتِ الهمزةُ وَأُدْغِمَتِ اللَّامُ الأُوْلَىٰ فِي الثَانِيَةِ وُجُوبًا فَقِيْلَ: اللهُ، وَمِنْ أَقْوَىٰ الْأَدلَّةِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] مَعَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وَمَعْنَاهُ ذُوْ الْأُلُوهِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ وَمَعْنَىٰ أَلَهَ يَأْلِهُ إِلَهَةً عَبَدَ يَعْبِدُ عِبَادَةً فَاللهُ الْمَأْلُوهُ أَيْ: الْمَعْبُودُ. وَلِهَذَا الاِسْمِ خَصَائِصٌ لَا يُحْصِيْهَا إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقِيْلَ: إِنَّهُ هُوَ الاِسْمُ الأَعَظَمُ(١).

وَلَفْظُ الجَلَالَةِ، مُشْتَقٌّ كَمَا قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَا يُرِيْدُوْنَ بِالاِشْتِقَاقِ أَنَّهُ مُسْتَمَدٌ مِنْ أَصْلٍ آخَرٍ – لِأَنَّ هَذَا بَاطِلٌ – وَإِنَّمَا يُرِيْدُونَ أَنَّهُ دَالٌ عَلَىٰ صِفَةٍ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَهِيَ الأُلُوهِيَّةُ(٢).

وَلِلَفْظِ الجَلَالَةِ خَصَائِصٌ يَخْتَصُ بِهَا، وَهِيَ:

١ – أَنَّهُ لَا يُسَمَّىٰ بِهِ غَيرُهُ جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول لحافظ حكمي (١/ ٦٧).

(٢) وقيل: إنّه اسمٌ جامدٌ غير مشتق، لأنّ الاشتقاق يستلزم مادةً يشتقُّ منها، واسمه تعالىٰ قديم، والقديم لا مادة له، فهو كسائر الأعلام المحضة، التي لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها. وقال بهذا جماعة منهم الشافعي وأبوالمعالي والزجاج والخطابي والغزالي وأبوبكر بن العربي والسهيلي. انظر التفسير القيم لابن القيم (٢/ ١٨٩).

الـرّحْمَــنِ الـرّحِيـــمِ[1]..............................

٢- أنَّ كَلِمَةَ التوحِيْدِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِهِ، فَلَوْ قَالَ الْكَافِرُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الرَحْمَنُ. فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي الإِسْلَامِ بِذَلِكَ.

٣- أَنَّ سَائِرَ الأَسْمَاءِ إِذَا دَخَلَ عَلَيهَا النَدَاءُ أُسْقِطَتْ عَنْهَا الأَلِفُ وَاللامُ، وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: يَا الرَحْمَنُ يَا العَلِيْمُ بَلْ يُقَالُ: يَاَ رحْمَنُ يَا عَلِيْمُ.

أَمَّا لَفْظُ الجَلَالَةِ فَيُقَالُ: يَا اللهُ، لِأَنَّ الأَلِفَ وَاللاَمَ جُزْءٌ مِنْهُ لَا لَلتَعْرِيْفِ.

أَنَّهُ هُوَ الأَصْلُ فِي أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ وَسَائِرِ الأَسْمَاءِ تُضَافُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾، لِذَلِكَ نَقُولُ: الرَحْمَنُ الرَحِيْمُ الكَرِيمُ كُلُها أَسْمَاءٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا نَقُولُ: اللهُ اِسْمٌ لِلرَحْمَنِ!!

(١) اسْمَانِ كَرِيمَانِ مِنْ أَسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ جَلَّ وَعَلَا، دَالَّانِ عَلَىٰ اِتِّصَافِهِ تَعَالَىٰ بِصَفَةِ الرَحْمَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ حَقِيْقِةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عَلَىٰ مَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

الرَّحمَنُ عَلَىٰ وَزْنِ فَعْلَانِ وَهِيَ تَدُلُ عَلَىٰ الاِمْتِلَاءِ وَالْكَثْرةِ، فَالرَحْمَنُ هُوَ الَّذِي وَسِعَتْ رَحمَتُهُ كُلَّ شَيءٍ فِي الدُنْيَا.

والرَّحِيمُ عَلَىٰ وَزْنِ فَعِيلٍ وَهُوَ الَّذِي تَتكَرَّرُ مِنْهُ الرَّحمَةُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.

وَالرَحمَنُ اِسْمٌ خَاصٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّىٰ بهِ غَيْرُهُ جَلَّ وَعَلَا كَمَا قَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: وَالحَاصِلُ أَنَّ مِنْ أَسمَائِهِ تَعَالَىٰ مَا يُسَمَّىٰ بِهِ غَيْرُهُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسَمَّىٰ بِهِ غَيرُهُ، كَاسْمِ اللهِ وَالرَّحمَنِ وَالخَالِقِ وَالرَّازِقِ وَنَحوِ ذَلِكَ، فَلِهَذَا

الحَمْـــــدُ لِلّهِ[١] الّـــذِي أَرسَـــــلَ رَسُـــــولَـــهُ[٢]..............

بَدَأَ بِاسمِ اللهِ وَوَصَفَهُ بِالرَحمَنِ لَأَنَّهُ أَخصُّ وَأَعْرَفُ مِنْ الرَحِيمِ، لِأَنَّ التَسمِيَةَ أَوّلاً يَكُونُ بِأَشرَفِ الأَسمَاءِ فَلِهَذَا اِبْتَدَأَ بِالأَخصِ فَالأَخصِ. اهـ(١)

(١) الأَلِفُ وَالَّلامُ لِلاِسْتِغْرَاقِ أَيْ أَنَّ جَمِيْعَ المَحَامِدِ للهِ مُلْكًا وَاسْتِحقَاقًا، وَكَانَتْ كُلُّها للهِ لِرُبُوبِيَتِهِ وَأُلُوهِيَتِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ وَلِإِنْعَامِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

وَالحَمْدُ لُغَةً : الثَنَاءُ بِالصِفَاتِ الجَمِيْلَةِ، وَالأَفْعَالِ الحَسَنَةِ، يُقَالَ: حَمِدْتُ الرَجُلَ عَلَىٰ إِنْعَامِهِ، وَحَمِدْتُهُ عَلَىٰ شَجَاعَتِهِ.

وَأَمَّا الشُكْرُ فَهُوَ الثَنَاءُ عَلَىٰ الأَفعَالِ الحَسَنَةِ.

فَمِنْ حَيْثُ السَبَبِ الحَمْدُ أَعَمُّ مِنْ الشُكْرِ، وَمِنْ حَيْثُ الآلَةِ فَالحَمْدُ أَخَصُّ مِنْ الشُكْرِ، لِأَنَّ الحَمْدَ يَكُونُ بِاللِسَانِ فَقَط ، وَأَمَّا الشُكْرُ فَيَكُونُ بِاللِسَانِ وَالقَلْبِ وَالجَوَارِحِ(٢).

(٢) الرَسُولُ فِي اللُّغَةِ هُوَ مَنْ بُعِثَ بِرِسَالَةٍ. وَشَرْعًا: إِنْسَانٌ ذَكَرٌ حُرٌّ أُوحِيَ إِلَيهِ بِشَرعٍ، وَأُمِرَ بِالتَبْلِيغِ. فَإِنْ لَمْ يُؤمَرْ بِالتَبْلِيغِ فَهُوَ نَبِيٌّ.

وَاشْتِرَاطُ الذُكُورِيَةِ مَذهَبُ جُمهُورِ العُلَمَاءِ، وَالدَلِيْلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وَلِأَنَّ الرِسَالَةَ تَقتَضِي

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١).

(٢) أمّا الفرق بين الحمد والمدح، فهو " أنّ الحمدَ إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حُبِّه وتعظيمِهِ... بخلاف المدح فإنّهُ إخبارٌ مجرَّدٌ". اهـ بدائع الفوائد (٢/ ٩٣).

بِالهُـــــدَىٰ[1] ....

الاِشتِهَارَ بِالدَعوَةِ، وَالأُنُوثَةُ تَقتَضِي التَسَتُّرَ[1].

(١) الهُدَىٰ فِي اللُّغَةِ: البَيَانُ وَالدِلاَلَةُ. وَفِي الشَرعِ: هُوَ العِلْمُ النَافِعُ. قَالَ اِبنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الهُدَىٰ هُوَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ الإِخبَارَاتِ الصَادِقَةِ، وَالإِيمَانِ الصَحِيحِ، وَالعِلْمِ النَافِعِ وَالعَمَلِ الصَالِحِ. اهـ

وَالهِدَايَةُ عَلَىٰ نَوعَينِ:

الأَوّلِ: هِدَايَةُ دِلَالَةٍ وَبَيَانٍ لِمَا فِيهِ خَيْرُ الدُنْيَا وَالآخِرَةِ، وَهِيَ لا تَستَلْزِمُ التَوفِيْقَ وَاتِبَاعَ الحَقِ، إِمَّا لِوجُودِ مَانِعٍ كَالعِنَادِ وَالإِعْرَاضِ، وَإِمَّا لِعَدَمِ كَمَالِ البَيَانِ، وَمِنْهُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وَقَولُهُ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وَالهِدَايَةُ بِهَذَا المَعنَىٰ عَامةٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَلِهَذَا يُوصَفُ بِهَا القُرآنُ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وَيُوصَفُ بِهَا الرَسُولُ ﷺ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) وخالف أبوالحسن الأشعري وابن حزم وقالا: إنَّه يوجد من النّساء نبيّات، واتفقا علىٰ نبوة مريم ابنة عمران واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، وزاد ابن حزم بنبوّة حواء، وسارة أمّ إسحاق، وهاجر، وآسية امرأة فرعون، وأمّ موسىٰ واسمها (يوخابذ)، وقيل: (يخابذ).

وَدِيْـنِ الحَـقِ(١)..................................

مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

الثَانِي: هِدَايَةُ تَوفِيقٍ وَإِلهَامٍ، وَخَلْقِ المَشَيئَةِ المُستَلزِمَةِ لِلْفِعلِ، وَهَذَا النَوعُ أَخَصُ مِنْ الأَوَلِ، وَهُوَ خَاصٌ بِاللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وَقَدْ نَفَاهَا اللهُ عَنْ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي قَولِهِ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

وَهَذَا النَوعُ مِنْ الهِدَايَةِ تَستَلْزِمُ أَمْرَينِ :

١ – فعلُ الرَّبِ جَلَّ وَعَلَا وَهُوَ الهُدَىٰ.

٢ – فعلُ العَبْدِ، وَهُوَ الاِهتِدَاءُ. وَهُوَ أَثَرُ فِعْلِهِ سُبْحَانَهُ فَهُوَ الهَادِي، وَالعَبْدُ المُهتَدِي، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وَلَا سَبِيل إِلىٰ وُجُودِ الأَثَرِ إِلَّا بِمُؤثره التَّام فإِنْ لَمْ يَحصُلْ فِعْلُ الله لَمْ يَحْصلْ فِعْلُ العَبْدِ، ولِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧]، وَقَالَ: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩].

(١) الدِيْنُ يُطْلَقُ عَلَىٰ الجَزَاءِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]، وعلىٰ الخُضُوعِ وَالاِنقِيَادِ، وَمِنْهُ تَقُولُ العَرَبُ: دَانَ لَهُ، بِمَعنَىٰ ذَلَّ وَخَضَعَ.

لِيُظْهِـرَهُ[١] عَلَـى الـدِيْنِ كُلِّـهِ وَكَفَـى بِاللّهِ شَهِيْـداً[٢]..........

وَالمُـرَادُ بِالـدِيْنِ هُنَـا جَمِيْـعُ مَـا أَرْسَـلَ اللهُ بِـهِ رَسُـولَهُ ﷺ مِـنْ الأَحكَـامِ وَالشَرَائِعِ اعتِقَادِيَةً كَانَتْ أَمْ قَولِيَّةً أَمْ فِعْلِيَّةً.

(١) لِيُعْلِيَهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الأَدْيَانِ بِالحُجَّةِ وَالبَيَانِ أَوْ الجِهَادِ بِالسِنَانِ. وَلَا يَلْزَمُ مِنْ انْتِفَاءِ الثَانِي انْتِفَاءُ الأَوَّلِ، لِأَنَّ الأَوَّلَ هُوَ الأَهَمُّ، فَمَنْهَجُ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ ظَاهِرٌ وَاضِحٌ لِمَنْ طَلَبَهُ وَأَرَادَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ عَلَىٰ مَرِّ القُرُونِ وَالسِنِيْنِ أَنْ يُثْبِتَ بُطْلَانَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَتَبَدَّلْ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ، كَمَا قَالَ ﷺ: « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ »[١].

وَالدَلِيْلُ عَلَىٰ الظُهُورِ بِالْسِنَانِ حَدِيْثُ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا »[٢].

(٢) أَيْ شَاهِدَاً أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَمُطَّلِعٌ عَلَىٰ جَمِيعِ أَفعَالِهِ، وَنَاصِرُهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ، وَفِي ذَلِكَ دِلَالَةٌ قَاطِعَةٌ عَلَىٰ صِدْقِهِ إِذْ لَوْ كَانَ مُفْتَرِيَاً لَعَاجَلَهُ اللهُ بِالعُقُوبَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٨١)، ومسلم (١٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

وَأَشْهَدُ(١) أَنّ لا إِلَهَ إِلا اللهُ(٢) وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ إِقْرَاراً بِهِ وَأَشْهَدُ أَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ(٣) وَرَسُولُه.....

بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

(١) الشَهَادَةُ هِيَ الإِخْبَارُ بالشَّيءِ عَنْ عِلْمٍ بِهِ، وَاعتِقَادٍ لِصِحّتِهِ وَثُبُوتِهِ، وَلَا تُعْتَبَرُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَصْحُوبَةً بِالإِقْرَارِ وَالإِذْعَانِ، وَوَاطَأَ القَلْبُ عَلَيهَا اللِسَانَ، وَاللهُ قَدْ كَذَّبَ المُنَافِقِينَ فِي تَلَفُظِهِم بِالشَهَادَةِ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١].

(٢) أَيْ أَقَرُّ وَاعترَفُ أنْ لَا مَعبُودَ بِحَقٍ إِلَّا الله.

(٣) وَصْفُ النَّبِيِّ ﷺ بِالعُبُودِيَةِ فِيهِ ثَنَاءٌ عَلَيهِ بَأَنَّهُ حَقَّقَ مِنْ العُبُودِيَّةِ كَمَالَهَا. وَكَمَالُ المَخلُوقِ يَكُونُ بِكَمَالِ تَحقِيقِهَا، لِأَنَّهَا الغَايَةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خُلِقْنَا كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لِهَذَا ذَكَرَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ بِلَقَبِ العَبْدِ فِي أَسْمَىٰ أَحوَالِهِ، وَأَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ كَالإِسرَاءِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء: ١]، وَقِيَامِهِ بِالدَعوَةِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن: ١٩]، وَالإِيحَاءِ إِلَيهِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]، وَالتَحَدِّي بَالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيهِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا

صَلَّى[١] اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ[٢]....................

عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣].

(١) الصَلَاةُ فِي اللُغَةِ: الدُعَاءُ، وَمِنْهُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وَأَصَحُّ مَا قِيلَ فِي صَلَاةِ اللهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ هُوَ مَا جَاءَ عَنْ أَبِي العَالِيَةِ، قال: صَلَاةُ اللهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيهِ عِنْدَّ المَلَائِكَةِ[١]. وَالمَشْهُورُ أَنَّ الصَلَاةَ مِنْ المَلَائِكَةِ الإِستِغفَارُ، كَمَا قَالَ ﷺ: « وَالمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّىٰ فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَ ارْحَمْهُ »[٢]، وَالصَلَاةُ مِنْ الآدَمِيِينَ: التَضَرُّعُ وَالدُعَاءُ.

(٢) أَصْلُهَا أَهْلُ، أُبْدِلَتْ الهَاءُ هَمْزَةً، فَتَوَالَتْ هَمْزَتَانِ، فَقُلِبَتْ الثَانِيَةُ أَلِفًا، وَلَا يُستَعْمَلُ إِلَّا فِيْمَا شَرُفَ غَالِبًا، فَلَا يُقَالُ: آلُ الحَجَّامِ، أَوْ آلُ الكَسَّاحِ.

وَاصْطِلَاحًا: هُمْ مُؤْمِنُو بَنِي هَاشِمٍ وَالمُطَلِبِ. وَهُمْ الَّذِيْنَ حَرُمَتْ عَلَيْهِمْ الصَدَقَةُ، وَهُمْ آلُ عَلِيٍّ وَجَعْفَرٍ وَعَقِيْلٍ أَبْنَاءِ أَبِي طَالِب، وَآلُ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَآلُ الحَارِثِ بنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ. كَمَا نَصَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الإِمَامُ الشَافِعِيُ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيْفَةَ وَالدَلِيْلُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَدِيْثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ الحَسَنَ وَالحُسَينَ كَانَا يَلْعَبَانِ بِتَمْرِ الصَدَقَةِ فَأَخَذَ أَحَدُهُمَا تَمْرَةً فَجَعَلَهَا فِي فِيْهِ،

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ٥٣٢) "فتح".

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٥)، ومسلم (٦٤٩).

وَصَحْبِــــهِ(١) وَسَلَّــمَ تَسْلِيمَــــاً(٢) مَـــزِيْـــــداً(٣)..............

فَأَخْرَجَهَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ فِيهِ، وَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ لا يَأْكُلُونَ الصَدَقَةَ[1].

وَكَذَلِكَ جَاءَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي خُطْبَةٍ بِمَاءِ خُمٍ عِنْدَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِرُكُمْ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِرُكُمْ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي »، فَقَالَ حُصَيْنُ بنُ سِيُرَةَ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ زَيْدٌ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حَرُمَ الصَدَقَة بَعْدَهُ، قَالَ: وَهُمْ آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ العَبَّاسِ، كُلُّ هَؤُلَاءِ حَرُمَ الصَدَقَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ[2].

وَقِيْلَ: هُمْ ذُرِيَّتُهُ وَأَزْوَاجُهُ خَاصَّةً.

وَقِيْلَ: هُمْ أَتْبَاعُهُ عَلَىٰ دِيْنِهِ.

(١) جَمْعُ صَاحِبٍ. وَالصَحَابِيُ هُوَ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤمِنَـاً وَمَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ.

(٢) السَّلَامُ تَأْتِي بِمَعْنَىٰ التَحِيَةِ أَوْ السَّلَامَةِ مِنْ النَقَائِصِ وَالرَذَائِلِ.

(٣) اِسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ الزِيَادَةِ وَهِيَ النُمُوُ.

وَالمُصَنِفُ رَحِمَهُ اللهُ جَمَعَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ اِمْتِثَالاً لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٤) ومسلم (١٠٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

أَمَّـــا بَعْـــــدُ[(١)]:

فَهَـذَا اعْتِقَــادُ[(٢)] الْفِـرْقَــةِ[(٣)] النَّــاجِيَــةِ[(٤)] المَنْصُــورَةِ[(٥)].......

(١) كَلِمَـةٌ يُـؤتَىٰ بِهَـا لِلْدِلَالَـةِ عَلَـىٰ الشُـرُوعِ فِـي المَقْصُـودِ، وَكَـانَ النَّبِـيُّ ﷺ يَسْتَعْمِلُهَا كَثِيراً فِي خُطَبِهِ وَكُتُبِهِ، وَتَقْدِيْرُهَا عِنْدَ النَحـوِيْينَ: مَهْمَـا يَكُـنْ مِـنْ شَيءٍ بَعْدُ.

(٢) اِفْتِعَـالٌ مِـنْ العَقْـدِ وَهُـوَ الـرَّبْطُ وَالْشَّـدُّ. وَاصْـطِلَاحـًا: هُـوَ حُكْـمُ الْـذِهْنِ الجَازِمِ الخَالِي مِنْ التَرَدُدِ وَالشَكِّ.

(٣) الطَائِفَةُ مِنْ النَّاسِ.

(٤) فِي الدُنْيَا مِنْ البِدَعِ، وَفِي الآخِرَةِ مِنْ العَذَابِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: « اِفْتَرَقَتْ اليَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَـتْ النَصَـارَىٰ عَلَـىٰ ثِنْتَينِ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ مَنْ كَانَتْ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي »[(١)].

(٥) الَّتِي وَصَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ: « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِي أَمْرُ اللهِ »[(٢)].

وَهَـذَانِ الوَصْـفَانِ (النَاجِيَـةُ وَالمَنْصُـورَةُ) مِـنْ أَوْصَـافِ أَهْـلِ السُـنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٨٨٦)، والصغير (٧٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

وَهُـــوَ الإِيْمَـــانُ[1] بِاللهِ، وَمَـلائِكَتِـــهِ[2].....

هَلْ يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مُخَالِفٍ فِي هَذَا الاِعتِقَادِ يَكُونُ هَالِكًا؟

قَالَ شَيْخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: لَيْسَ كُلُّ مَنْ خَالَفَنِي شَيْئًا مِنْ هَذَا يَكُونُ هَالِكًا فَإِنَّ المُنَازِعَ قَدْ يَكُونُ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا يَغْفِرُ اللهُ خَطَايَاهُ، وَقَدْ لَا يَكُونُ بَلَغَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ العِلْمِ مَا تَقُومُ عَلَيهِ الحُجَّةُ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُ مِنْ الحَسَنَاتِ مَا يَمْحُو بِهِ سَيِّئَاتِهِ وَإِذَا كَانَتْ أَلْفَاظُ الوَعِيدُ المُتَنَاوِلَةُ لَا يَجِبُ أَنْ يَدْخُلَ فِيْهَا المُتَأَوِّلُ وَالقَانِتُ وَذُوْ الحَسَنَاتِ المَاضِيَةِ وَالمَغْفُورُ لَهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ فَهَذِهِ أَوْلَىٰ، بَلْ مُوجِبُ الكَلَامِ أَنَّ مَنْ اِعْتَقَدَ ذَلِكَ نَجَا فِي هَذَا الاِعتِقَادِ، وَمَنْ اِعتَقَدَ ضِدَّهُ فَقَدْ يَكُونُ نَاجِيًا، وَقَدْ لَا يَكُونُ نَاجِيًا كَمَا يُقَالُ: مَنْ صَمَتَ نَجَا[1].اهـ

(١) الإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ: التَصْدِيْقُ وَالإِقْرَارُ. وَشَرْعًا يُعَرِفُهُ أَهْلُ السُنَّةِ بِقَولِهِم: هُوَ قَوْلٌ بِاللِسَانِ وَاعتِقَادٌ بِالجَنَانِ وَعَمَلٌ بِالأَركَانِ، يَزِيْدُ بِالطَاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالعِصْيَانِ.

(٢) المَلَائِكَةُ جَمْعُ مَلَكٍ - بِفَتْحِ اللَامِ - مُشْتَقٌ مِنْ الأَلُوكَةِ وَهِيَ الرِسَالَةُ وَهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ خَلَقَهُمُ اللهُ مِنْ نُورٍ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ، مِنْهُمْ مَنْ وَكَّلَهُ اللهُ بِالمَطَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ وَكَّلَهُ اللهُ بِالوَحْيِ، قَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِهِمْ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١٧٩).

وَكُتُبِـــهِ[١] ورسله[٢].................................

(١) الكُتُبُ جَمْعُ كِتَابٍ، وَهُوَ مَأخُوذٌ مِنْ الكَتْبِ، بِمَعْنَىٰ الجَمْعِ وَالضَمِّ، وَالمُرَادُ بِهَا الكُتُبُ المُنَزَّلَةُ مِن السَّمَاءِ عَلَىٰ الرُسُلِ عَلَيْهِمْ الصَلَاةُ وَالسَلَامُ بِأَنَّهَا كَلَامُ اللهِ، وَأَنَّ مَا تَضَمَّنَهُ حَقٌ وَلِكُلِ رَسُولٍ كِتَابٌ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]. وَالمَعْلُومَةُ مِنْهَا صُحُفُ إِبْرَاهِيْمَ، وَالتَوْرَاةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَىٰ مُوسَىٰ فِي الأَلْوَاحِ، وَالإِنْجِيْلُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ عِيْسَىٰ، وَالزَبُورُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ دَاوْدَ، وَالقُرْآنُ الكَرِيْمُ الَّذِي هُوَ آخِرُهَا نُزُولاً، وَهُوَ المُصَدِقُ لَهَا، وَالمُهَيْمِنُ وَمَا عَدَاهَا يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ إِجْمَالاً.

(٢) جَمْعُ رَسُولٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَعْرِيْفُهُ، فَنُؤمِنُ بِمَنْ سَمَّاهُمُ اللهُ فِي كُتُابِهِ أَوْ نَبِيْنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي سُنَّتِهِ، وَأَمَّا مَنْ عَدَا هَؤلَاءِ مِنْ الرُسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ فَنُؤمِنُ بِهِمْ إِجْمَالاً عَلَىٰ مَعْنَىٰ الاِعتِقَادِ بِنُبُوَتِهِمْ وَرِسَالَتِهِمْ، دُوْنَ أَنْ نُكَلِفَ أَنْفُسَنَا البَحْثَ عَنْ عِدْتِهِمْ، وَأَسْمَائِهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا اِخْتَصَ اللهُ بِعِلْمِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وَيَجِبُ الإِيْمَانُ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا جَمِيْعَ مَا أُرْسِلُوا بِهِ عَلَىٰ مَا أَمَرَهُمْ اللهُ بِهِ، وَبَيَّنُوهُ بَيَانَاً لَا يَسَعُ أَحَداً مِمَّنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ جَهْلَهُ، ، وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُوْنَ مِنْ الكَذِبِ وَالخِيَانَةِ، وَالكِتْمَانِ وَالبَلَادَةِ.

وَالبَعْثُ[1] بَعْدَ المَوْتِ، وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ[2].
وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ[3].....

وَأَنَّ أَفْضَلَهُمْ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ، وَالمَشْهُورِ أَنَّهُمْ: مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَنُوحٌ، لِأَنَّهُمْ ذُكِرُوا مَعًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

(١) البَعْثُ فِي الأَصْلِ: الإِثَارَةُ وَالتَحْرِيكُ، وَالمَرَادُ بِهِ فِي لِسَانِ الشَرْعِ: إِخْرَاجُ المَوتَىٰ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاء يَوْمَ القِيَامَةِ لِفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَهُمْ.

(٢) وَهُوَ اِعْتِقَادُ أَنَّ اللهَ عَلِمَ مَقَادِيرَ الأَشْيَاءِ وَأَزْمَانِهَا قَبْلَ خَلْقِ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، ثُمَّ كَتَبَهَا فِي اللَوحِ المَحْفُوظِ قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ، ثُمَّ أَوْجَدَهَا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيْئَتِهِ عَلَىٰ وِفْقِ عِلْمِهِ السَابِقِ. كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

(٣) بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ المُصَنِفُ رَحِمَهُ اللهُ الأُصُولَ الَّتِي يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهَا مُجْمَلَةً شَرَعَ يَذْكُرُهَا عَلَىٰ سَبِيْلِ التَفْصِيلِ، وَبَدَأَ بِالأَصْلِ الأَوَّلِ وَهُوَ الإِيْمَانُ بِاللهِ تَعَالَىٰ فَذَكَرَ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيْهِ الإِيْمَانُ بِصِفَاتِهِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهَا رَسُوْلُهُ فِي سُنَّتِهِ وَذَلِكَ بِأَنْ نُثْبِتَهَا لَهُ كَمَا جَاءَتْ فِي الكِتَابِ وَالسُنَّةِ بِأَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيْهَا مِنْ غَيْرِ تَحْرِيْفٍ لِأَلفَاظِهَا وَلَا تَعْطِيْلٍ لِمَعَانِيهَا وَلَا تَشْبِيْهٍ لَهَا بِصِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي إِثْبَاتِهَا عَلَىٰ الكِتَابِ وَالسُنَّةِ فَقَطْ لَا

مِنْ غَيْرِ تَحْرِيْفٍ[1].....

نَتَجَاوَزُ القُرْآنَ وَالحَدِيْثَ لِأَنَّهَا تَوْقِفِيَّةٌ.

(١) التَحْرِيْفُ لُغَةً هُوَ التَغْيِيرُ وَالتَبْدِيْلُ وَالإِمَالَةُ. وَاصْطِلَاحًا: المَيْلُ بِالْنَصِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، إِمَّا بِالطَعْنِ فِيْهِ، أَوْ بِإِخْرَاجِهِ عَنْ حَقَائِقِهِ مَعَ الإِقْرَارِ بِلَفْظِهِ.

وَالتَحْرِيفُ قَدْ يَكُونُ فِي اللَفْظِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي المَعْنَىٰ، مِثَالُهُ فِي اللَفْظِ نَصْبُ لَفْظِ الجَلَالَةِ بَدَلاً عَنْ رَفْعِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. وَمِثَالُ التَحْرِيْفِ فِي المَعْنَىٰ تَفْسِيرُ الاِسْتِوَاءِ بِالاِسْتِيْلَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، وَتَفْسِيرُ اليَدِ بِالقُدْرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥].

وَمَنْهَجُ التَحْرِيْفِ بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ:

١) فِيْهِ جِنَايَةٌ عَلَىٰ النُصُوصِ حَيْثُ جَعَلُوهَا دَالَةً عَلَىٰ مَعَانٍ بَاطِلَةٍ لَا تَلِيْقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

٢) أَنَّ فِيهِ صَرْفًا لِلكَلَامِ عَنْ ظَاهِرِهِ المُتَبَادِرِ إِلَىٰ الذِهْنِ إِلَىٰ غَيْرِهِ بِلَا دَلِيْلٍ، وَالأَصْلُ هُوَ حَمْلُ الكَلَامِ عَلَىٰ الظَاهِرِ، كَمَا قَالَ ابنُ عَبدِالبَرِ رَحِمَهُ اللهُ: "أَهْلُ السُنَّةِ مُجْمِعُونَ عَلَىٰ الإِقْرَارِ بِالصِفَاتِ الوَارِدَةِ كُلِهَا فِي القُرْآنِ وَالسُنَّةِ، وَالإِيْمَانِ بِهَا، وَحَمْلِهَا عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ لَا عَلَىٰ المَجَازِ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يُكَيِّفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ" اهـ[1].

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر (٧/ ١٤٥).

وَلا تَعْطِيلٍ[١]......................................

وَقَالَ أَبُويَعْلَىٰ الحَنْبَلِيُ رَحِمَهُ اللهُ: "وَلَا يَجُوُز رَدُّ هَذِهِ الأَخْبَارِ، وَلَا التَشَاغِلُ بتَأْوِيْلِهَا، وَالوَاجِبُ حَمْلُهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا، وَأَنَّهَا صِفَاتُ اللهِ لَا تُشْبِهُ صِفَاتَ سَائِرِ المَوْصُوفِيْنَ بِهَا مِنْ الخَلْقِ، وَلَا يُعْتَقَدُ التَشْبِيْهُ فِيْهَا لَكِنْ عَلَىٰ مَا رُوِيَ عَنْ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَسَائِرِ الأَئِمَةِ". اهـ[١].

٣) أَنَّ صَرْفَ النُصَوصِ عَنْ ظَاهِرِهِا خِلَافُ مَنْهَجِ الصَحَابَةِ وَالتَابِعِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي كَلَامِ الأَئِمَّةِ.

٤) أَنَّهُ يَلْزَمُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: أَنَّ سَلَفَ الأُمَّةِ كَانُوا قَاصِرِيْنَ أَوْ مُقَصِّرِيْنَ فِي مَعْرِفَةِ أَوْ تَبْيينِ مَا يَجِبُ لله، أَوْ يَمْتَنِعُ، أَوْ يَجُوزُ.

وَيَلْزَمُ مِنْهُ جَوَازُ نَفْيِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، فَيُقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] لَمْ يَجِئْ رَبُكَ!! لِأَنَّ إِسْنَادَ المَجِيءِ إِلَىٰ اللهِ مَجَازٌ، وَمِنْ أَظْهَرِ عَلَامَاتِ المَجَازِ صِحَةُ نَفْيِهِ.

وَنَفْيُ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ وَرَسُولَهُ ﷺ مِنْ أَبْطَلِ البَاطِلِ.

(١) التَعْطِيْلُ مَأْخُوذٌ مِنْ العَطَلِ، الَّذِي هُوَ الخَلَلُ وَالفَرَاغُ وَالتَرْكُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ [الحج: ٤٥] أَيْ أَهْمَلَهَا أَهْلُهَا، وَتَرَكُوا ورُودَهَا.

وَالتَعْطِيْلُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

---

(١) الحموية (٤٨٨).

الأَوَّلُ: تَعْطِيلُ اللهِ عَنْ أَسْمَائِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَهُوَ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ:

١) تَعْطِيْلٌ كُلِّيٌ: كَمَا فَعَلَ نُفَاةُ الصِفَاتِ مِنْ الجَهمِيّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ الَّذِيْنَ سَلَبُوا عَنْ اللهِ جَمِيعَ صِفَاتِ الكَمَالِ.

٢) تَعْطِيْلٌ جُزْئِيٌ: كَمَا فَعَل الأَشَاعِرَةُ الَّذِيْنَ يُثْبِتُونَ سَبْعَ صِفَاتٍ فَقَط وَيُنْفُونَ الباقي.

الثَانِي: تَعْطِيْلُ اللهِ عَنْ مُعَامَلَتِهِ بِتَركِ عِبَادَتِهِ أَوْ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ.

الثَالِثُ: تَعْطِيْلُ المَخْلُوقِ عَنْ خَالِقِهِ، كَتَعطِيْلِ الفَلَاسِفَةِ الَّذِيْنَ زَعَمُوا قِدَمَ المَخْلُوقَاتِ وَأَنَّهَا تَتَصَرَّفُ بِطَبِيْعَتِهَا.

الفَرْقُ بَيْنَ التَحْرِيفِ وَالتَعْطِيْلِ:

التَحْرِيفُ هُوَ نَفْيٌ لِلْمَعْنَىٰ الصَحِيْحِ الَّذِي دَلَّ عَلَيهِ الكِتَابُ وَالسُنَّةُ وَاسْتِبْدَالِهِ بِمَعْنىٰ آخَرَ غَيْرَ صَحِيْحٍ. كَفِعْلِ المُؤَوِلَةِ المُعْتَزِلَةِ وَالأَشَاعِرَةِ.

وَالتَعْطِيْلُ هُوَ نَفْيٌ لِلْمَعْنَىٰ الصَحِيْحِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَالسُنَّةُ مِنْ غَيْرِ اِسْتِبْدَالٍ لَهُ بِمَعْنَىٰ آخَر كَفِعْلِ المُفَوِضَةِ.

وَعَلَىٰ ذَلِكَ فَكُلُّ مَنْ وَقَعَ فِي التَحْرِيْفِ فَقَدْ وَقَعَ فِي التَعْطِيلِ دُونَ العَكْسِ. لِذَلِكَ يَقُولُ العُلَمَاءُ:

[كُلُّ مُحَرِّفٍ مُعَطِّلٍ، وَلَيْسَ كُلُّ مُعَطِّلٍ مُحَرِّفٍ]

مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ[1].....

وَمِنْ الخَطَأِ القَولُ بِأَنَّ التَفْويضَ الَّذِي هُوَ تَعْطِيْلُ المَعَانِي هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ، كَمَا نَسَبَ لَهُمْ ذَلِكَ المُتَأَخِرُونَ مِنْ الأَشَاعِرَةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّ السَّلَفَ لَمْ يَكُونُوا يُفَوضُونَ فِي عِلْمِ المَعْنَىٰ، وَلَا كَانُوا يَقْرَؤونَ كَلَامًا لَا يُعرِفُونَ مَعْنَاهُ، بَلْ كَانُوا يَفهَمُونَ مَعَانِي النُصُوصِ مِنْ الكِتَابِ وَالسُنَّةِ، وَيُثْبِتُونَهَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يُفَوِضُونَ فِيْمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الكَيْفِيَّةِ، كَمَا قَالَ الإمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ حِيْنَ سُئِلَ عَنْ كَيْفِيَةِ اِسْتِوَائِهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ: "الاِسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالسُؤَالُ عَنْهُ بِدعَةٌ".

وَلِأَنَّ التَعْبِيْرَ بِمَا لَا مَعْنَىٰ لَهُ، أَوْ لَهُ مَعْنَىٰ لَا يُمْكِنُ المُتَكَلِمُ وَالمُسْتَمِعُ فَهمَهُ، وَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ إِلَّا فِي ثَلَاثِ حَالَاتٍ:

الأُولَىٰ: إِذَا كَانَتْ عِبَارَةُ المُتَكَلِمِ قَاصِرَةً عَنْ بَيَانِ المُرَادِ.

الثَانِيَةُ: إِذَا كَانَ المُتَكَلِمُ قَاصِرَ الفَصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ.

الثَالِثَةُ: إِذَا كَانَ المُتَكَلِمُ يَتَكَلَمُ بِشَيءٍ لَا يَعْلَمُهُ.

وَكُلُّ مَا سَبَقَ لَا يَجُوزُ نِسْبَتُهُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ لِرَسُولِهِ ﷺ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧].

(١) التَكْيِيفُ مُشْتَقٌ مِنْ الكَيْفِ وَهِيَ الهَيْئَةُ وَالمَاهِيَةُ وَالشَّكْلُ، وَالمُرَادُ بِهِ

وَلا تَمْثِيلٍ[(١)]..

كَيْفِيَّةُ الصِفَاتِ وَشَكْلُهَا أَوْ هَيْئَتُهَا[(١)]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وَبِاتِفَاقِ العُقَلَاءِ أَنَّ كَيْفِيَةَ الشَيءِ لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِأَحَدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: إِمَّا بِمَشَاهَدَتِهِ، أَوْ بِمُشَاهَدَةِ نَظِيْرِهِ، أَوْ خَبَرِ الصَادِقِ عَنْهُ.

وكُلُّ هَذِهِ الطُّرُق مُنْتَفِيَةٌ فِي كيفِيَّةِ ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ وصِفَاتِهِ، فَتَكُونُ كَيفِيَّةُ ذاتِ اللهِ وصِفَاتِهِ مَجْهُولَةً لنا.

وَلَيْسَ المُرَادُ بِنَفْيِ التَكْيِيفِ نَفْيُ الكَيْفِ مُطْلَقًا، لِأَنَّ كُلَّ شَيءٍ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ كَيْفِيَةٍ مَا، وَلَكِنْ المُرَادُ نَفْيُ كَيْفٍ يَعْقِلُهُ البَشَرُ، فَلَا أَحَدَ مِنْ البَشَرِ يَعْقِلُ كَيْفِيَةَ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) المِثْلُ فِي اللُغَةِ: النِدُّ وَالنَظِيْرُ. وَالتَمْثِيْلُ: هُوَ اِعْتِقَادُ أَنَّ صِفَاتِ الخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا مِثْلَ صِفَاتِ المَخْلُوقِيْنَ[(٢)].

---

(١) قال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "التكييف هو جعل الشيء علىٰ حقيقة معينة من غير أن يقيّدها بمثل". اهـ انظر القواعد المثلىٰ.

مثل قول الهشامية عن الله: طوله كعرضه!! أو طوله سبعة أشبار بشبر نفسه!!

(٢) وممن وقع في التمثيل الكرّامية أتباع محمد بن كرَّام السجستاني.

فائدة: يوجد أمران:

– مماثلة: وهي مساواة الشيء لغيره من كلّ وجه.

– مشابهة: وهي مساواة الشيء لغيره في أكثر الوجوه.

بَـــلْ يُؤمِنُـــونَ بِـــأَنّ اللهَ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾(١) [الشورى: ١١]..

وَالدَلِيْلُ عَلَىٰ مَنْعِ التَمْثِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤].

وَلِأَنَّهُ يَسْتَحِيْلُ أَنْ يَكُونَ الخَالِقُ مُمَاثِلاً لِلْمَخْلُوقِ الحَقِيْرِ، وَالعُلَمَاءُ يَقُولُونَ: [**كُلُّ مُعَطِّلٍ مُمَثِّلٌ، وَكُلُّ مُمَثِّلٍ مُعَطِلٌ**]، لِأَنَّ المُمَثِّلَ يُعَطِّلُ النُّصُوصَ الَّتِي تُثْبِتُ الصِفَةَ عَلَىٰ وَجْهٍ يَلِيْقُ بِاللهِ، وَكَذَلِكَ عَطَّلَ النُصُوصَ النَافِيَةَ لِمُمَاثَلَةِ اللهِ لِخَلْقِهِ، وَعَطَّلَ الكَمَالَ الوَاجِبَ للهِ، لِأَنَّهُ شَبَّهَهُ بِالمَخْلُوقِ النَاقِصِ.

(١) هَذِهِ الآيَةُ دُسْتُورُ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فِي بَابِ الصِفَاتِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَمَعَ فِيْهَا بَيْنَ النَفْيِ وَالإِثْبَاتِ، فَنَفَىٰ عَنْ نَفْسِهِ المِثْلَ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ سَمْعًا وَبَصَرًا، فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّ المَذْهَبَ الحَقَّ لَيْسَ هُوَ نَفْيُ الصِفَاتِ مُطْلَقًا، كَمَا هُوَ شَأْنُ المُعَطِّلَةِ، وَلَا إِثْبَاتُهَا مَعَ التَمْثِيْلِ كَمَا هُوَ شَأْنُ المُمَثِلَةِ بَلْ إِثْبَاتُهَا بِلَا تَمْثِيلٍ.

وَصِفَاتُ اللهِ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتِهَا وَنَفْيِهَا، تَنْقَسِمُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:

١ - صِفَاتٌ ثُبُوتِيَّةٌ:

وَهِيَ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ، أَوْ مَا أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ، كَالِاسْتِوَاءِ وَالنُزُولِ وَالوَجْهِ

فَلا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلا يُحرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ(١)، وَلا يُلحِدُونَ(٢) فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ.....

وَاليَدَيْنِ .. وَكُلِّهَا صِفَاتُ مَدْحٍ وَثَنَاءٍ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٢- صِفَاتٌ سَلْبِيَّةٌ:

وَهِيَ مَا نَفَاهُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ نَفَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ، وَكُلُّهَا صِفَاتُ نَقْصٍ كَالمَوتِ وَالنَومِ وَالسِّنَةِ وَالظُّلْمِ .. وَغَالِبًا تَكُونُ مَسْبُوقَةً بِلَا وَما وَلَيْسَ، وَهَذِهِ تُنْفَىٰ وَيَثْبُتُ ضِدُهَا مِنْ الكَمَالِ.

(١) المَوَاضِعُ جَمْعُ مَوْضِعٍ، وَالمُرَادُ بِهَا المَعَانِي الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيْلُ الكَلَامِ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا هِيَ المُتَبَادِرَةُ مِنْهُ عِنْدَ الإِطْلَاقِ.

(٢) الإِلحَادُ لُغَةً: المَيْلُ وَالعُدُولُ عَنْ الشَيءِ وَمِنْهُ اللَحْدُ فِي القَبْرِ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ وَانْحِرَافِهِ عَنْ الوَسَطِ إِلَىٰ جِهَةِ القِبْلَةِ.

وَالإِلحَادُ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ هُوَ العُدُوْلُ بِهَا عَنْ حَقَائِقِهَا وَمَعَانِيْهَا الصَحِيْحَةِ إِلَىٰ مَعَانٍ بَاطِلَةٍ.

وَالإِلحَادُ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ عَلَىٰ أَنْوَاعٍ:

١- أَنْ تُسَمَّىٰ الأَصْنَامُ بِهَا، كَتَسْمِيَةِ اللَاتِ مِنْ الإِلَهِ، وَالعُزَّىٰ مِنْ العَزِيْزِ، وَمَنَاةَ مِنْ المَنَّانِ.

٢- تَسْمِيَتُهُ سُبْحَانَهُ بِمَا لَا يَلِيْقُ بِهِ جَلَّا وَعَلَا، كَتَسْمِيَةِ النَصَارَىٰ لَهُ أَبًا، وَتَسْمِيَةِ الفَلَاسِفَةِ لَهُ مُوْجِبًا، وَعِلَّةً فَاعِلَةً.

وَلا يُكَيِّفُونَ وَلا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهُ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ[1].....

٣- وَصْفُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِمَا يُنَزِّهُ عَنْهُ مِنْ النَقَائِصِ كَقَولِ اليَهُودِ الَّذِيْنَ قَالُوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وَقَوْلِهِم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ اِسْتَرَاحَ يَوْمَ السَبْتِ - تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيْراً-.

٤- جَحْدُ مَعَانِيْهَا وَحَقَائِقَهَا كَقَولِ الجَهْمِيَّةِ إِنَّهَا أَلْفَاظٌ مُجَرَّدَةٌ لَا تَتَضَمَّنُ صِفَاتاً وَلَا مَعَانِياً فَالسَمِيْعُ لَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِفَةِ السَمْعِ، وَالبَصِيْرُ لَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِفَةِ البَصَرِ، وَالحَيُ لَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِفَةِ الحَيَاةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

٥- تَشْبِيْهُ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ كَقَولِ المُمَثِلَةِ يَدٌ كَيَدِي إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ - تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُواً كَبِيْراً .

(١) وَخُلَاصَةُ مَا تَقَدَمَ أَنَّ السَّلَفَ رضي الله عنهم يُؤمِنُونَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، وَبِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ إِيمَاناً سَالِمَاً مِنْ التَحْرِيفِ وَالتَعْطِيْلِ، وَمِنْ التكْييفِ وَالتَمْثِيلِ، وَيَجْعَلُونَ الكَلَامَ فِي ذَاتِ البَارِي وَصِفَاتِهِ بَاباً وَاحِداً، فَإِنَّ **[الكَلَامَ فِي الصِفَاتِ فَرْعٌ عَنْ الكَلَامِ فِي الذَاتِ]** يُحْتَذىٰ فِيْهِ حَذْوَهُ، فَإِذَا كَانَ إِثْبَاتُ الذَاتِ إِثْبَاتُ وُجُودٍ لَا إِثْبَاتَ تَكْيِيفٍ، فَكَذَلِكَ إِثْبَاتُ الصِفَاتِ.

وَقَدْ يُعَبِّرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِقَولِهِمْ: تُمَرُّ كَمَا جَاءَتْ بِلَا تَأْوِيْلٍ، وَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ كَلَامَهُمْ، ظَنَّ أَنَّ مَقْصُودَهُمْ بِهَذِهِ العِبَارَةِ هُوَ قِرَاءَةُ اللَفْظِ دُوْنَ التَعَرُضِ

لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: لا سَمِيّ لَهُ[1].....

لِلْمَعْنَىٰ !! وَهَذَا بَاطِلٌ لِأَنَّ الوَاجِبَ فِي نُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِجْرَاؤهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا دُونَ تَحْرِيفٍ لَاسِيَّمَا نُصُوصِ الصِفَاتِ حَيْثُ لَا مَجَالَ لِلْرَأيِ فِيْهَا.

وَالدَلِيْلُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ – ١٩٥]، وَقَالَ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، فَهَذِهِ الأَدِلَّةُ تَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوبِ فَهْمِ كَلَامِ اللهِ عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيْهِ ظَاهِرُ النُصُوصِ بِاللِسَانِ العَرَبِي إِلَّا إِنْ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ شَرْعِيٌ لَا عَقْلِيٌ. لِأَنَّ المُتَكَلِمَ بِهَذِهِ النُصُوصِ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ مِنْ غَيْرِهِ.

لِذَلِكَ قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: "لَا يُوصَفُ اللهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، لَا يُتَجَاوَزُ القُرْآنُ وَالحَدِيْثُ".

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ – شَيْخُ البُخَارِي –: "مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيْمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيْهٌ وَلَا تَمْثِيْلٌ".

(١) لَا نَظِيْرَ لَهُ يَسْتَحِقُّ مِثْلَ اسْمِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥].

فَإِنَّ الاِسْتِفْهَامَ هُنَا إِنْكَارِيٌ، مَعْنَاهُ النَفْيِ. وَالنَفْيُ إِذَا كَانَ بِصِيْغَةِ الاِسْتِفْهَامِ فَإِنَّهُ يَكُونُ لِلْتَحَدِي.

وَلَيْسَ المُرَادُ مِنْ نَفْيِ السَمِيِّ أَنَّ غَيْرَهُ لَا يُسَمَّىٰ بِمِثْلِ أَسْمَائِهِ، فَإِنّ هُنَاكَ

وَلا كُفءَ لَهُ[1]، وَلا نِدّ لَهُ[2]. وَلا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ[3] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى..

أَسْمَاءٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، مِثْلَ أَنَّ اللهَ سَمَّىٰ نَفْسَهُ الحَيَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَسَمَّىٰ المَخْلُوقَ حَيًا فِي قَوْلِهِ: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ [الأنعام: ٩٥] وَلَيْسَتْ حَيَاةُ الخَالِقِ كَحَيَاةِ المَخْلُوقِ، وَسَمَّىٰ اللهُ نَفْسَهُ سَمِيْعًا بَصِيْراً فِي قَولِهِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي عِبَادِهِ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢].

(١) الكُفءُ هُوَ المُكَافِئُ المُسَاوِيُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ نَفْيِهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤].

(٢) النِدُّ هُوَ الشَبِيْهُ وَالنَظِيْرُ، وَقَدْ نَفَىٰ اللهُ ذَلِكَ بِقَولِهِ: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

(٣) لَا يَجُوزُ اِسْتِعْمَالُ شَيءٍ مِنْ الأَقْيِسَةِ الَّتِي تَقْتَضِي المُمَاثَلَةَ وَالمُسَاوَاةَ بَيْنَ المَقِيْسِ وَالمُقَاسِ عَلَيْهِ. لِأَنَّهَا أَقْيِسَةٌ فَاسِدَةٌ لَا يَجُوزُ اِسْتِعْمَالُهَا فِي حَقِ اللهِ تَعَالَىٰ. وَهِيَ نَوْعَانِ:

١ - قِيَاسُ التَمْثِيْلِ:

وَهُوَ إِلْحَاقُ الشَيءِ بِمِثْلِهِ، وَيُعَرِفُهُ الأُصُولِيونَ بِقَولِهِمْ: إِلْحَاقُ فَرْعٍ بِأَصْلٍ فِي حُكْمٍ جَامِعٍ.

وَلَا يَجُوزُ اِسْتِعْمَالُ هَذَا النَوْعِ مِنْ القِيَاسِ فِي حَقِ اللهِ تَعَالَىٰ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌ عَلَىٰ وُجُودِ المُمَاثَلَةِ بَيْنَ الفَرْعِ وَالأَصْلِ.

فَلَا يَجُوزُ جَعْلُ مَا ثَبَتَ للهِ مِنْ الصِفَاتِ مِثْلَ مَا ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ، أَوْ العَكْسَ.

٢- قِيَاسُ الشُمُولِ:

وَهُوَ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْمَنَاطِقَةِ بِأَنَّهُ الِاسْتِدْلَالُ بِكُلِّيٍّ عَلَىٰ جُزْئِيٍّ بِوَاسِطَةِ انْدِرَاجِ ذَلِكَ الْجُزْئِيِّ مَعَ غَيْرِهِ تَحْتَ هَذَا الْكُلِّيِّ[1].

فَهَذَا الْقِيَاسُ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ اسْتِوَاءِ الْأَفْرَادِ الْمُنْدَرِجَةِ تَحْتَ هَذَا الْكُلِّيِّ، وَلِذَلِكَ يُحْكَمُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنْهَا بِمَا حُكِمَ بِهِ عَلَيْهِ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا مُسَاوَاةَ بَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيْنَ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ .

وَإِذَا أَرَدْنَا مَعْرِفَةَ سَبَبِ إِنْكَارِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، - وَفِي مُقَدِمَتِهِمْ شَيْخُ الإِسلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - اسْتِعْمَالَ هَذِهِ الأَقْيِسَةِ فِي المَطَالِبِ الإِلَهِيَّةِ تَرْجِعُ إِلَىٰ تَعْرِيْفِ القِيَاسِ عَامَّةً[2] وَإِلَىٰ تَعْرِيْفِ التَمْثِيْلِ وَالشُمُولِ خَاصَّةً، لِنَسْتَعْرِضَ

---

(١) وقال بعضهم في تعريفه: إنّه إثبات حكم كلّي لكلي آخر، لما بينهما من المشابهة. كقولهم: كلّ إنسان حيوان، وكلّ حيوان جسم، فكلّ إنسان جسم.

(٢) القياس في اللغة التقدير. يُقال: قست الثوب بالذراع إذا قدّرته.
وأما في الاصطلاح: هو حمل فرع علىٰ أصل في حكم بينهما.

فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِه وَبِغَيرِه، وَأَصْدَقُ قِيْلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيْثاً مِنْ خَلْقه، ثُمّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ [مُصَدّقُونَ][1]. بِخِلافِ الّذِيْنَ يَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا يَعْلَمُونَ.....

أَرْكَانَ القِيَاسِ فِي جَمِيْعِ تِلْكَ الأَقْيِسَةِ[1]، فتَكُونُ النَتِيْجَةُ أَنَّ الأَقْيِسَةَ كُلُّهَا تَشْتَمِلُ عَلَىٰ فَرْعٍ يُلْحَقُ بِالأَصْلِ، وَعَلَىٰ المُشَابَهَةِ بَيْنَهُمَا، وَهِيَ العِلَّةُ الَّتِي لَا يَتِمُّ القيَاسُ المَنْطِقِيُّ إِلَّا بِهَا.

فَكُلُّ هَذِهِ الإِجْرَاءَاتِ غَيْرُ جَائِزَةٍ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ يُنَزَّهُ أَنْ يَكُونَ أَصْلاً فِي حُكْمٍ حَتَّىٰ يُلْحَقُ بِهِ غَيْرُهُ، كَمَا يُنَزَّهُ أَنْ يَكُونَ فَرْعاً لِغَيْرِهِ يَشْتَرِكُ مَعَهُ فِي العِلَّةِ إِذْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِهِ تَعَالَىٰ قِيَاسُ الأَوْلَىٰ، وَمَضْمُونُهُ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ وَأَمْكَنَ أَنْ يَتَصِفَ بِهِ الخَالِقُ فَالخَالِقُ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ المَخْلُوقِ، وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ المَخْلُوقُ، فَالخَالِقُ أَحَقُّ بِالتَنَزُّهِ عَنْهُ.

(١) هَذَا تَعْلِيْلٌ لِمَا سَبَقَ مِنْ وُجُوبِ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ أَوْ أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ ﷺ، وَنَفيِ مَا نَفَاهُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ نَفَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ خَلْقِهِ بِهِ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا تَقْصُرُ دِلَالَتَهُ عَلَىٰ المَعَانِي المُرَادَةِ مِنْهُ لِأَحَدِ ثَلَاثَةِ أَسْبَابٍ:

١ - جَهْلُ المُتَكَلِمِ، وَعَدَمُ عِلْمِهِ بِمَا يَتَكَلَمُ بِهِ.

(١) وله أربعة أركان: كما يظهر في التعريف: (أصل، وفرع، وعلّة، وحكم).

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ سُبْحَٰنَ(١) رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢) [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢] فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ المُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى المُرسَلِينَ، لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنْ النَقْصِ وَالعَيْبِ.....

٢- عَدَمُ فَصَاحَتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ البَيَانِ.

٣- كَذِبُهُ وَغَشُّهُ وَتَدْلِيسُهُ.

وَنُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُنَّةِ بَرِيْئَةٌ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ الثَلَاثَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَكَلَامُ اللهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ ﷺ فِي غَايَةِ الوُضُوحِ وَالبَيَانِ، كَمَا أَنَّهُ المَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي الصِدْقِ وَالمُطَابَقَةِ لِلْوَاقِعِ، لِصُدُورِهِ عَنْ كَمَالِ العِلْمِ، وَصَادِرٌ عَنْ كَمَالِ النُصْحِ وَالشَّفَقَةِ، وَالحِرْصِ عَلَىٰ هِدَايَةِ الخَلْقِ وَإِرْشَادِهِمْ.

وَالرَسُولُ ﷺ أَعْلَمُ الخَلْقِ بِمَا يُرِيْدُ إِخْبَارَهُمْ بِهِ، وَهُوَ أَقْدَرُهُمْ عَلَىٰ بَيَانِ ذَلِكَ وَالإِفْصَاحِ عَنْهُ، وَهُوَ أَحْرَصُهُمْ عَلَىٰ هِدَايَةِ الخَلْقِ، وَأَشَدُهُمْ إِرَادَةً لِذَلِكَ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِي كَلَامِهِ شَيءٌ مِنْ النَقْصِ وَالقُصُورِ.

بِخِلَافِ كَلَامِ غَيْرِهِ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ نَقْصٍ فِي أَحَدِ هَذِهِ الأُمُورِ أَوْ جَمِيْعِهَا، فَلَا يَصِحُ أَنْ يُعْدَلَ بِكَلَامِهِ كَلَامَ غَيْرِهِ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُتْرَكَ كَلَامُهُ ﷺ لِكَلَامِ غَيْرِهِ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ غَايَةُ الضَلَالِ، وَمُنْتَهَىٰ الخُذْلَانِ.

(١) اسْمُ مَصْدَرٍ مِنْ التَسْبِيْحِ وَهُوَ التَنْزِيْهُ مِنْ العُيُوبِ.

(٢) فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الآيَةِ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَمَّا يَنْسِبَهُ إِلَيْهِ المُشْرِكُونَ مِنْ اِتِخَاذِ

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَفْيِ(١).....

الصَاحِبَةِ وَالوَلَدِ، وَعَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَىٰ رُسُلِهِ عَلَيْهِمْ الصَلَاةُ وَالسَلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ، لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّهُ كَمَا يَجِبُ تَنْزِيْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِبْعَادِهِ عَنْ كُلِّ شَائِبَةِ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، فَيَجِبُ اِعتِقَادُ سَلَامَةِ الرُسُلِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَذَلِكَ، فَلَا يَكْذِبُونَ عَلَىٰ اللهِ، وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ، وَلَا يَغُشُونَ أُمَّتَهُمْ، وَلَا يَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ إِلَّا الحَقَ.

(١) وَالأَصْلُ فِي النَفْيِ أَنْ يَكُونَ مُجْمَلاً، لِأَنَّ النَفْيَ المُجْمَلَ فِيْهِ بَيَانُ عُمُومِ كَمَالِ اللهِ بِسَلْبِ جَمِيْعِ النَقَائِصِ عَنْهُ،

وَهَذَا هُوَ الغَالِبُ فِي صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، الصافات: ١٥٩].

وَقَدْ يُوجَدُ النَفْيُ المُفَصَّلُ لَكِنَّهُ قَلِيْلٌ وَهُوَ خِلَافُ الأَصْلِ المُطَرِدِ، وَالتَفْصِيْلُ لَابُدَّ لَهُ مِنْ سَبَبٌ.

وَمِنْ أَسْبَابِ النَفْيِ المُفَصَلِ:

١- نَفْيِ مَا ادْعَاهُ الكَاذِبُونَ فِي حَقِّ اللهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩١ – ٩٢]، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

٢- دَفْعِ تَوَهُمِ نَقْصٍ مِنْ كَمَالِهِ فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الأَمْرِ المُعَيَّنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ

وَالإِثْبَاتِ(١) ....

تَعَــالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

٣- تَهْدِيْـدِ الكَـافِرِيْنَ، مِثْـلَ قَوْلِـهِ تَعَـالَىٰ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وَالصِفَاتُ المَنْفِيَـةُ عَـنْ اللهِ يَجِـبُ نَفْيُهَـا مَـعَ إِثْبَـاتِ ضِـدْهَا عَلَـىٰ الوَجْـهِ الأَكْمَلِ، لِأَنَّ المُرَادَ مِنْ النَفْيِ إِثْبَاتُ كَمَالِ الضِدِّ لِا لِمُجَرَّدِ النَفْيِ، وَلِأَنَّ النَفْيَ لَيْسَ بِكَمَالٍ وَلَا مَدْحٍ إِلَّا إِنْ تَضَمَّنَ إِثْبَاتَ كَمَالِ الضِدِّ، لِعِدَّةِ أُمُورٍ:

١- لِأَنَّ النَفْيَ عَدَمٌ، وَالعَدَمُ لَيْسَ بِشَيءٍ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ كَمَالاً.

٢- لِأَنَّ النَفْيَ قَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ قَابِلِيْةِ المَحِلِ لَهُ، فَلَا يَكُونُ كَمَالاً، كَمَا لَوْ قُلْتَ: الجِدَارُ لَا يَظْلِمُ!! فَهَذَا لَا يُعَدُّ مَدْحـاً لِأَنَّ الجِدَارَ لَا يَقْبَلُ الظُلْمَ أَصْلاً.

٣- لِأَنَّ النَفْيَ قَدْ يَكُونُ لِلْعَجْزِ عَنْ القِيَامِ بِهِ فَيَكُونَ نَقْصـاً.

(١) قَدْ يَكُونُ مُفَصَّلاً وَهُوَ الأَكْثَرُ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمِنْهُ كُلُّ اسْـمٍ أَوْ صِفَةٍ وَرَدَتْ فِي الكِتَابِ وَالسُنَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ مُجْمَلاً مِثْلُ: إِثْبَاتِ الكَمَـالِ المُطْلَقِ، وَالحَمْدِ المُطْلَقِ، وَالمَجْدِ المُطْلَقِ وَنَحوِ ذَلِكَ، كَمَا يُشِيْرُ إِلَيْـهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

فَلا عُدُولَ[١] لأَهْلِ السُنّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمّا جَاءَ بِهِ المُرسَلُونَ، فَإِنّهُ الصِرَاطُ[٢] المُسْتَقِيْمُ[٣]، صِرَاطُ الّذِيْنَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النّبِيِّينَ وَالصِدّيْقِينَ[٤] وَالشُهَدَاءِ[٥].....

(١) العُدُوْلُ هُوَ المَيْلُ وَالإِنْحِرَافُ.

(٢) هُوَ الطَرِيْقُ الوَاضِحُ البَيّنُ.

(٣) الَّذِي لَا اِعْوِجَاجَ فِيْهِ وَلَا اِنْحِرَافَ.

وَاخْتَلَفُوْا فِي تَفْسِيْرِ الصِرَاطِ المُسْتَقِيْمِ، قِيْلَ: هُوَ الإِسْلَامُ، وَقِيْلَ: هُوَ القُرْآنُ، وَقِيْلَ: هِيَ السُنَّةُ وَالجَمَاعَةُ، وَأَفْضَلُ مَا قِيْلَ:

هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عِلْمًا وَعَمَلاً، وَمَعْرِفَةُ الحَقِ وَتَقْدِيْمُهُ وَإِيْثَارُهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ.

وَالصِرَاطُ المُسْتَقِيْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِداً، مَنْ زَاغَ عَنْهُ أَوْ اِنْحَرَفَ وَقَعَ فِي طَرِيْقٍ مِنْ طُرُقِ الضَلَالِ وَالجَوْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وَهُوَ طَرِيْقُ الأُمَّةِ الوَسَطِ، الوَاقِعُ بَيْنَ ضَلَالَتَي الإِفْرَاطِ وَالتَفْرِيْطِ، وَلِهَذَا أَمَرَنَا اللهُ أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِيَنَا هَذَا الصِرَاطَ المُسْتَقِيْمَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْ الصَلَاةِ.

(٤) هُمْ الَّذِيْنَ صَدَّقُوا أَقْوَالَهُمْ بِأَفْعَالِهِم، وَالصِدِّيْقُ هُوَ المُبَالِغُ فِي الصِدْقِ، أَوْ المُبَالِغِ فِي التَصْدِيْقِ.

(٥) جَمْعُ شَهِيْدٍ، وَهُوَ المَقْتُولُ فِي أَرْضِ المَعْرَكَةِ فِي سَبِيْلِ اللهِ فِي حَرْبِ الكُفَّارِ،

وَالصَالِحِيْنَ[1]. وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُوْرَةِ الإِخْلاصِ[2] الّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ[3]، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (٤) ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٥) ۝٢.....

سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ شَهِدُوا لَهُ بِالجَنَّةِ، وَالشَهِيْدُ عَلَىٰ أَقْسَامٍ:

١- شَهِيْدٌ فِي الدُنْيَا وَالآخِرَةِ، وَهُوَ مَنْ تَقَدَّمَ تَعْرِيْفُهُ.

٢- شَهِيْدٌ فِي الآخِرَةِ دُوْنَ الدُنْيَا، وَهُوَ الغَرِيْقُ وَالحَرِيْقُ وَالمَطْعُونُ وَالمَبْطُونُ وَمَنْ قُتِلَ دُوْنَ مَالِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ عِرْضِهِ.

٣- شَهِيْدٌ فِي الدُنْيَا دُوْنَ الآخِرَةِ: وَهُوَ مَنْ غَلَّ مِنْ الغَنِيْمَةِ أَوْ قُتِلَ مُدْبِراً.

(١) جَمْعُ صَالِحٍ، وَهُوَ القَائِمُ بِحُقُوقِ اللهِ، وَحُقُوقِ عِبَادِهِ.

(٢) سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا أُخْلِصَتْ فِي صِفَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(٣) كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدِدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَالَّذِيْ نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ ».

قَالَ القَسْطِلّانِي رَحِمَهُ اللهُ: "وَذَلِكَ لِأَنَّ القُرْآنَ عَلَىٰ ثَلاثَةِ أَنْحَاءٍ: قَصَصٌ، وَأَحْكَامٌ، وَصِفَاتُ اللهِ."

وَ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مُتَضَمِنَةٌ لِلْتَوحِيْدِ وَالصِفَاتِ فَهِيَ ثُلُثُهُ.

(٤) وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ. فَلَا شَرِيْكَ لَهُ، وَلَا مَثِيْلَ لَهُ، وَلَا نَظِيْرَ لَهُ.

(٥) هُوَ السَيِّدُ الَّذِي كَمُلَ فِي سُؤدَدِهِ وَشَرَفِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَالَّذِي تَصْمُدُ إِلَيْهِ

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (١) ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ (٢)﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ(٣)، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ(٤).....

الخَلَائِقُ وَتَقْصِدُهُ فِي جَمِيْعِ حَاجَاتِهَا وَمُهِمَاتِهَا. فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْيِ المُشَارَكَةِ وَالمُمَاثَلَةِ.

فَالآيَةُ الأُوْلَىٰ فِيْهَا إِثْبَاتُ الأُلُوهِيَةِ وَالأَحَدِيَّةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالآيَةُ الثَانِيَةُ فِيْهَا إِثْبَاتُ الصَمَدِيَّةِ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ المُسْتَحِقُ لِصِفَاتِ الكَمَالِ التَامِ المُسْتَلْزِمِ لِنَفْيِ النَقَائِصِ عَنْهُ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) فِيْهِ رَدٌّ عَلَىٰ النَصَارَىٰ الَّذِيْنَ يُثْبِتُونَ لَهُ الوَلَدَ.

(٢) فِيْهِ نَفْيُ المُكَافِئِ وَالمُمَاثِلِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَالسُوْرَةُ جَمَعَتْ بَيْنَ النَفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

(٣) لِمَا جَاءَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ: « أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟ » قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَرَدَدَهَا مِراراً، ثُمَّ قَالَ آيَةُ الكُرْسِي. فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَىٰ كَتِفِهِ، وَقَالَ: « لِيَهْنَكَ هَذَا العِلْمَ أَبَا المُنْذِرِ ».

وَهَذَا فِيْهِ دَلِيْلٌ عَلَىٰ أَنَّ القُرْآنَ يَتَفَاضَلُ بِاعْتِبَارِ مَدْلُولَاتِهِ وَمَوْضُوعَاتِهِ، وَكَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ التَأْثِيْرِ وَالقُوْةِ فِي الأُسْلُوبِ لَا بِاعْتِبَارِ المُتَكَلِمِ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ.

(٤) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ الحَيَاةِ، وَهِيَ حَيَاةٌ أَزَلِيَةٌ أَبَدِيَّةٌ، كَامِلَةٌ. وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِجَمِيْعِ صِفَاتِ الكَمَالِ الذَاتِيَةِ العِلْمِ، وَالقُدْرَةِ،

ٱلْقَيُّومُ(١) **لَا تَأْخُذُهُۥ**(٢) **سِنَةٌ**(٣) **وَلَا نَوْمٌ**(٤) **لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ**(٥) **إِلَّا بِمَا شَآءَ**(٦) **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ**(٧) **وَلَا يَـُٔودُهُۥ**(٨) **حِفْظُهُمَا** ....

وَالسَمْعِ، وَالبَصَرِ، وَغَيْرِهَا.

(١) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وَمَعْنَاهُ: الَّذِي قَامَ بِنَفْسِهِ وَالقَائِمُ بِغَيْرِهِ. وَهُوَ دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ القَيُومِيَةِ.

وَهَذَا الاسْمُ مُتَضَمِنٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الكَمَالِ الفِعْلِيَّةِ، كَمَا أَنَّ اسْمَهُ الحَيُ مُتَضَمِنٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الكَمَالِ الذَاتِيَةِ، وَلِهَذَا قَرَنَ اللهُ بَيْنَهُمَا.

(٢) لَا تَغْلُبُهُ.

(٣) نُعَاسٌ.

(٤) نَزَّهَ اللهُ نَفْسَهُ عَنْ السِنَةِ وَالنَوْمِ لِأَنَّ ذَلِكَ يُنَافِي قَيُومِيَتِهِ جَلَّ وَعَلَا.

(٥) أَيْ أَنَّ الخَلْقَ لَا يُحِيطُونَ وَلَا يُحْصُونَ عِلْمَ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ.

(٦) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُعَلِمَهُمْ إِيَاهُ.

(٧) ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَظِيمَ كُرْسِيِهِ لِيُبَيِّنَ عَظِيمَ مُلْكِهِ، وَوَاسِعَ سُلْطَانِهِ وَالصَحِيْحُ فِي الكُرْسِي أَنَّهُ غَيْرُ العَرْشِ، وَأَنَّهُ مَوْضِعُ القَدَمَيْنِ كَمَا ثَبَتَ عَنْ ابْنِ عَبَاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَنَّهُ بِالنِسْبَةِ لِلْعَرْشِ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ.

(٨) لَا يُثْقِلُهُ وَلَا يُتْعِبُهُ حِفْظُهُمَا.

وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ(١) ٱلْعَظِيمُ (٢) ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ (٣)

(١) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ العُلُوِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَالعَلِيُ هُوَ الَّذِي لَهُ العُلُوُ المُطْلَقُ مِنْ جَمِيْعِ الْوُجُوهِ:

١- عُلُوُ الذَاتِ، وَكَوْنُهُ فَوْقَ كُلِّ المَخْلُوقَاتِ مُسْتَوِياً عَلَىٰ عَرْشِهِ.

٢- عُلُوُ القَدْرِ: وَهُوَ أَنَّ اللهَ لَهُ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ وَجَمَالٍ، وَلَهُ مِنْ تِلْكَ الصِفَةِ أَعْلَاهَا وَأَكْمَلَهَا.

٣- عُلُوُ القَهْرِ: وَهُوَ أَنَّ اللهَ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الحَكِيْمُ الخَبِيْرُ.

(٢) اسْمٌ دَلَّ عَلَىٰ صِفَةِ العَظَمَةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ، مَعْنَاهَا الَّذِي لَا شَيءَ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَلَا أَجَلَّ، وَلَا أَكْبَرَ وَلَهُ سُبْحَانَهُ التَعْظِيْمُ الكَامِلُ فِي قُلُوبِ أَنْبِيَائِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَأَصْفِيَائِهِ.

(٣) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ دَلَّ عَلَىٰ صِفَة الأَوَّلِيَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ، مَعْنَاهَا الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيءٌ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ.

وَقَدْ أَطْلَقَ بَعْضُ المُتَكَلِمِينَ عَلَىٰ اللهِ اسْمَ القَدِيْمِ ، وَلَيْسَ مِنْ أَسْمَائِهِ جَلَّ وَعَلَا لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي كَتَابِ اللهِ أَوْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلِأَنَّهُ مُجْمَلٌ يَحْتَمِلُ مَعْنًا حَقًا وَبَاطِلاً، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقِدَمَ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ:

- قِدَمٌ حَقِيْقِيٌ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْهُ عَدَمٌ.
- قِدَمٌ نِسْبِيٌ، وَهُوَ قِدَمُ بَعْضِ المَخْلُوقَاتِ عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَٱلْأَخِرُ (١) وَٱلظَّاهِرُ (٢) وَٱلْبَاطِنُ (٣) وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٤) ﴾ [الحديد: ٣]..

---

(١) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ دَلَّ عَلَىٰ صِفَةِ الآخِرِيَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ، وَمَعْنَاهَا مِثْلَ مَا قَالَ ﷺ: « الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيءٌ ». قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ رَحِمَهُ اللهُ: "هُوَ البَاقِيْ بَعدَ الأَشْيَاءِ كُلِهَا."

(٢) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ الظَاهِرِيَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ مَعْنَاهَا العَالِي المُرْتَفِعُ، الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيءٌ.

وَالظُّهُورُ فِي اللُغَةِ يَأتِي عَلَىٰ مَعْنَيَينِ: العُلُوُ وَالغَلَبَةُ، وَالمُرَادُ هُنَا المَعْنَىٰ الأُوَلُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف: ٩٧]. وَلَا يَصِحُ حَمْلُهُ عَلَىٰ المَعْنَىٰ الثَانِي لِأَنَّ اللهَ قَابَلَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: ٣].

(٣) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ البَاطِنِيَةِ، وَمَعْنَاهَا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « فَلَيْسَ دُوْنَكَ شَيءٌ » أَيْ القَرِيْبُ مِنْ عِبَادِهِ كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "هُوَ البَاطِنُ لِجَمِيعِ الأَشْيَاءِ، فَلَا شَيءَ أَقْرَبُ إِلَىٰ شَيءٍ مِنْهُ."

وَقَالَ ابْنُ القَيْمِ رَحِمَهُ اللهُ: "وَبُطُونُهُ سُبْحَانَهُ إِحَاطَتُهُ بِكُلِ شَيءٍ بِحَيْثُ يَكُونُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَهَذَا قُرْبُ الإِحَاطَةِ العَامَةِ، وَأَمَّا القُرْبُ المَذْكُورُ فِي الكِتَابِ وَالسُنَّةِ فَقَرْبٌ خَاصٌ مِنْ عَابِدِيْهِ وَسَائِلِيْهِ وَهُوَ ثَمَرَةُ التَعَبُدِ بِاسْمِهِ البَاطِنِ."

وَقَالَ البَيْهَقِيُ رَحِمَهُ اللهُ: "البَاطِنُ أَقْرَبُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، وَإِنَّمَا يَعْنِي القُرْبَ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَهُوَ فَوْقَ عَرْشِهِ."

(٤) مَدَارُ هَذِهِ الأَسْمَاءُ الأَرْبَعَةُ عَلَىٰ الإِحَاطَةِ، فَأَحَاطَتْ أَوَلِيَتُهُ وَآخَرِيَتُهُ

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ (١) ﴾ [الفرقان: ٥٨]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ (٢) ٱلْحَكِيمُ (٣) ﴾ [التحريم: ٢].....

بِالأَوَائِلِ وَالأَوَاخِرِ، وَأَحَاطَتْ ظَاهِرِيَتُهُ وَباطِنِيَتُهُ بِكُلِّ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ. فَاسْمُهُ الأَوَّلُ دَالٌ عَلَىٰ قِدَمِهِ وَأَزَلِيَتِهِ، وَاسْمُهُ الآخِرُ دَالٌ عَلَىٰ قُرْبِهِ وَمَعِيَتِهِ.

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ الآيَةَ بِمَا يُفِيْدُ إِحَاطَةَ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيءٍ مِنْ الأُمُورِ المَاضِيَةِ وَالحَاضِرَةِ، وَالمُسْتَقْبَلَةِ مِنْ العَالَمِ العُلْوِي وَالسُفْلِي، وَمِنْ الوَاجِبَاتِ وَالجَائِزَاتِ وَالمُسْتَحِيْلَاتِ فَلَا يَغِيْبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَمَاءِ.

(١) هَذِهِ الآيَةُ فِيْهَا إِثْبَاتُ اسْمِهِ الحَي، وَمِنْهُ نَفَي المَوْتَ عَنْ نَفْسِهِ جَلَّ وَعَلَا، لِأَنَّ حَيَاتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَكْمَلُ حَيَاةٍ وَأَتَمَهَا، فَلَا يَعْرُضُ لَهَا مَوْتٌ وَلَا زَوَالٌ.

(٢) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ العِلْمِ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ ثَابِتَةٌ بَالسُنَّةِ أَيْضاً كَمَا فِي دُعَاءِ الِاسْتِخَارَةِ « اللهُمَّ أَسْتَخِيْرُكَ بِعِلْمِكَ ».

وَعِلْمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَامِلٌ لِكُلِّ شَيءٍ وَمُحِيْطٌ بِهِ فَيَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ سَيَكُونُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧] وَقَالَ: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

(٣) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ وَزْنِ فَعِيْل وَتَأْتِي عَلَىٰ مَعْنَيَيْنِ:

١ - فَعِيْلٌ بِمَعْنَىٰ فَاعِلٌ أَيْ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَاكِمُ بَيْنَ خَلْقِهِ بِأَمْرِهِ الكُوْنِي، وَأَمْرِهِ

﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١) ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا (٢) ﴾ [سبأ: ١ - ٢]، ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ (٣) ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾.....

الشَرْعِي فِي الدُنْيَا وَالآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧].

٢- فَعِيْلٌ بِمَعْنَىٰ مُفْعِلْ أَيْ أَنَّ اللهَ هُوَ المُحْكِمْ المُتْقِنْ لِلأَشْيَاءِ، مَأْخُوذٌ مِنْ الحِكْمَةِ وَهِيَ وَضْعُ الأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ غَيْرِ عَبَثٍ وَلَا زَلَلٍ، وَالحِكْمَةُ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ الخَبْرِ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ، وَمَعْنَاهُ كَمَا قَالَ ابْنُ القَيمِ وَالخَطَابِيُ وَغَيْرُهُمْ: "هُوَ الَّذِي اِنْتَهَىٰ عِلْمُهُ إِلَىٰ الإِحَاطَةِ بِبَوَاطِنِ الأَشْيَاءِ وَخَفَايَاهَا كَمَا أَحَاطَ بِظَوَاهِرِهَا."

فَالخَبِيْرُ أَخَصُّ مِنْ العَلِيْمِ.

(٢) هُنَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عِلْمُهُ، لِلْدِلَالَةِ عَلَىٰ شُمُولِهِ وَإِحَاطَتِهِ بِمَا لَا تَبْلُغُهُ عُلُومُ خَلْقِهِ.

(٣) جَمْعُ مِفْتَح بِكَسْرِ المِيْمِ وَفَتْحِ التَاءِ، وَهُوَ المِفْتَاحُ، مِثْلُ مِنْجَلٌ وَمَنَاجِلٌ فَمَفَاتِحُ أَصْلُهَا مَفَاتِيْحُ حُذِفَتْ مِنْهَا اليَاءُ، وَهِيَ لُغَةٌ قَلِيْلَةٌ. وَالمَشْهُورُ مِفْتَاحٌ، وَجَمْعُهُ مَفَاتِيْحٌ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ [(١)]﴾ [الأنعام: ٥٩] **وقَوْلُهُ:** ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١]، **وقَوْلُهُ:** ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وَقِيْلَ: جَمْعُ مَفْتِحٍ بِفَتْحِ المِيْمِ وَكَسْرِ التَاءِ، وَهِيَ الخِزَانَةُ.

لِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَفْسِيْرِ مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَزَائِنُهُ، وَقِيْلَ: طُرُقُهُ وَأَسْبَابُهُ الَّتِي يَتَوصَّلُ بِهَا إِلَيْهِ.

(١) هَذِهِ الآيَةُ وَالَّتِي قَبْلَهَا فِيْهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ العِلْمِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ[(١)]، وَالدَلِيْلُ العَقْلِيُ عَلَىٰ عِلْمِهِ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ يَسْتَحِيْلُ إِيْجَادُهُ للأَشْيَاءِ مَعَ الجَهْلِ، لِأَنَّ إِيْجَادَهُ الأَشْيَاءَ بِإِرَادَتِهِ، وَالإِرَادَةُ تَسْتَلْزِمُ العِلْمَ بِالمُرَادِ وَلِأَنَّ المَخْلُوقَاتِ فِيْهَا مِنْ الإِحْكَامِ وَالإِتْقَانِ وَعَجِيْبِ الصِنْعَةِ وَدَقِيْقِ الخِلْقَةِ مَا

---

(١) المعتزلة نفوا صفة العلم عن الله تعالىٰ كما نفوا سائر الصفات، ومنهم من يقول: إنّ الله يعلم بذاته لا بالصفة الزائدة علىٰ الذّات، قالوا: لأنّنا إن قلنا إنّه يعلم بالصفة للزم أن نقول إنّ صفاته قديمة أزلية كذاته، وبهذا نكون أثبتنا كثيراً من القدماء بعدد صفاته، فكان كفرنا أشدّ من كفر النصارىٰ الذين قالوا: إنّ الله ثالث ثلاثة.

والجواب: أنّ الصفة تابعة للموصوف غير قائمة بذاتها، ومن المعلوم أنّ صفة الموصوف المحدث لا يلزم منها أن تكون مماثلة له، فليست صفة النّبيّ نبيًا مثله، ولا صفة الإنسان إنسان مثله، فكيف يجب أن تكون صفة الإله إلها مثله!!

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ (١) .....

يَشْهَدُ بِعِلْمِ الفَاعِلِ لَهَا، لِامْتِنَاعِ صُدُورِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ.

وَلِأَنَّ مِنْ المَخْلُوقَاتِ مَنْ هُوَ عَالِمٌ، وَالعِلْمُ صِفَةُ كَمَالٍ لَا نَقْصَ فِيْهَا بِوَجْهٍ مِنْ الوُجُوهِ، وَالقَاعِدَةُ [أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ لَيْسَ فِيْهِ نَقْصٌ بِوَجْهٍ مِنْ الوُجُوهِ فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِ وَأَحَقُّ أَنْ يَتَصِفَ بِهِ]، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ اللهُ عَالِمًا، لَكَانَ فِي المَخْلُوقَاتِ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ.

وَلِأَنَّنَا لَوْ فَرَضْنَا شَيْئَيْنِ أَحَدُهُمَا عَالِمٌ، وَالآخَرُ غَيْرُ عَالِمٍ لَكَانَ العَالِمُ أَكْمَلُ مِنْ غَيْرِ العَالِمِ، وَيَسْتَحِيْلُ أَنْ يَكُونَ المَخْلُوقُ أَكْمَلُ مِنْ الخَالِقِ.

(١) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ الرَزْقِ، وَهِيَ صِفَةٌ فِعْلِيَةٌ ثَابِتَةٌ بِالسُنَّةِ أَيْضًا كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَهُ قَالَ: اللَهُمَّ جَنِبْنَا الشَيْطَانَ، وَجَنِبْ الشَيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا »(١).

وَالرَّزَاقُ صِيْغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنْ الرَزْقِ، وَمَعْنَاهُ: الَّذِي يَرْزُقُ عِبَادَهُ رِزْقًا بَعْدَ رِزْقٍ فِي إِكْثَارٍ وَسِعَةٍ.

وَكُلُّ مَا وَصَلَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ نَفْعٍ إِلَىٰ عِبَادِهِ فَهُوَ رِزْقٌ، سَوَاءٌ كَانَ مُبَاحًا أَكْلُهُ أَوْ غَيْرَ مُبَاحٍ، لِأَنَّ الرِزْقَ يُرَادُ بِهِ شَيْئَانِ:

١ - مَا يُنْتَفَعُ بِهِ العَبْدُ مُطْلَقًا وَهَذَا هُوَ المَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ

(١) أخرجه البخاري (٣١٠٩)، ومسلم (١٤٣٤).

فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، وَالعَبْدُ يَأْكُلُ الحَلَالَ وَالحَرَامَ، فَهُوَ رِزْقٌ بِهَذَا الاِعْتِبَارِ.

٢- مَا يَمْلِكُهُ العَبْدُ، وَهَذَا هُوَ المَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣]، وَهَذَا هُوَ الحَلَالُ الَّذِي مَلَّكَهُ اللهُ إِيَاهُ. وَالمَذْكُورُ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ [الرعد: ٢٢]، وَالمَمْلُوكُ لَا يَدْخُلُ فِيْهَا الحَرَامُ فِيهِ.

فَتَبَيَّنَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الرِزْقَ الحَرَامَ مِمَّا قَدَّرَهُ اللهُ، وَكَتَبَتْهُ المَلَائِكَةُ، وَهُوَ مِمَّا دَخَلَ تَحْتَ مَشِيْئَةِ اللهِ وَخَلْقِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ حَرَّمَهُ اللهُ وَنَهَىٰ عَنْهُ.

مَسْأَلَةٌ: هَلْ الرِزْقُ يَزِيْدُ وَيَنْقُصُ؟

الْرِزْقُ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

١- مَا عَلِمَهُ اللهُ مِنْ أَنَّ العَبْدَ سَيُرْزَقُهُ فَهَذَا ثَابِتٌ لَا يَتَغَيَّرُ.

٢- مَا كَتَبَهُ وَأَعْلَمَ بِهِ المَلَائِكَةَ فَهَذَا يَزِيْدُ وَيَنْقُصُ بِحَسَبِ الأَسْبَابِ، فَإِنَّ اللهَ يَأْمُرُ المَلَائِكَةَ أَنْ تَكْتُبَ لِلْعَبْدِ رِزْقًا، وَإِنْ وَصَلَ رَحِمَهُ زَادَهُ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلَ رَحِمَهُ »[1]. وَكَذَلِكَ عُمْرُ دَاوْدَ عَلَيْهِ السَلَامُ زَادَ سِتِّينَ سَنَةً، فَجَعَلَهُ اللهُ مِائَةً بَعْدَ أَنْ كَانَ أَرْبَعِيْنَ.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٥٧).

ذُو ٱلْقُوَّةِ (١) ٱلْمَتِينُ (٢)﴾ [الذاريات: ٥٨] وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ (٣) ٱلْبَصِيرُ (٤)﴾ [الشورى: ١١].....

(١) القُوَةُ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَابِتَةٌ بِالكِتَابِ، وَالقَوِيُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

(٢) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ المَتَانَةِ وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ ثَابِتَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكِتَابِ، وَقَدْ فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِالشَدِيْدِ.

(٣) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ السَمْعِ، وَهُيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ ثَابِتَةٌ بِالسُنَّةِ أَيْضاً كَمَا فِي حَدِيْثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي قِصَةِ المُجَادِلَةِ وَقَوْلِهَا: "الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ."

وَمَعْنَىٰ السَمِيْعِ: المُدْرِكُ لِجَمِيْعِ الأَصْوَاتِ مَهْمَا خَفَتْ، فَهُوَ يَسْمَعُ السَرَّ وَالنَجْوَىٰ، بِسَمْعٍ هُوَ صِفَةٌ لَهُ لَا يُمَاثِلُ أَسْمَاعَ خَلْقِهِ، وَالدَلِيْلُ حَدِيْثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] فَوَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَىٰ أُذُنِهِ وَالَّتِي تَلِيَهَا عَلَىٰ عَيْنِهِ(١).

(٤) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ جَلَّ وَعَلَا، دَالٌ عَلَىٰ صِفَةِ البَصَرِ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ ثَابِتَةٌ بِالسُنَّةِ أَيْضاً كَمَا فِي حَدِيْثِ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « يَا أَيُهَا النَّاسُ! أَرْبِعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَماً وَلَا غَائِباً، وَلَكِنْ تَدْعُونَ

(١) أخرجه أبوداود (٤٧٢٨).

سَمِيْعـًا بَصِيْراً، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ »[1].

مَعْنَىٰ البَصِيْرِ المُدْرِكُ لِجَمِيْعِ المَرْئِيَاتِ مِنْ الأَشْخَاصِ وَالأَلْوَانِ مَهْمَا لَطُفَتْ أَوْ بَعُدَتْ، فَلَا تُؤَثِرُ عَلَىٰ رَؤْيَتِهِ الحَوَاجِزُ وَالأَسْتَارُ، وَهُوَ يُبْصِرُ بِبَصَرٍ يَلِيْقُ بِهِ جَلَّ وَعَلَا[2].

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٤).

(٢) وهذا هو مذهب جمهور الأشاعرة، وخالف في ذلك بعضهم وقالوا: سميع بصير بمعنىٰ عليم فهم يجعلون السمع صفة ذاتية تتعلق بجميع الموجودات. وكذلك البصر أيضـًا.

وتفسيرهم هذا إرجاع لهاتين الصفتين لصفة العلم، كما قال أبو حامد الغزالي وغيره.

ويفرقون بين صفة العلم وصفتي السمع والبصر بقولهم: إنَّ العلم صفة ثابتة لله عز وجل بالعقل، وأما السمع والبصر فثابتتان بالشرع!!

وهناك فرق بين السمع والبصر من وجهين:

أولًا: من جهة اللغة فالسمع هو إدراك المسموعات، والبصر هو إدراك المبصرات كما تقدم معنا.

ثانيـًا: قد جمع الله بينهما وغاير، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ في الردّ علىٰ من جعل السمع والبصر بمعنىٰ العلم: "ويلزم من ذلك أن يسويه بالأعمىٰ الذي يعلم أنَّ السماء خضراء ولا يراها، والأصم الذي يعلم في النّاس أصواتـًا جميلة ولا يسمعها، ولا شكّ أنَّ من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر ... يتضمن أنَّه يسمع بسمع، ويبصر ببصر كما تضمن كونه عليمـًا بعلمٍ .. وهذا قول أهل السنّة قاطبة." اهـ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] ....

(١) فِيْهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ المَشِيْئَةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ بِالسُّنَّةِ أَيْضًا كَمَا فِي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ ».

وَالمَشِيْئَةُ هِيَ الإِرَادَةُ الكُوْنِيَةُ وَسَيَأْتِي بَيَانُهَا، وَهِيَ لَا تَنْقَسِمُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ: مَشِيْئَةٌ كُوْنِيَةٌ وَمَشِيْئَةٌ شَرْعِيَّةٌ. لِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فَهِيَ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا أَحَدٌ كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَلَا يَقَعُ خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ إِلَّا بِمَشِيْئَةِ اللهِ.

وَالقَدَرِيَّةُ كَالمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: المَشِيْئَةُ لَا تَدْخُلُ فِي مَعْصِيَةِ العَاصِي وَلَا فِي كُفْرِ الكَافِرِ، فَإِنَّ كُفْرَ الكَافِرِ وَمَعْصِيَةَ العَاصِي أَمْرٌ لَمْ يَشَاءْ اللهُ وُقُوْعَهُ، لِأَنَّ اللهَ إِنَّمَا يَشَاءُ مَا يُحِبَهُ وَيَرْضَاهُ وَاللهُ لَا يَرْضَىٰ الكُفْرَ وَالمَعْصِيَةَ وَإِنَّمَا الَّذِي شَاءَ وُقُوْعَهُ العَبْدُ، وَاسْتَدَلُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

وَالجَوَابُ بِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ مَشِيْئَةِ اللهِ لِلْشَيءِ أَنَّهُ يُحِبُهُ وَيَرْضَاهُ، بِدَلِيْلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقال البيهقي رَحِمَهُ اللهُ: "السميع من له سمع يدرك به المسموعات، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات، وكلٌ منهما في حقِّ الباري صفة قائمة بذاته، وقد أفادت الآية وأحاديث الباب الردَّ علىٰ من زعم أنه سميع وبصير بمعنىٰ عليم." اهـ الاعتقاد (١/ ٥٨).

لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ(١)﴾ [الكهف: ٣٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا(٢) وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(٣)﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(٤)﴾ [المائدة: ١]

(١) فِيْهِ نَفْيٌ لِكَمَالِ القُوَةِ عَنْ غَيْرِ اللهِ.

(٢) هَذِهِ الآيَةُ فِيْهَا رَدٌّ عَلَىٰ القَدَرِيَّةِ الَّذِيْنَ يُنْكِرُونَ تَعَلُّقَ فعْلِ العَبْدِ بِمَشِيْئَةِ اللهِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ يَعْنِي: لَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يَقْتَتِلُوا فَاقْتَتَلُوا.

(٣) الإِرَادَةُ هُنَا: الإِرَادَةُ الكُوْنِيَةُ، وَالفِعْلُ بِاعْتِبَارِ مَا يَفْعَلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِنَفْسِهِ فِعْلٌ مُبَاشِرٌ، وَبِاعْتِبَارِ مَا يُقَدِرُهُ عَلَىٰ العَبْدِ فِعْلٌ غَيْرُ مُبَاشِرٍ.

وَمِنْ المَعْلُومِ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا صَلَّىٰ وَصَامَ فَالفَاعِلُ الإِنْسَانُ بِلَا شَكٍ، وَفِعْلُهُ هَذَا أَرَادَهُ اللهُ، وَلَا يَصِحُ أَنْ يُنْسَبَ فِعْلُ العَبْدِ إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ سَبِيْلِ المُبَاشَرَةِ، لِأَنَّ المُبَاشِرَ هُوَ الإِنْسَانُ وَلَكِنْ يَصِحُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ سَبِيْلِ التَقْدِيْرِ وَالخَلْقِ.

وَأَمَّا مَا يَفْعَلُهُ اللهُ بِنَفْسِهِ كَالاِسْتِوَاءِ وَالنُزُولِ، فَإِنَّهُ يُنْسَبُ إِلَيْهِ.

(٤) هَذِهِ الآيَةُ فِيْهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ الإِرَادَةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ بِالسُنَّةِ أَيْضاً كَمَا جَاءَ فِي حَدِيْثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَومٍ عَذَاباً، أَصَابَ العَذَابُ مَنْ كَانَ فِيْهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ »(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٩)، ومسلم (٢٨٧٩).

وَقَولُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ(١) يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ(٢) أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ(٣)﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وَأَهْلُ السُنَّةِ يَقُوْلُونَ إِنَّ الإِرَادَةَ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: ١-إِرَادَةً كُوْنِيَةً.

٢-إِرَادَةً شَرْعِيَةً.

وَالفَرْقُ بَيْنَ الإِرَادَتَيْنِ هُوَ مَا يَأْتِي:

١- الإِرَادَةُ الكُوْنِيَةُ يَلْزَمُ مِنْهَا كَوْنُ المُرَادِ، لِأَنَّهَا مُرَادِفَةٌ لِلْمَشِيْئَةِ، وَاللهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا وَشَاءَهُ فَإِنَّهُ يَقَعُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وَأَمَّا الإِرَادَةُ الشَرْعِيَةُ فَلَا يَلْزَمُ مِنْهَا وُجُودُ المُرَادِ.

٢- الإِرَادَةُ الكَوْنِيَةُ لَا يَلْزَمُ مِنْهَا مَحَبَةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ للشيءِ المراد كَمَا تقدَّمَ معنا، وأمَّا الإرادةُ الشرعيةُ فيلزمُ منها محبّةُ اللهِ لَهَا، فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ شَرْعًا فَإِنَّهُ يُحِبُهُ وَيَرْضَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

(١) المُرَادُ بِالإِرَادَةِ هُنَا الإِرَادَةُ الكُوْنِيَةُ، وَالمُرَادُ بِالهِدَايَةِ هُنَا، هِدَايَةُ التَوْفِيْقِ وَالإِلْهَامِ.

(٢) إِرَادَةٌ كَوْنِيَةٌ لِأَنَّ التَقْسِيْمَ الَّذِي فِي الآيَةِ لَا يَكُونُ فِي الأُمُورِ الكَوْنِيَةِ، أَمَّا الشَرْعِيَةُ فَاللهُ يُرِيْدُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُسْلِمَ لِلْشَرْعِ.

(٣) أَيْ كَأَنَّهُ حِيْنَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ الإِسْلَامُ يَتَكَلَّفُ صُعُودَ السَمَاءِ بِمَشَقَةٍ شَدِيْدَةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ[1] إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَقْسِطُوٓاْ[2] إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَقَوْلُهُ: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ[3] ﴾ [الصف: ٤].....

(١) الإِحْسَانُ يَكُونُ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَفِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ، وَالإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[1].

وَالإِحْسَانُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ كَمَا قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُ: بَذْلُ النَدَىٰ، وَكَفُّ الأَذَىٰ، وَطَلَاقَةُ الوَجْهِ.

(٢) فِعْلُ أَمْرٍ مِنْ أَقْسَطَ لَيْسَ مِنْ قَسَطَ، وأَقْسَطَ فِعْلٌ رُبَاعِيٌ، فَالهَمْزَةُ فِيْهِ هَمْزَةُ النَفْيِ، إِذَا دَخَلَتْ عَلَىٰ الفِعْلِ نَفَتْ مَعْنَاهُ، فَالفِعْلُ قَسَطَ مَعْنَاهُ جَارَ، فَإِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ الهَمْزَةُ صَارَ بِمَعْنَىٰ عَدَلَ، أَيْ أَزَالَ القِسْطَ، وَهُوَ الجَوْرُ، فَيُسَمُونَ هَذِهِ الهَمْزَةَ هَمْزَةَ السَلْبِ، مِثْلَ خَطِئَ وَأَخْطَأَ، خَطِئَ مَعْنَاهُ اِرْتَكَبَ الخَطَأَ عَمْداً، وَأَخْطَأَ مَعْنَاهُ اِرْتَكَبَ الخَطَأَ عَنْ غَيْرِ عَمْدٍ.

(٣) الآيَاتُ السَابِقَةُ فِيْهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ المَحَبَةِ وَهِيَ صِفَةٌ فِعْلِيَةٌ اِخْتِيَارِيَةٌ ثَابِتَةٌ

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٥).

بِالسُّنَّةِ أَيْضاً كَمَا فِي حَدِيْثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَأُعْطِيَنَّ الرَايَةَ غَداً رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ، يُحِبُ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ».

وَمَحَبَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِبَعْضِ الأَشْخَاصِ وَالأَعْمَالِ، وَالأَخْلَاقِ صِفَةٌ حَقِيْقِيَةٌ قَائِمَةٌ بِهِ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الفِعْلِ الاِخْتِيَارِيَةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَشِيْئَتِهِ فَهُوَ يُحِبُ بَعْضَ الأَشْيَاءِ دُوْنَ بَعْضٍ عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيْهِ الحِكْمَةُ البَالِغَةُ.

فَأَهْلُ السُنَّةِ يُثْبِتُوْنَهَا عَلَىٰ حَقِيْقَتِهَا وَلَا يُفَسِرُونَهَا بِلَازِمِهَا وَهُوَ إِرَادَةُ الثَوَابِ وَالإِكْرَامِ، لِأَنَّهُ تَفْسِيْرٌ غَيْرُ صَحِيْحٍ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَثْبَتَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الصِفَةَ وَلَازِمَهَا فِي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً، قَالَ لِجِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي أُحِبُ فُلَانـاً فَأَحِبْهُ، قَالَ: فَيَقُولُ لِأَهْلِ السَمَاءِ: إِنَّ رَبَكُمْ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُ فُلَانـاً فَأَحِبُوهُ، قَالَ: فَيُحِبُهُ أَهْلُ السَمَاءِ، وَيَضَعُ لَهُ القَبُولَ فِي الأَرْضِ »[1].

---

(١)كما يقول الأشاعرة: إنّها تقتضي ملاءمة ومناسبة بين المحب والمحبوب، ويوجب للمحب بدرك محبوبه فرحـاً ولـذّة وسرورا .. والله غني لا تجوز عليه الحاجة، ولو جازت عليه الحاجة للزم حدوثه وإمكانه، وهو غني سبحانه.

والجواب من وجهين:

الأول: الإلزام، وهو أن نقول: الإرادة تقتضي ملاءمة ومناسبة بين المريد والمراد، وملاءمته في ذلك تقتضي الحاجة، وما لا يحتاج إليه الحي لا ينتفع به، ولا يريده. وإذا أراد

الإثابة والإكرام لا يكون ذلك لملاءمة ومناسبة بينهما أو لجلب منفعة أو دفع مضرة، وهذا منزه الله عنه.

فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي أخرىٰ يلزمه فيما أثبته نظير ما يلزمه فيما نفاه، لم يكن إثبات أحدهما ونفي الأخرىٰ أولىٰ من العكس.

لأنّه تفسير غير صحيح لأنّ النّبيّ ﷺ أثبت لله عزّ وجلّ هذه الصفة ولازمها في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: « إنّ الله إذا أحب عبداً، قال لجبريل عليه السلام: إنّي أحب فلانًا فأحبه. قال: فيقول جبريل لأهل السماء: إنّ ربكم عزّ وجلّ يحب فلانًا فأحبوه. قال: فيحبه أهل السماء، ويضع له القبول في الأرض » أخرجه البخاري ومسلم.

الثاني: أنّ الذي يعلم قطعًا هو أنَّ الله قديم واجب الوجود الكامل، وأنّه لا يجوز عليه الحدوث ولا النقص لكن كون هذه الأمور التي جاءت بها النصوص مستلزمة للحدوث والإمكان أو النقص في حق المخلوق فالله عز وجل أعظم من أن يجري عليه ما يجري علىٰ المخلوق من النقص. اهـ من مختصر الصواعق المرسلة.

وقال شيخ الإسلام: والمناسبة لفظ مجمل فإنّه قد يراد به التوالد والقرابة، فيقال: هذا نسيب فلان ويناسبه إذا كان بينهم قرابة مستندة إلىٰ الولادة والآدمية. والله منزّه عن ذلك.

ويراد بها المماثلة فيقال: هذا يناسب هذا أي يماثله. والله سبحانه وتعالىٰ أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

ويراد بها الموافقة في معنىٰ من المعاني وضدها المخالفة والمناسبة بهذا الاعتبار ثابتة، فإنّ أولياء الله تعالىٰ يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه، وفيما يحب فيحبونه، وفيما نهىٰ عنه فيتركونه... فهذه المناسبة حق وهي من صفات الكمال.

وإذا قُدِّرَ موجودان أحدهما يحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك، والآخر لا فرق عنده بين هذه الأمور وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك، لا يحب هذا ولا يبغض

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ(١) ٱلْوَدُودُ(٢)﴾ [البروج: ١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].....

(١) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَلِكَ الغَفَّارُ، يَدُلَّانِ عَلَىٰ صِفَةِ الغَفْرِ، وَمَعْنَاهُ الَّذِي يَكْثُرُ مِنْهُ السَتْرُ عَلَىٰ المُذْنِبِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ، وَالتَجَاوُزَ عَنْ مُؤَاخَذَاتِهِمْ.

وَهِيَ صِفَةٌ فِعْلِيْةٌ ثَابِتَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالسُنَّةِ أَيْضًا، كَمَا فِي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « ... بَلْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ »(١).

(٢) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ الودِّ الَّذِي هُوَ خَالِصُ الحُبِّ وَأَلْطَفُهُ، وَفِيْهِ قَوْلَانِ:

١- أَنَّهُ فَعُولٌ بِمَعْنَىٰ فَاعِلٍ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: كَثِيْرُ الوِدِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَالمُتَقَرِبُ إِلَيْهِمْ بِنَصْرِهِ لَهُمْ وَمَعُونَتِهِ.

٢- أَنَّهُ فَعُولٌ بِمَعْنَىٰ مَفْعُولٍ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: المَودُودُ لِكَثْرَةِ إِحْسَانِهِ، المُسْتَحَقُ

هذا كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا. انظر مجموع الرسائل والمسائل (٥/ ٦٥)

وأما المعتزلة فيفسرون المحبة بأنّها نفس الثواب الواجب عندهم علىٰ الله لهؤلاء، وقالوا: ذلك لأنّهم لا يثبتون إرادة قائمة بالله عز وجل.

(١) أخرجه مسلم (١٢٥).

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢]، ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف: ٦٤]

لِأَنَّ يَوَدَّهُ خَلْقُهُ فَيَعْبُدُوهُ وَيَحْمَدُوهُ.

(١) أَيْ أَوْجَبَهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ تَفَضُّلاً وَإِحْسَانًا، وَلَمْ يُوجِبْهَا عَلَيْهِ أَحَدٌ[1].

(٢) هَذِهِ الآيَاتُ فِيْهَا إِثْبَاتُ اسْمِ الرَحْمَنِ وَالرَحِيْمِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُمَا يَدُلَانِ عَلَىٰ صِفَةِ الرَحْمَةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ بِالسُنَّةِ أَيْضًا كَمَا فِي حَدِيْث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ أَوْ غَلَبَتْ

(١) وقالوا: إذا كان معقولاً من الإنسان أن يوجب علىٰ نفسه، ويحرّم علىٰ نفسه، ويأمرها وينهاها مع كونه تحت أمر غيره، فالآمر والناهي الذي ليس فوقه أحد كيف يمتنع عليه ذلك؟!

أما المعتزلة: فأوجبوا علىٰ الرّب جلّ وعلا أشياء، وحرموا عليه أشياء بعقولهم، وجعلوها شريعة له يجب مراعاتها من غير أن يوجبها أو يحرّمها علىٰ نفسه. والذي أوجبوه عليه من جنس ما يجب عليهم، وحرّموا عليه أشياء من جنس ما يحرم عليهم.

فالمعتزلة مشبّهة في أفعال الله، معطّلة في صفاته.

وسمّوا ذلك عدلاً، فقالوا: نحن أهل العدل فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الشاملة التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات.

الجبرية قالوا: لا يجب ولا يحرم عليه شيء مطلقًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ(١) يَنظُرُونَ(٢) .....

غَضَبِي »(١) (٢).

(١) اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ النَفْي، فَيَكُونُ المَعْنَىٰ مَا يَنْظُرُونَ، لأن (إِلَّا) إذا وجِدَتْ بَعْدَ الاِسْتِفْهَامِ فَهِيَ لِلْنَفْي، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «هَلْ أَنْتِ إِلَّا أُصْبعٌ دُمِيْتِ... ».

(٢) يَنْظُرُونَ وَنَظَرَ لَهَا ثَلَاثُ حَالَاتٍ:

١ - إِنْ عُدِّيَتْ بِإِلَىٰ أَوْ ذُكِرَ الوَجْهُ بَعْدَهَا فَالمُرَادُ بِهَا النَظَرُ بِالعَيْنِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) أنكرت الأشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوىٰ أنّها في المخلوق ضعفٌ وخورٌ وتألمٌ للمرحوم.

وأجيب علىٰ هذا بما يلي:

١ - أنّ الرحمة إنّما تكون من الأقوياء للضعفاء، فلا تستلزم ضعفًا ولا خَوَراً، بل قد تكون مع غاية العزّة والقدرة، فالإنسان القوي يرحم ولده الصغير وأبويه الكبيرين ومن هو أضعف منه، وأين الضعف والخور - وهما من أذمِّ الصفات - من الرحمة التي وصف الله بها نفسه، وأثنىٰ علىٰ أوليائه المتصفين بها، وأمرهم أن يتواصوا بها؟!

٢ - إنّ هذا المعنىٰ حقٌّ في المخلوق، وعلمناه لما كانت ذوات المخلوق معلومة، لأنَّ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات.

٣ - أنَّه يرد علىٰ الإرادة ما أوردوه علىٰ الرحمة، فيقال: الإرادة لا تكون إلا لمناسبة بين المريد والمراد، وملاءمته له في ذلك تقتضي الحاجة. فما لا يحتاج إليه، ولا ينتفع به لا يريده، وهذا معنىٰ لا يليق إلا بالله.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى(١) ظُلَلٍ(٢) مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ(٣) وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾(٤) [الأنعام: ١٥٨].....

٢- إِنْ عُدِيَتْ بِفِي فَالمُرَادُ بِهَا التَفَكُرُ وَالتَأَمُلُ.

٣- إِنْ لَمْ تُعَدَ بِشَيءٍ وَلَمْ يُذْكَرْ الوَجْهُ بَعْدَهَا فَالمُرَادُ بِهَا الإِنْتِظَارُ.

(١) فِي هُنَا بِمَعْنَىٰ مَعَ فَهِيَ لِلْمُصَاحَبَةِ، وَلَيْسَتْ لِلْظَرْفِيَةِ قَطْعًا، لَأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ لِلْظَرْفِيَةِ لَكَانَتْ الظُلَلُ مُحِيْطَةٌ بِاللهِ، وَمِنْ المَعْلُومِ أَنَّ اللهَ عَلِيْمٌ لَا يُحِيْطُ بِهِ شَيءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

(٢) الظُلَلُ جَمْعُ ظُلَّةٍ وَهِيَ مَا يُظَلِلُ الإِنْسَانَ، وَالغَمَامُ هُوَ السَحَابُ الأَبْيَضُ الرَقِيْقُ النَاصِعُ البَيَاضِ.

وَهَذَا يَكُونُ قَبْلَ نُزُولِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ....﴾ [الفرقان: ٢٥].

(٣) ذَكَرَ اِبْنُ جَرِيْرٍ أَنَّ نُزُولَ المَلَائِكَةِ يَكُونُ لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: لِقَبْضِ الأَرْوَاحِ، أَوْ لِلْعَذَابِ وَهَذَا بِتَتَبُعِ آيَاتِ الكِتَابِ.

(٤) المُرَادُ بِالآيَاتِ طُلُوعُ الشَمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا عِنْدَ أَكْثَرِ السَّلَفِ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢١ – ٢٢]، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾[1] [الفرقان: ٢٥].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا تَنْفَعُ نَفْسٌ إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْراً طُلُوعُ الشَمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدجَّالُ، وَالدَابَّةُ »[1].

(١) هَذِهِ الآيَاتُ فِيْهَا إِثْبَاتُ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الفِعْلِيَةِ، وَهُمَا الإِتْيَانُ وَالمَجِيءُ وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الإِيْمَانُ بِذَلِكَ عَلَىٰ حَقِيْقَتِهِ وَالاِبْتِعَادُ عَنْ التَأوِيْلِ الَّذِي هُوَ فِي الحَقِيْقَةِ إِلْحَادٌ وَتَعْطِيْلٌ.

وَالأَشَاعِرَةُ وَالمُعْتَزِلَةُ يُؤَوِلُونَهَا بِإِتْيَانِ الأَمْرِ أَوْ رَحْمَتِهِ أَوْ عَذَابِهِ أَوْ إِتْيَانِ المَلَائِكَةِ[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩).

(٢) وأجيب عن هذه التأويلات بعدد من الأجوبة، منها:

١- أنّه إضمار ما لا يدل عليه اللفظ بمطابقة، ولا تضمن، ولا لزوم، وادعاء حذف ما لا دليل عليه يرجع إلىٰ عدم الوثوق بالخطاب، ويفتح الباب لكل مبطلٍ لِدِعَاءِ إضمار ما يُصحّح باطله.

٢- أنّ صحّة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف علىٰ هذا المحذوف بل الكلام مستقيم بدونه.

٣- إذا لم يكن في اللفظ دليل علىٰ تعيين المحذوف كان تعيينه قولاً علىٰ المتكلم بل علمٍ.

٤- أنّ في السياق ما يبطل هذا التقدير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ ﴾ فهذا العطف يدل

وَقَولُهُ: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[1] [الرحمن: ٢٧]، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨].....

(١) هَذِهِ الآيَةُ وَالَّتِي قَبْلَهَا تَدُلُّ عَلَىٰ إِثْبَاتِ صِفَةِ الوَجْهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ

على التغاير بين المجيئين، وأنَّ مجيء الرّب حقيقة كما أنَّ مجيء الملك حقيقة. وكذلك قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ ففرَّق سبحانه بين إتيان الملائكة وإتيان الرّب، وإتيان بعض آيات الله. فقسّم ونوّع، ومع هذا التقسيم والتنويع يمتنع أن يكون المقسّم واحد. ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللّفظ على المجاز، وقالوا: هذا يأباه التقسيم.

٥- أنّه لو كان المجيء والإتيان عليه سبحانه مستحيلاً لكان كالأكل والشرب والنوم والغفلة وهو كذلك عندهم. فمتىٰ عهدتم إطلاق الأكل والشرب عليه ونسبتها إليه في الكتاب والسنّة نسبة مجازية وهي متعلقة بغيره ولا يبين ذلك؟! فالله جلّ وعلا لا يطلق علىٰ نفسه هذه الأفعال، ولا رسوله ﷺ لا بقرينة مطلقة فضلاً عن تطَّرد نسبتها إليه. بينما اطَّراد نسبة المجيء والإتيان إليه واطراد ذلك دليل الحقيقة. وقد صرح أهل المجاز بأنَّ من علامات الحقيقة الاطَّراد.

٦- لو كان هذا التأويل صحيحًا فإنَّه لا يُصار إليه إلّا عند تعذر الحمل علىٰ الحقيقة إذ هي الأصل.

٧- أنّ هذا الذي ادعو فيه حذفه وإضماره يلزمهم فيه كما لزمهم فيما أنكروه، فإنّهم إذا قدروا وجاء أمر ربك ونحو ذلك فأمره هو كلامه وهو حقيقة، فكيف تأتي الصفة وتنزل دون موصوفها؟!! فلمّا تفطّن بعضهم لذلك قال: أمره بمعنىٰ مأموره فالخلق والرزق بمعنىٰ المرزوق فركَّب مجازاً علىٰ مجازٍ ولم يصنعوا شيئًا. اهـ انظر مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٩).

صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ ثَابِتَةٌ فِي السُنَّةِ أَيْضاً كَمَا فِي حَدِيْثِ اِبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي الثَلَاثَةِ الَّذِيْنَ حُبِسُوا فِي الغَارِ فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ اِبْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ(١).

وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ الوَجْهَ صِفَةٌ غَيْرُ الذَاتِ وَيَدُلُّ لِذَلِكَ مَا يَأتِي:

١- أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَضَافَهُ إِلَىٰ الذَاتِ، وَلَوْ كَانَ هُوَ الذَاتُ كَمَا يَقُولُ المُعَطِلَةُ لَمْ يَكُنْ لِإِضَافَتِهِ إِلَىٰ الذَاتِ مَعْنَىٰ.

٢- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَطَفَهُ عَلَىٰ الْذَاتِ كَمَا فِي حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: « أَعُوْذُ بِاللهِ العَظِيْمِ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيْمِ، وَسُلْطَانِهِ القَدِيْمِ، مِنْ الشَيْطَانِ الرَجِيْمِ »(٢).

فَلَوْ كَانَ الوَجْهُ هُوَ الذَاتُ، لَمْ يَكُنْ لِعَطْفِهِ عَلَىٰ الذَاتِ مَعْنَىٰ، فَلَمَّا عَطَفَهُ عَلَيْهِ عُلِمَ أَنَّ الوَجْهَ صِفَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ زَائِدَةٌ عَلَىٰ ذَاتِهِ وَلَيْسَ الوَجْهُ ذَاتُهُ.

قَالَ البَيْهَقِيُ: ''وَهَذِهِ صِفَاتٌ طَرِيْقُ إِثْبَاتِهَا السَمْعُ، فَنُثْبِتُهَا لِوُرُودِ خَبَرِ الصَادِقِ بِهَا وَلَا نُكَيْفُهَا، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فَأَضَافَ الْوَجْهَ إِلَىٰ الْذَاتِ وَأَضَافَ النَعْتَ إِلَىٰ الْوَجْهِ، فَقَالَ: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٢) أخرجه أبوداود (٤٦٦)، وصححه الألباني.

وَلَوْ كَانَ ذِكْرُ الوَجْهِ صِلَةٌ - زِيَادَةٌ -، وَلَمْ يَكُنْ لِلْذَاتِ صِفَةٌ لَقَالَ: ذِيْ الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ.

فَلَمَّا قَالَ: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ عَلِمْنَا أَنَّهُ نَعْتٌ لِلْوَجْهِ، وَهُوَ صِفَةٌ لِلْذَاتِ." اهـ[1]

وَقَالَ اِبْنُ خَزَيْمَةَ: "فَنَحْنُ وَجَمِيْعُ عُلَمَائِنَا مِنْ أَهْلِ الحِجَازِ وَتُهَامَةَ اليَمَنِ وَالعِرَاقِ وَالشَامِ وَمِصْرَ مَذْهَبُنَا أَنَّا نُثْبِتُ للهِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ، وَنُقِرُّ ذَلِكَ بِأَلْسِنَتِنَا، وَنُصَدِقُ ذَلِكَ بِقُلُوبِنَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ نُشَبِهَ وَجْهَ خَالِقِنَا بِوَجْهِ أَحَدٍ مِنْ المَخْلُوْقِيْنَ عَزَّ وَجَلَّ رَبُنَا أَنْ يُشْبِهَ المَخْلُوْقِيْنَ." اهـ[2]

وَالمُعَطِلَةُ فَسَّرُوا الوَجْهَ بِالذَاتِ وَقَالُوْا: المُرَادُ وَيَبْقَىٰ رَبُكَ.[3] وَمِنْهُمْ مَنْ

---

(١) الاعتقاد (٨٩).

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٦).

(٣) قالوا: لأن البقاء يكون للذات لا للوجه. والجواب عليهم من وجوه:

١- أنّ بقاء الوجه يستلزم بقاء الذات.

٢- علىٰ فرض التسليم أنّ المراد بالوجه الذّات فإنّه لو لم يكن لله عزّ وجلّ وجه علىٰ الحقيقة لما جاز استعمال هذا اللفظ في معنىٰ الذّات، فإنّ اللفظ الموضوع لمعنىٰ لا يمكن أن يستعمل في معنىٰ آخر إلا إذا كان المعنىٰ الأصلي ثابتًا للموصوف، حتىٰ يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلىٰ لازمه.

قَالُوْا: هُوَ الثَوَابُ وَالجَزَاءُ[1]. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هِيَ الجِهَةُ. وَهَذِهِ التَأْوِيْلَاتُ يُبْطِلُهَا حَدِيثُ أَبِيْ مُوسَىٰ الأَشْعَرِي ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « حِجَابُهُ النُوْرُ - أَوْ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ »[2] قَالَ اِبْنُ القَيْمِ: "فَإِضَافَةُ السُبُحَاتِ الَّتِي هِيَ الجَلَالُ وَالنُورُ إِلَىٰ الْوَجْهِ وَإِضَافَةِ البَصَرِ إِلَيْهِ، تُبْطِلُ كُلَّ مَجَازٍ وَتُبَيْنُ أَنَّ المُرَادَ وَجْهُهُ." اهـ

٣- القول بأنّ لفظ الوجه زائد كذب، لأنّ هذه الكلمة مما لم يُعهد زيادتها في الكتاب والسنّة ولا في اللغة، وكذلك هذه الدعوىٰ يمكن سحبها في قوله ﷺ: « أعوذ بعزة الله وقُدرته ». فيُقال: هذا مجاز بالزيادة، والمراد أعوذ بالله.

٤- أنَّه لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنىٰ ذاته ونفسه، وغاية ما يتعلقون به قول القائل: وجه الحائط، ووجه الثوب، ووجه النّهار والأمر. فيُقال له: ليس الوجه في ذلك بمعنىٰ الذّات بل هذا مُبطل لقولك. فإنّ وجه الحائط أحد جانبيه فهو مقابل لدبره. فهو وجه حقيقة ولكنّه بحسب المضاف إليه، فلمّا كان المضاف إليه بناء كان من جنسه، وكذلك وجه النّهار أوله، ولا يُقال لجميع النّهار. والوجه في اللغة مستقبل كل شيء لأنّه أول ما يواجه منه، ووجه الأمر ما يظهر من الصواب فيه.

(١) وهو تأويل باطل لأنَّ اللغة لا تحتمل هذا المعنىٰ، ولأنّ الثواب مخلوق. وقد ثبت عن النّبيّ ﷺ أنّه استعاذ بوجه الله كما في حديث ابن عباس ﷺ: « أعوذ بوجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون ». أخرجه مسلم (٧٠٧٤)

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٣).

وَقَولُـهُ: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ.. ﴾ [ص: ٧٥] ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ ﴾(١) [المائدة: ٦٤]..

---

(١) فِي هَذِهِ الآيَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ اليَدَيْنِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ خَبَرِيَّةٌ. وَهِيَ ثَابِتَةٌ بِالسُنَّةِ أَيْضـاً كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي مُوْسَىٰ الأَشْعَرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللهَ يُبْسِطُ يَدَهُ بِاللَيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَهَارِ، وَيَبْسُطَ يَدَهُ بِالنَهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَيْلِ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »(١).

قَالَ أَبُو الحَسَنِ الأَشْعَرِي رَحِمَهُ اللهُ: "وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَسْمَعُ وَيَرَىٰ وَأَنَّ لَهُ تَعَالَىٰ يَدَيْنِ مَبْسُوطَتَيْنِ." اهـ(٢)

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الإِسْمَاعِيْلِي: "وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِهِ، وَيَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ بِلَا اِعْتِقَادِ كَيْفَ يَدَاهُ، وَإِذَا لَمْ يَنْطِقْ كِتَابُ اللهِ فِيْهِ بِكَيْفَ." اهـ(٣)

وَأَوَّلَ المُعَطِلَةُ اليَدَ بِالْقُدْرَةِ، وَلَا يُمْكِنُ حَمْلُ اليَدَيْنِ هُنَا عَلَىٰ القُدْرَةِ لِأُمُورٍ:

١ - أَنَّ الأَشْيَاءَ جَمِيْعًا حَتَّىٰ إِبْلِيْسَ خَلَقَهَا اللهُ بِقُدْرَتِهِ، فَلَا يَبْقَىٰ لِآدَمَ خُصُوصِيَةٌ يَتَمَيَّزُ بِهَا.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٦٣).

(٢) رسالة أهل الثغر (٢٢٥).

(٣) اعتقاد أئمة الحديث (٥١).

٢- وَفِي الحَدِيْثِ: « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءٍ بِيَدِهِ: خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ »[1] فَتَخْصِيْصُ هَذِهِ الثَلَاثَةُ بِالذِكْرِ مَعَ مُشَارَكَتِهَا لِبَقِيَةِ المَخْلُوْقَاتِ فِي وُقُوْعِهَا بِالقُدْرَةِ دَالٌ عَلَىٰ اِخْتِصَاصِهَا بِأَمْرٍ زَائِدٍ.

وَهَلْ يَصِحُ فِي عَقْلٍ أَوْ نَقْلٍ أَوْ فِطْرَةٍ أَنْ يُقَالَ: لَمْ يَخْلُقْ اللهُ بِقُدْرَتِهِ إِلَّا ثَلَاثًا أَوْ لَمْ يَخْلُقْ بِنِعْمَتِهِ إِلَّا ثَلَاثًا؟!

٣- إِنَّ لَفْظَ اليَدَيْنِ بَالتَثْنِيَةِ لَمْ يُعْرَفْ اِسْتِعْمَالُهُ إِلَّا فِي اليَدِ الحَقِيْقِيَةِ، وَلَمْ يَرِدْ قَطْ بِمَعْنَىٰ القُدْرَةِ أَوْ النِعْمَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ أَنْ يُقَالَ خَلَقَهُ اللهُ بِقُدْرَتَيْنِ أَوْ بِنِعْمَتَيْنِ، لِأَنَّ القُدْرَةَ وَالنِعْمَةَ اسْمُ جِنْسٍ لَكِنْ قَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي المَعْنَىٰ المَجَازِي إِذَا جَاءَتْ مُفْرَدَةً أَوْ مَجْمُوْعَةً، وَلَا تَأْتِي مُثَنَاةً كَمَا فِي قَوْلِكَ: لَهُ عِنْدِي أَيَادٍ، أَوْ لَهُ عِنْدِي يَدٌ يُجْزِيْهِ اللهُ بِهَا.[2]

٤- لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْيَدَيْنِ بِمَعْنَىٰ النِّعْمَةِ أَوْ القُدْرَةِ أَوْ غَيْرِهِمَا إِلَّا فِي حَقِ مَنْ اِتَصَفَ بِالْيَدَيْنِ عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ، وَلِذَلِكَ لَا يُقَالُ: لِلْرِيْحِ يَدٌ، وَلِلْمَاءِ يَدٌ[3].

٥- أَنَّ اطِرَادَ مَجِيءَ نِسْبَةِ اليَدِ للهِ مَعَ اقْتِرَانِ لَفْظِ الطَيِ وَالقَبْضِ وَالإِمْسَاكِ فَإِنَّهُ

---

(١) أخرجه الدارقطني في الصفات (٢٨) والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٢٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٥١٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

يَدُلُّ يَقِيْنًا عَلَىٰ إِرَادَةِ المَعْنَىٰ الحَقِيْقِي لِلْيَدِ.

٦- مِمَّا يَمْنَعُ حَمْلَ اليَدِ عَلَىٰ المَعْنَىٰ المَجَازِي مَا جَاءَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: « المُقْسِطُونَ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِيْنِ الرَحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِيْنٌ »[(١)] فَلَوْ كَانَ المَقْصُودُ المَعْنَىٰ المَجَازِيَ لَمْ يُسْتَعْمَلْ لَفْظُ اليَمِيْنِ[(٢)].

---

(١) أهل السنّة مجمعون علىٰ أنَّ إحدىٰ يدي الله يمين لكن هل توصف الأخرىٰ بالشمال؟ قولان:

- الإمام عثمان بن سعيد الدارمي وأبو يعلىٰ والفراء ومحمد بن عبدالوهاب والقنوجي والهرّاس والغنيمان أثبتوا هذا الوصف لليد الأخرىٰ.

- الإمام ابن خزيمة وأحمد والبيهقي والألباني قالوا: لا توصف الأخرىٰ بالشمال بل كلتا يديه يمين.

استدل الأولون بحديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: « يطوي الله عزّ وجلّ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهنّ بيده اليمنىٰ، ثم يقول: أنا الملك!! أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، .. » أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

وأجاب الآخرون بأنَّ لفظة (بشماله) شاذة، وقد تفرّد بها عمر بن حمزة بن عمر بن الخطاب عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: « إنَّ المقسطين عند الله علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين ».

(٢) احتج المعطّلة بأنّ اليد قد أفردت في بعض الآيات، وفي بعضها جاءت مثناة، وفي بعضها جاءت مجموعة كما في قوله تعالىٰ: ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا ﴾ [يس: ٧١]، وهذا لا دليل

وَقَولُهُ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾[1] [الطور: ٤٨]، ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣ - ١٤].

(١) هَذِهِ الآيَةُ وَالآيَتَانِ الأُخْرَيَانِ تَدُلَّانِ عَلَىٰ إِثْبَاتِ صِفَةِ العَيْنِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ خَبَرِيةٌ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ بِالسُّنَّةِ أَيْضاً كَمَا جَاءَ فِي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، فَوَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَىٰ أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيَهَا عَلَىٰ عَيْنِهِ[1].

فَلِلَّهِ عَيْنٌ يَرَىٰ بِهَا جَمِيْعَ المَرْئِيَاتِ وَهِيَ صِفَةٌ حَقِيْقِيَةٌ لَهُ عَلَىٰ مَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

وَالمُعَطِلَةُ يُأَوِلُوْنَهَا بِالرُؤيَةِ أَوْ بِالحِفْظِ وَالرِعَايَةِ، فَهُمْ يُثْبِتُونَ اللَّازِمَ وَلَا يُثْبِتُونَ الأَصْلَ.

وَالبَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ لَيْسَتْ لِلْظَرْفِيَةِ إِذَ لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَكَانَ ظَاهِرُ القُرْآنِ الكُفْرَ، وَهُوَ أَنَّ نَبِيَنَا ﷺ حَالٌ فِي عَيْنِ اللهِ!! تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ

فيه، فإنَّ ما يصنع بالاثنين قد يُنسب إلىٰ الواحد، وذلك لإرادة الجنس، تقول: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، والمراد عيناي وأذناي.

وكذلك الجمع يأتي بمعنىٰ المثنّىٰ أحيانًا، كقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: ٤]، والمراد قلباكما، لأنّ المثنّىٰ إذا أُضيف إلىٰ ضمير تثنية أو جمع جاز جمعه.

أما التثنية فهي نصٌّ في إرادة التثنية.

(١) أخرجه أبوداود (٤٧٢٨)، وصححه الألباني.

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي(١) وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طـه: ٣٩]. وقولـه: ﴿ قَدْ(٢) سَمِعَ(٣) ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١]..................

ذَلِكَ عُلُواً كَبِيْرا وَلَكِنَّهَا لِلْمُصَاحَبَةِ أَيْ إِذَا قُلْتَ: أَنْتَ بِعَيْنِي، يَعْنِي أنَّ عَيْنِي تَصْحَبُكَ وَتَنْظُرُ إِلَيْكَ لَا تَنْفَكُّ عَنْكَ.

(١) خِطَابٌ مِنْ اللهِ لِنَبِيهِ مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) نَزَلَتْ هَـذِهِ الآيَـةُ فِي شَأنِ خَوْلَـةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ حِيْنَ ظَاهَرَ مِنْهَا زَوْجَهَا، فَجَاءَتْ تَشْتَكِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَتُحَاوِرُهُ، وَهُوَ يَقُوْلُ لَهَا: « مَا أَرَاكِ إِلَّا قَد حَرُمْتِ عَلَيْهِ » جَاءَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: (الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ لَقَدْ جَاءَتْ المُجَادِلَةُ تَشْكُو إِلَىٰ الرَسُولِ ﷺ وَأَنَا فِي نَاحِيَةٍ مِنْ البَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾)(١).

(٣) الفِعْلُ سَمِعَ يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَ أَحَدُ أَرْبَعَةِ مَعَانٍ :

١ – سَمْعُ إِدْرَاكٍ وَمُتَعَلَّقَهُ الأَصْوَاتُ، وَهُنَا يُتَعَدىٰ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ التَهْدِيْدُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ

---

(١) أخرجه (٤٧٢٨)، وصححه الألباني.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[1] [طه: ٤٦]، ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠]، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].....

التَأْيِيدُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: لِمُوسَىٰ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الإِحَاطَةُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

٢- سَمْعُ فَهْمٍ وَعَقْلٍ، وَمُتَعَلَقَهُ المَعَانِي، وَيَتَعَدَّىٰ بِنَفْسِهِ أَيْضًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤] وَلَيْسَ المُرَادُ سَمْعَ مُجَرَدِ الكَلَامِ بَلْ الفَهْمَ وَالعَقْلَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

٣- سَمْعُ إِجَابَةٍ وَعَطَاءٍ وَهُنَا يَتَعَدَّىٰ بِاللَّامِ، وَمِنْهُ قَوْلُ المُصَلِّي: (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه).

٤- سَمْعُ قَبُولٍ وَانْقِيَادٍ وَهُنَا يَتَعْدَىٰ بِمَنْ وَبِاللّامِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١] أَيْ قَابِلُون لَه ومُنْقَادُونَ لَهُ عَلَىٰ أَصَحِ القَوْلَيْنِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

(١) الرُؤيَةُ المُضَافَةُ إِلَىٰ اللهِ لَهَا مَعْنَيَانِ:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[1] [الرعد: ١٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2] [آل عمران: ٥٤].....

١ - العِلْمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦ - ٧] فَالرُّؤْيَةُ هُنَا رُؤْيَةُ العِلْمِ لِأَنَّ اليَومَ لَيْسَ جِسْمًا يُرَىٰ.

٢ - رُؤْيَةُ المُبْصِرَاتِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨].

(١) أَيْ شَدِيْدُ الأَخْذِ بِالعُقُوبَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، قَالَ ابْنُ عَبَاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (مَعْنَاهُ شَدِيْدُ الحَوْلِ، وَقِيْلَ: هُوَ المَكْرُ.)

(٢) أَنْفَذُهُمْ وَأَسْرَعُهُمْ مَكْراً، وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ السَّلَفِ مَكْرَ اللهِ بِعِبَادِهِ بِأَنَّهُ اِسْتِدْرَاجُهُمْ بِالْنِعَمِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، فَكُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُمْ نِعْمَةً، وَفِي الحَدِيْثِ: « إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنْهُ الدُنْيا مَا يُحِبُ وَهُوَ مُقِيْمٌ عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ، فَاعْلَمْ أَنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُ اِسْتِدْرَاجٌ »[1].

وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي شَأْنِ عِيْسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِيْنَ أَرَادَ اليَهُودُ قَتْلَهُ، فَدَخَلَ بَيْتًا فِيْهِ كُوَّةٌ، وَقَدْ أَيَّدَهُ اللهُ بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَفَعَهُ إِلَىٰ السَمَاءِ مِنْ الكُوَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ يَهُوذَا لِيَدُلَّهُمْ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُوهُ، فَأَلْقَىٰ اللهُ شَبَهَ عِيْسَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ الخَائِنِ فَلَمَّا دَخَلَ البَيْتَ، لَمْ يَجْدْ فِيْهِ عِيْسَىٰ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: (مَا فِي

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٤٩)، والطبراني في الكبير (٩١٣)، وفي الأوسط (٩٢٧٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] [النمل: ٥٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[2] [الطارق: ١٥ - ١٦]

البَيْتِ أَحَدٌ فَقَتَلُوهُ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ عِيسَىٰ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾).

(١) هَذِهِ الآيَةُ فِي شَأْنِ الرَّهْطِ التِسْعَةِ مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ عليه السلام حِيْنَ ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩] أَيْ لِيَقْتُلُنَّهُ بَيَاتًا هُوَ وَأَهْلَهُ، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ [النمل: ٤٩] فَكَانَ عَاقِبَةُ هَذَا المَكْرِ مِنْهُمْ أَنْ مَكَرَ اللهُ بِهِمْ فَدَمَّرَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ.

(٢) فِي الآيَاتِ السَابِقَةِ إِثْبَاتُ صِفَتَي المَكْرِ وَالكَيْدِ، وَهُمَا مِنْ الصِفَاتِ الفِعْلِيَةِ الاِخْتِيَارِيَّةِ، وَالمَكْرُ هُوَ التَوَصُّلُ بِالأَسْبَابِ الخَفِيَّةِ إِلَىٰ الإِيْقَاعِ بِالخَصْمِ.

وَالمَكْرُ وَالكَيْدُ كُلٌ مِنْهُمَا قَدْ يَكُونُ فِي مَوْضِعِ صِفَةَ مَدْحٍ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ صِفَةَ ذَمٍّ، وَيَكُونُ صِفَةَ مَدْحٍ إِذَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ يَمْكُرُ بِكَ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّكَ أَقْوَىٰ مِنْهُ.

وَيَكُونُ صِفَةَ ذَمٍّ إِنْ كَانَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مُقَابَلَةٍ، وَيُسَمَّىٰ خِيَانَةً.

وَلِهَذَا لَمْ يُوْصَفْ اللهُ بِهِ وَصْفًا مُطْلَقًا وَإِنَّمَا مُقَيَّداً عَلَىٰ سَبِيْلِ المُقَابَلَةِ.

وَمَعَ إِثْبَاتِ هَاتَيْنِ الصِفَتَيْنِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَشْتَقَ لَهُ مِنْهُمَا اسْمٌ، فَيُقَالُ: مَاكِرٌ وَكَائِدٌ بَلْ يُوْقَفُ عِنْدَ مَا وَرَدَ بِهِ النَصُ مِنْ أَنَّهُ خَيْرُ المَاكِرِيْنَ، وَأَنَّهُ يَكِيْدُ لِأَعْدَائِهِ الكَافِرِيْنَ.

وَقَولُهُ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[1] [النساء: ١٤٩]، وَقَولُهُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[2]﴾[3] [النور: ٢٢].....

لِأَنَّ الفِعْلَ أَوْسَعُ مِنْ الاِسْمِ، وَلِهَذَا أَطْلَقَ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَفْعَالاً لَمْ يَتَسَمَّ مِنْهَا بِأَسْمَاءِ الفَاعِلِ كَأَرَادَ وَشَاءَ وَأَحْدَثَ وَلَمْ يُسَمَّ بِالمُرِيْدِ وَالشَائِي وَالمُحْدِثِ كَمَا لَمْ يُسَمِي نَفْسَهُ بِالصَانِعِ وَالفَاعِلِ وَالمُتْقِنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الأَسْمَاءِ الَّتِي أَطْلَقَ أَفْعَالَهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ، لأَنَّ [بَابَ الأَفْعَالِ أَوْسَعُ مِنْ بَابِ الصِفَاتِ]... وَلأَنَّ [بَابَ الإِخْبَارِ عَنْهُ بِالاِسْمِ أَوْسَعُ مِنْ بَابِ تَسْمِيَتِهِ بِهِ] فَإِنَّهُ يُخْبَرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ شَيءٌ مَوْجُودٌ وَمَذْكُوْرٌ وَمَعْلُومٌ وَمُرَادٌ وَلَا يُسَمَّىٰ بِذَلِكَ[1].

(١) لَمَّا كَانَ أَكْمَلُ العَفْوِ هُوَ مَا كَانَ عَنْ قُدْرَةٍ تَامَّةٍ عَلَىٰ الاِنْتِقَامِ وَالمُؤَاخَذَةِ، جَاءَ هَذَانِ الاِسْمَانِ الكَرِيْمَانِ العَفُوُ وَالقَدِيْرُ مُقْتَرِنَانِ فِي هَذِهِ الآيَةِ وَفِي غَيْرِهَا.

(٢) هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِيْنَ حَلَفَ أَنْ لَا يُنْفِقَ عَلَىٰ مِسْطِحِ بْنِ أُثَاثَةَ، وَكَانَ مِمَّنْ خَاضُوا فِي الإِفْكِ وَكَانَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتِ خَالَةَ أَبِي بَكْرٍ الصِدِّيْقِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ أَبُوبَكْرٍ: (وَاللهِ إِنِّي أُحِبُ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِيْ) وَوَصَلَ مِسْطَحَ.

(٣) فِي هَذِهِ الآيَاتِ إِثْبَاتُ صِفَاتِ العَفْوِ وَهِيَ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ بِالسُنَّةِ أَيْضاً كَمَا فِي

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤١٥).

وَقَولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [المنافقون: ٨].....

الدُّعَاءِ عَلَىٰ الجَنَازَةِ الثَابِتِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِيهِ: « اللُّهُمَّ اِغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ .. »[1]، وَالعَفْوُ اِسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ جَلَّ وَعَلَا، مَعْنَاهُ المُتَجَاوِزُ عَنْ عُقُوبَةِ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ تَابُوْا وَأَنَابُوْا.

(١) هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَي بن سَلُوْلٍ رَئِيْسِ المُنَافِقِيْنَ، كَانَ فِي غَزْوَةٍ مِنْ الغَزَوَاتِ قَدْ أَقْسَمَ لَيُخْرِجَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مِنْ المَدِيْنَةِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، يَقْصِدُ بِالأَعَزِّ نَفْسَهُ – قَبَّحَهُ اللهُ – وَأَصْحَابَهُ، وَيَقْصِدُ بِالأَذَلِّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ المُؤمِنِيْنَ، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ....﴾.

وَفِي هَذِهِ الآيَاتِ أَثْبَتَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ العِزَّةَ لَهُ وَلِرَسُوْلِهِ وَلِلْمُؤمِنِيْنَ، وَعِزَّةُ اللهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَصِفَاتُهُ جَلَّ وَعَلَا غَيْرَ مَخْلُوْقَةٍ، فَعِزَّتُهُ لَا يَعْقِبُهَا نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ وَأَمَّا عِزَّةُ غَيْرِهِ مَهْمَا كَانَت فَمَخْلُوْقَةً لِأَنَّ [الكَلَامَ عَلَىٰ الصِفَاتِ فَرْعٌ عَنْ الكَلَامِ فِي الذَاتِ فَصِفَاتُ غَيْرِ المَخْلُوقِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ وَصِفَاتُ المَخْلُوقِ مَخْلُوْقَةً] وَعِزَّةُ غَيْرِ اللهِ يَعْتَرِيْهَا النَقْصُ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وَهَذَا فِيْهِ بَيَانٌ لِلْقَاعِدَةِ

(١) أخرجه مسلم (٩٦٣).

وَقَولُهُ عَنْ إبْلِيس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] [ص: ٨٢]

العَامَةِ [أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ اِتِفَاقِ الاِسْمَيْنِ أَنْ يَتَمَاثَلَ المُسَمَيَان، وَلا مِنْ اِتِفَاقِ الصِفَتَيْنِ أنْ يَتَمَاثَلَ المَوْصُوفَان].

(١) وَهَذِهِ الآيَةُ وَالَّتِي قَبْلَهَا فِيْهَا إِثْبَاتٌ لِصِفَةِ الْعِزَّةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ بِالسُنَّةِ أَيْضاً كَمَا فِي حَدِيْثِ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُوْلُ: هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيْهَا قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ، وَيَزْوِيْ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ »[1].

وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالعَزِيْزُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَالعِزَّةُ فِي اللُغَةُ هِيَ القُوَّةُ وَالغَلَبَةُ وَالشِدَّةُ، تَقُولُ: عَزّ يَعِزُّ - بِكَسْرِ العَيْنِ - إِذَا صَارَ عَزِيْزاً مُمْتَنِعَ الجَنَابِ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ ضُرٌّ أَوْ يَلْحَقُهُ نَقْصٌ أَوْ عَيْبٌ.

وَعَزَّ يَعَزُ - بِفَتْحِ العَيْنِ - إِذَا اشْتَدَّ وَقَوِيَ.

وعزّ يعُزُّ - بِضَمِ العَيْنِ - إِذَا غَلَبَ وَقَهَرَ.

والعِزَةُ الَّتِي يَتَصِفُ اللهُ بِهَا عَلَىٰ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ:

١ - عِزَّةُ الإِمْتِنَاعِ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَنَالَهُ سُوْءٌ أَوْ نَقْصٌ.

٢ - عِزَّةُ القَهْرِ وَالغَلَبَةِ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ غَالِبٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ وَقَاهِرٌ لَهُ.

٣ - عِزَّةُ القُوَّةِ وَالقَدْرِ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ ذُوْ قُوَّةٍ وَقَدْرٍ لَا نَظِيْرَ وَلَا شَبِيْهَ لَهُ، وَهَذِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٣٦، رقم ٤٥٦٩)، ومسلم (٤/ ٢١٨٧، رقم ٢٨٤٦).

وَقَولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَبَٰرَكَ(١) ٱسْمُ رَبِّكَ .....

الثَلَاثَةُ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالعِزَّةُ المُضَافَةُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ:

١- عِزَّةٌ مُضَافَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَ إِضَافَةُ الصِفَةِ لِلْمَوصُوفِ كَمَا فِي الآيَاتِ التِي سَاقَهَا المُصَنِفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- عِزَّةٌ مُضَافَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ إِضَافَةُ المَخْلُوقِ لِلْخَالِقِ، وَهِيَ العِزَّةُ المَخْلُوْقَةُ الَّتِي يُعِزُّ بِهَا رُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الصَالِحينَ.

(١) قَالَ الحُسَيْنُ بْنُ الفَضْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (تَبَارَكَ فِي ذَاتِهِ، وَبَارَكَ فِيْمَنْ شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.)

وَالبَرَكَةُ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

١- بَرَكَةٌ هِيَ فِعْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَالفِعْلُ مِنْهُ بَارَكَ، وَيَتَعْدَىٰ بِنَفْسِهِ تَارَةً وَبِعَلَىٰ تَارَةً، وَبِفِيْ تَارَةً.

وَالمَفْعُولُ مِنْهَا مُبَارَكٌ وَهُوَ مَا جُعِلَ كَذَلِكَ فَكَانَ مُبَارَكًا بِجَعْلِهِ جَلَّ وَعَلَا.

٢- بَرَكَةٌ تُضَافُ إِلَيْهِ إِضَافَةُ الرَحْمَةِ وَالعِزَّةِ، وَالفِعْلُ مِنْهَا تَبَارَكَ، وَلِهَذَا لَا يُقَالُ لِغَيْرِ ذَلِكَ وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ سُبْحَانَهُ المُبَارِكُ، وَعَبْدُهُ وَرَسُولُهُ المُبَارَكُ، كَمَا قَالَ عِيْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] فَمَنْ بَارَكَ اللهُ فِيْهِ وَعَلَيْهِ فَهُوَ المُبَارَكُ.

وَأَمَّا صِفَتُهُ تَبَارَكَ فَمُخْتَصَّةٌ بِهِ تَعَالَىٰ كَمَا أَطْلَقَهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿تَبَرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ

ذِي ٱلْجَلَٰلِ(١) وَٱلْإِكْرَامِ ﴾(٢) [الرحمن: ٧٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ(٣) لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ(٤) لَهُۥ سَمِيًّا(٥) ﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا(٦) أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].....

ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١]، وَقَوْلِهِ: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

(١) صَاحِبُ الجَلَالِ وَالعَظَمَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الَّذِي لَا شَيْءَ أَجَلُّ وَلَا أَعْظَمُ مِنْهُ.

(٢) الَّذِي يُكْرَمُ وَيُنَزَّهُ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَقِيْلَ: الَّذِي يُكْرِمُ عِبَادَهُ الصَالِحِيْنَ بِأَنْوَاعِ الكَرَامَةِ فِي الدُنْيَا وَالآخِرَةِ.

(٣) قَوْلُهُ: ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ أَبْلَغُ مِن اِصْبِرْ، لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ المُعَانَاةِ فَالمَعْنَىٰ: اِصْبِرْ وَإِنْ شَقَّ عَلَيْكَ ذَلِكَ.

(٤) اِسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌ، مَعْنَاهُ النَفْيُ، أَيْ لَا تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًا. وَالقَاعِدَةُ: [أَنَّ الاِسْتِفْهَامَ إِذَا كَانَ بِمَعْنَىٰ النَفْيِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ مُشْرَبًا مَعْنَىٰ التَحَدِيْ] فَيَكُونُ المَعْنَىٰ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَخْبِرْنَا، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا؟

وَهَذَا النَفْيُ تَضَمَّنَ إِثْبَاتَ الكَمَالِ المُطْلَقِ للهِ.

(٥) نَظِيْراً اِسْتَحَقَّ مِثْلَ اسْمِهِ وَيُقَالُ: مُسَامِيًا يُسَامِيْهِ. وَهَذَا مَعْنَىٰ مَا يُرْوَىٰ عَنْ ابْنِ عَبَاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ مَثِيلاً أَوْ شَبِيْهًا.

(٦) الْكُفَءُ: المُكَافِئُ المُسَاوِي.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[١] [البقرة: ١٦٥]. وقَوْلُهُ تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ[٢] وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا[٣] ﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ[٤] لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١]، وقَوْلُهُ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ[٥] عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ١ - ٢] ....

---

(١) هَذِهِ الآيَةُ تَنْفِي عَنْهُ سُبْحَانَهُ النَظِيْرَ وَالشَبِيْهَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لِأَنَّ (أَحَدًا) نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَفْيِ فَتُفِيْدُ العُمُومَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَيْهَا.

(٢) أَيْ مِنْ الفَقْرِ وَالحَاجَةِ، فَاللهُ لَا يُوَالِي أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ مِنْ أَجْلِ ذِلَّةٍ وَحَاجَةٍ لَهُ.

(٣) أَمْرٌ مِنْ اللهِ لِنَبِيْنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يُعَظِّمَهُ تَعْظِيْماً وَيُنَزِهَهُ عَنْ كُلِّ صِفَةِ نَقْصٍ وَصَفَهُ بِهَا أَعْدَاؤُهُ مِنْ المُشْرِكِينَ.

(٤) التَسْبِيحُ هُوَ التَنْزِيْهُ وَالإِبْعَادُ عَنْ السُوءِ. وَلَا شَكَ أَنَّ كَلَّ مَنْ فِي السَمَوَاتِ والأَرْضِ تُسَبِحُ بِحَمْدِ رَبِهَا وَتَشْهَدُ لَهُ بِكَمَالِ العِلْمِ وَالقُدْرَةِ وَالعِزَّةِ وَالحِكْمَةِ وَالتَدْبِيْرِ وَالرَحْمَةِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

(٥) المُرَادُ بِهِ القُرْآنُ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِقُوَةِ تَفْرِقِهِ بَيْنَ الحَقِ وَالبَاطِلِ، وَالهُدَىٰ وَالظَلَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ (١) وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢].....

(١) تَوْضِيْحُ هَذَا الدَلِيْلُ أَنْ يُقَالَ: إِذَا تَعَدَّدَتْ الآلِهَةُ، فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ لِكُلٍ مِنْهُمْ خَلْقٌ وَفِعْلٌ، وَلَا سَبِيْلَ إِلَىٰ التَعَاوُنِ فِيْمَا بَيْنَهُم، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الاِخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ ضَرُورِيٌ كَمَا أَنَّ التَعَاوُنَ بَيْنَهُمْ فِي الخَلْقِ يَقْتَضِي عَجْزَ كُلٍ مِنْهُمْ عِنْدَ الاِنْفِرَادِ، وَالعَاجِزُ لَا يَصْلُحُ إِلَهاً، فَلَابُدَّ أَنْ يَسْتَقِلَّ كُلٌ مِنْهُمْ بِخَلْقِهِ وَفِعْلِهِ، وَحِيْنَئِذٍ فَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا مُتَكَافِئَيْنِ فِي القُدْرَةِ، لَا يَسْتَطِيْعُ كُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَقْهَرَ الآخَرِيْنَ أَوْ يَغْلِبَهُمْ، فَيَذْهَبَ كُلٌ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقَ، وَيَخْتَصُ بِمُلْكِهِ، كَمَا يَفْعَلُ مُلُوكُ الدُنْيَا مِنْ اِنْفِرَادِ كُلِ وَاحِدٍ بِمَمْلَكَتِهِ إِذَا لَمْ يَجِدْ سَبِيْلاً لِقَهْرِ الآخَرِيْنَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُوْنَ أَحَدُهُمْ أَقْوَىٰ مِنْ الآخَرِيْنَ فَيَغْلِبَهُمْ وَيَقْهَرَهُمْ وَيَنْفَرِدَ دُوْنَهُمْ بِالخَلْقِ وَالتَدْبِيْرِ، فَلَابُدَّ إِذاً مِنْ تَعَدُدِ الآلِهَةِ مِنْ أَحَدِ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ: إِمَّا ذَهَابُ كُلٌ بِمَا خَلَقَ أَوْ عُلُوُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَذَهَابُ كُلٍ بِمَا خَلَقَ غَيْرُ وَاقِعٍ، لِأَنَّهُ يَقْتَضِي التَنَافُرَ وَالاِنْفِصَالَ بَيْنَ أَجْزَاءِ العَالَمِ مَعَ أَنَّ المُشَاهَدَةَ تُثْبِتُ أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ كَجِسْمٍ وَاحِدٍ مُتَرَابِطِ الأَجْزَاءِ مُتَّسِقِ الأَنْحَاءِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا أَثَراً لِإِلَهٍ وَاحِدٍ.

وَعُلُوُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَقْتَضِي أَنْ يَكُوَن الإِلَهُ هُوَ العَالِي وَحْدَهُ دُونَ مَنْ سِوَاهُ.

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٤]، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] [الأعراف: ٣٣]. **وَقَوْلُهُ:** ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ **(فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ: فِيْ سُوْرَةِ الأَعْرَافِ:** ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، **وَقَالَ فِيْ سُوْرَةِ يُوْنُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:** ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾ [يونس: ٣] **وَقَالَ فِيْ سُوْرَةِ طه:** ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، **وَقَالَ فِيْ سُوْرَةِ الفُرْقَانِ:** ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾ [الفرقان: ٥٩]، **وَقَالَ فِيْ سُوْرَةِ السَّجْدَةِ:** ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾ [السجدة: ٤]، **وَفِيْ سُوْرَةِ الحَدِيْدِ:** ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾[2] [الحديد: ٤].....

---

(١) القَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ بَابٌ وَاسِعٌ جِدّاً يَدْخُلُ فِيْهِ كُلُّ خَبَرٍ عَنْ اللهِ بِلَا دَلِيْلٍ وَلَا حُجَّةٍ، كَنَفْيِ مَا أَثْبَتَهُ، أَوْ إِثْبَاتِ مَا نَفَاهُ، أَوْ الإِلْحَادِ فِي آيَاتِهِ بِالتَحْرِيْفِ وَالتَأْوِيْلِ.

(٢) هَذِهِ الآيَاتُ فِيْهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ الاِسْتِوَاءِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ صِفَةٌ خَبَرِيَّةٌ

فِعْلِيَةٌ، ثَابِتَةٌ بِالسُنَّةِ أَيْضاً كَمَا جَاءَ فِيْ حَدِيْثِ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ فَقَالَ: « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّ اللهَ خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِيْ سِتَةِ أَيَامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ .... »[1].

وَالاِسْتِوَاءُ يَأْتِي عَلَىٰ عِدَّةِ مَعَانٍ وَهِيَ: الْعُلُوُ وَالاِرْتِفَاعُ وَالاِسْتِقْرَارُ وَالصُعُودُ.

وَلَفْظُ الاِسْتِوَاءِ فِي كَلَامِ العَرَبِ نَوْعَانِ:

الأَوَّلُ: مُطْلَقٌ لَمْ يُعَدَّ بِشَيءٍ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أَيْ كَمُلَ وَتَمَّ، وَيُقَالُ: اسْتَوَىٰ النَبَاتُ وَاسْتَوَىٰ الطَعَامُ.

الثَانِي: مُقَيَّدٌ وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ أَضْرُبٍ:

١ - مُقَيَّدٌ بِإِلَىٰ كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩، فصلت: ١١] وَاسْتَوَىٰ فُلَانٌ إِلَىٰ السَطْحِ وَإِلَىٰ الغُرْفَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ هَذَا المُعَدَّىٰ بِإِلَىٰ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ فِيْ سُوْرَةِ البَقَرَةِ فِيْ قَوْلِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، وَالثَانِي فِيْ سُوْرَةِ فُصِّلَتْ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وَهَذَا بِمَعْنَىٰ العُلُوِ وَالاِرْتِفَاعِ بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ.

---

(١) أخرجه النسائي (١١٣٩٢)

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ ﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧]

٢- مُقَيَّدٌ بِعَلَىٰ كَقَوْلِهِ: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف: ١٣]، وَقَولِهِ: ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ ﴾ [هود: ٤٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٩] وَهَذَا مَعْنَاهُ الْعُلُوُّ وَالارْتِفَاعُ وَالاِعْتِدَالُ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ اللُّغَةِ.

٣- مَقْرُونٌ بِوَاوِ مَعَ الَّتِي تُعَدِّي الفِعْلَ إِلَىٰ المَفْعُولِ مَعَهُ نَحْوَ (اسْتَوَىٰ المَاءُ وَالخَشَبَةَ) بِمَعْنَىٰ سَاوَاهَا(١).

وَالآيَاتُ الَّتِي سَاقَهَا المُصَنِفُ رَحِمَهُ اللَّهُ صَرِيْحَةٌ فِي بَابِهَا، لَا تَحْتَمِلُ تَأْوِيْلاً، لِأَنَّهَا عُدِّيَتْ بِعَلَىٰ لِهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ إِلَّا العُلُوُّ وَالارتِفَاعُ فَأَهْلُ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْسِهِ مِنْ أَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ، بَائِنٌ عَنْ خَلْقِهِ بِالْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا هُوَ جَلَّ شَأْنُهُ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرُهُ: الاِسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالسُؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ(٢).

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٤٨٨).

(٢) وخالف في ذلك الجهميّة فأنكروا استواء الله على عرشه، وأوّلوا استوىٰ باستولىٰ واحتجّوا بقول القائل:

استوىٰ بشر علىٰ العراق من غير سيف ولا دم مهراق

وفسَّروا العرش بالملك.

والجواب علىٰ ذلك من وجوه:

١- أنَّ هذا التفسير للاستواء لم يقل به أهل اللّغة المتقدمين، وإنّما قال به متأخري النّحاة ممن سلك طريق الجهميّة والمعتزلة. وأهل اللّغة لمّا سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار حتىٰ قال ابن الأعرابي – وهو من كبار أهل اللّغة – وقد سُئِلَ: هل يصح أن يكون استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ؟ فقال: لا تعرف العرب ذلك.

وقال الخطابي في كتابه (شعار الدين): وزعم بعضهم أنّ الاستواء ها هنا بمعنىٰ الاستيلاء، ونزع فيه إلىٰ بيت مجهول لم يقله شاعر معروف يصح الاحتجاج بقوله.

٢- لو كان الاستواء ها هنا بمعنىٰ الاستيلاء لكان الكلام عديم الفائدة، لأنّ الله قد أحاط علمه وقدرته كل شيء.

٣- أنَّ هذا التفسير لآيات الاستواء لم يقل به صحابي ولا تابعي ولا إمام من أئمة الدين.

٤- أنّه يلزم من هذا التفسير لوازم باطلة، منها أنَّ هناك من كان ينازع الرّب عرشه.

٥- وعلىٰ فرض صحة هذا البيت، فإنّنا نقول: إنَّ الاستواء هنا بمعنىٰ علا وارتفع علىٰ سرير ملك العراق. لأنَّ بشراً هذا كان أخـًا لعبدالملك بن مروان، وكان أميراً علىٰ العراق.

وأما تفسير العرش بالمُلْك، فهو تفسير باطل من وجهين:

١- أنَّ الله وصف العرش بأنَّه يحمل يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧]. وهل المُلْك يُحمَل ؟!!

٢- قال النّبي ﷺ في موسىٰ عليه السلام: « فأكون أوّل من أفيق فإذا بموسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش »، أخرجه البخاري ومسلم.

وهل للمُلْك قوائم تُمسك؟!!

وَقَولُهُ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾(١)(٢) [الملك: ١٦ – ١٧]

(١) هَذِهِ الآيَاتُ فِيْهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ العُلُوِ للهِ عَزَّ وَجَل، وَهِيَ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ بِالكِتَابِ وَالسُنَّةِ أَيْضاً كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: « آلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِيْنُ مَنْ فِي السَمَاءِ ».

وَمِنْ أَسْمَائِه جَلَّ وَعَلا: العَلَي وَالأَعْلَىٰ وَالمُتَعَالِ.

وَالعُلُوُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنواعٍ:

١ – عُلُوِ الذَاتِ، وَكَوْنُهُ فَوْقَ كُلِّ المَخْلُوقَاتِ مُسْتوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ(١).

٢ – عُلُوِ القَدْرِ، لِأَنَّ كُلَّ صِفَةِ كَمَالٍ لَا نَقْصَ فِيْهَا بِأَيِّ وَجْهٍ مِنْ الوجُوهِ هِيَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ(٢).

٣ – عُلُوِ القَهْرِ، لِأَنَّهُ هُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ العَلِيْمُ الخَبِيْرُ.

وَهَذِهِ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي لَهُ العُلُوُ المُطْلَقُ مِنْ جَمِيْعِ الوُجُوهِ.

(٢) وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَنَّ السَمَاءَ ظَرْفٌ لَهُ سُبْحَانَهُ، بَلْ إِنْ أُرِيْدَ بِالسَمَاءِ هَذِهِ المَعْرُوفَةِ، فَحَرْفُ فِي هُنَا بِمَعْنَىٰ عَلَىٰ كَمَا يَقُولُ

---

(١) وهذا النوع هو الذي فيه الخلاف بين أهل السنّة والجماعة والجهمية.

وعلو الذات قد يطلق ويراد به (علو ذاتي عام) وهو ثابت لله عز وجل علىٰ جميع مخلوقاته قبل خلق الخلق. وقد يطلق ويراد به (علو ذاتي خاص) وهو الاستواء علىٰ العرش، وهو علو خاص علىٰ بالعرش.

(٢) هذا النوع والذي بعده اتفق أهل السنة والجماعة وغيرهم علىٰ إثباته.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١) [الحديد: ٤] وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢) [المجادلة: ٧].......

تَعَالَىٰ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا جَهَةُ العُلُوِّ، فَحرفُ فِيْ هُنَا عَلَىٰ حَقِيْقَتِهَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ فِي أَعْلَىٰ العُلُوِّ.

(١) فِي هَذِهِ الآيَةِ يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ هُوَ وَحْدُهُ الَّذِي خَلَقَ السَمَوَاتِ وَالأرض فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُّمَ عَلَا بَعْدَ ذَلِكَ وَارْتَفَعَ عَلَىٰ عَرْشِهِ لِتَدْبِيرِ أُمُورِ خَلْقِهِ. وَهُوَ مَعَكُمْ كَوْنُهُ فَوْقَ عَرْشِهِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيءٌ مِنْ العَالَمَيْنِ العُلْوِي وَالسُفْلِي، فَهُوَ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ أَيْ يَدْخُلُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أَيْ يَصْعَدُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ كَانَ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ مُحِيْطِيْنَ بِجَمِيْعِ الأَشْيَاءِ، فَهُوَ مَعَ كُلِّ شَيءٍ، لِذَلِكَ قَالَ تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. فَهَذِهِ الآيَةُ دَلِيْلٌ عَلَىٰ مَعِيَّةِ اللهِ لِجَمِيْعِ خَلْقِهِ. وَالعُمُومُ وَالشُمُولُ لِلْمَعِيَّةِ مِنْ جِهَتَيْنِ:

١- مِنْ جِهَةِ الأَمْكِنَةِ وَذَلِكَ فِي قَوِلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

٢- مِنْ جِهَةِ الخَلْقِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾.

(٢) فِي هَذِهِ الآيَةِ يُثْبِتُ سُبْحَانَهُ شُمُولَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ بِجَمِيْعِ الأَشْيَاءِ، وَأَنَّهُ

لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ نَجْوَىٰ المُتَنَاجِيْنَ، وَأَنَّهُ شَهِيْدٌ عَلَىٰ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا، مُطَلِعٌ عَلَيْهَا. وَمَعِيَّةُ اللهِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

١- مَعِيَّةٌ عَامَّةٌ: شَامِلَةٌ لِكُلِّ المَخْلُوقَاتِ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ كُلِّ شَيءٍ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَقَهْرِهِ وَإِحَاطَتِهِ لَا يَغِيْبُ عَنْهُ شَيءٌ وَقَدْ فَسَّرَ السَّلَفُ المَعِيَّةَ العَامَّةَ بِالعِلْمِ لِأَجْلِ مَا قَامَ بِالاِضْطِرَارِ مِنْ أَنَّ اللهَ لَيْسَ مَعَ خَلْقِهِ بِذَاتِهِ بَلْ هُوَ عَالٍ عَلَىٰ خَلْقِهِ بَائِنٌ مِنْهُمْ.

٢- مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ: وَهِيَ مَعِيَّةُ اللهِ لِرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِالنَصْرِ وَالتَأْيِيدِ وَالمَحَبَّهِ وَالتَوْفِيْقِ وَالإِلْهَامِ.

وَإِثْبَاتُ مَعِيَّةِ اللهِ لِخَلْقِهِ لَا يَلْزَمُ مِنْهَا المُخَالَطَةُ لِلْخَلْقِ، فَإِنَّ (مَعَ) فِي اللُّغَةِ تَدُلُّ عَلَىٰ مُطْلَقِ المُصَاحَبَةِ وَالاِقْتِرَانِ، وَقَدْ تَكُونُ المُقَارَنَةُ وَالمُصَاحَبَةُ فِي المَعَانِي، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] أَيْ مُقَارِنِيْنَ لَهُمْ وَمُصَاحِبِيْنَهُمْ فِي صِفَةِ الصِدْقِ لَيْسَ المُرَادُ بِذَوَاتِهِمْ. وَمِنْهُ قَوْلُ: فُلَانٌ مَعَ زَوْجَتِهِ أَيْ لَمْ يُطَلِقْهَا.

- وَقَدْ تَكُونُ المُقَارَنَةُ وَالمُصَاحَبَةُ فِي الذَوَاتِ مَعَ الاِخْتِلَاطِ وَالتَقَارُبِ، مِثَالُهُ جَاءَ زَيْدٌ وَعَمْروٌ مَعًا.

- وَقَدْ تَكُونُ لِلْذَوَاتِ وَكُلِّ ذَاتٍ بَعِيْدَةٍ عَنْ الْذَاتِ الأُخْرَىٰ مِثَالُهُ: سِرْنَا وَالقَمَرُ مَعَنَا.

وَمَعِيَّةُ اللهِ تَحْتَمِلُ المَعْنَىٰ الأَوْلَ إِذَا فَسَرْنَاهَا بِالعِلْمِ وَتَحْتَمِلُ المَعْنَىٰ

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(١) [التوبة: ٤٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(٢) [طه: ٤٦].....

الثَالِثَ أيضًا. وَلَا تَحْتَمِلُ المَعْنَىٰ الثَانِيَ لِأَنَّ أَدِلَّةَ عُلُوِ اللهِ وَاسْتِوَائِهِ تَنْفِي مُخَالَطَتَهُ لَهُمْ، وَلِأَنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عَنْ مُخَالَطَةِ الخَلْقِ.

هَلْ مَعِيَّةُ اللهِ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ أَمْ فِعْلِيَةٌ ؟

فِيْهِ تَفْصِيْلٌ:

- المَعِيَةُ العَامَةُ، صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ، لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُحِيْطًا بِالخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ المَعَانِي.

- المَعِيَةُ الخَاصَةُ صِفَةٌ فِعْلِيَةٌ لِأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِمَشِئَتِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَ[كُلُّ صِفَةٍ مَقْرُوْنَةٍ بِسَبَبٍ هِيَ مِنْ الصِفَاتِ الفِعْلِيَةِ]. فَإِذَا وُجِدَتْ أَسْبَابُ المَعِيَةِ الخَاصَةِ كَانَ اللهُ مَعَ هَذَا الشَخْصِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

(١) قَالَهَا النَّبِي ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ الصِدِيْقِ وَهُمَا فِي الغَارِ، فَقَدْ أَحَاطَ المُشْرِكُونَ بِفَمِ الغَارِ عِنْدَمَا خَرَجُوا فِي طَلَبِهِ عليه السلام، فَلَمَّا رَأَىٰ أَبُوبَكْرٍ ذَلِكَ انْزَعَجَ، وَقَالَ: (وَاللهُ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمِهِ لَأَبْصَرَنَا).

فَالمُرَادُ بِالمَعِيَّةِ هُنَا النَصْرُ وَالعِصْمَةُ مِنْ الأَعْدَاءِ.

(٢) خِطَابٌ مِنْ اللهِ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ عليهما السلام أَنْ لَا يَخَافَا بَطْشَ فِرْعَوْنَ بِهِمَا، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُمَا بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيْدِهِ.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ[1] ﴾ [المائدة: ١١٦].....

(١) هَذِهِ الآيَاتُ وَغَيْرُهَا فِيْهَا إِثْبَاتُ صِفَةِ الكَلَامِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ بِالْسُنَّةِ أَيْضًا كَمَا فِي حَدِيْثِ أَبِي سَعِيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: « إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُوْلُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَقُوْلُونَ: لَبَيْكَ رَبَنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُوْلُ: هَلْ أَنْتُمْ رَضِيْتُمْ ؟ ... »[1].

وَهُوَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ وَفِعْلِيَةٌ، ذَاتِيَةٌ بِاعْتِبَارِ أَصْلِهِ، وَفِعْلِيَةٌ بِاعْتِبَارِ آحَادِهِ.

وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِمًا إِذَا شَاءَ، وَأَنَّ الكَلَامَ صِفَةٌ لَهُ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، يَتَكَلَّمُ بِهَا بِمَشِيْئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]. وَقَالَ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَكَلِمًا إِذَا شَاءَ وَمَا تَكَلَّمَ اللهُ بِهِ فَهُوَ قَائِمٌ بِهِ

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا (١) ﴾ [الأنعام: ١١٥]..................

لَيْسَ مَخْلُوْقاً مُنْفَصِلاً عَنْهُ(١)، وَلَا لَازِماً لِذَاتِهِ لُزُوْمَ الحَيَاةِ لَهَا بَلْ هُوَ تَابِعٌ لِمَشِيْئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ(٢).

وَاللهُ سُبْحَانَهُ نَادَىٰ مُوْسَىٰ بِصَوْتٍ، وَنَادَىٰ آدَمَ بِصَوتٍ، وَيُنَادِي عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَوْتٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِالْوَحْيِ بِصَوْتٍ، وَالحُرُوفُ وَالأَصْوَاتُ الَّتِي تَكَلَّمَ اللهُ بِهَا صِفَةٌ لَهُ غَيْرُ مَخْلُوْقَةٍ وَلَا تُشْبِهُ أَصْوَاتَ المَخْلُوقِيْنَ وَحُرُوفَهُمْ، كَمَا أَنَّ عِلْمَ اللهِ القَائِمَ بِذَاتِهِ لَيْسَ مِثْلَ عِلْمِ عِبَادِهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُمَاثِلُ المَخْلُوْقِيْنَ فِي شَيءٍ مِنْ صِفَاتِهِ.

(١) صِدْقاً فِي أَخْبَارِهِ، وَعَدْلاً فِي أَحْكَامِهِ.

---

(١) وهو مذهب المعتزلة وقالوا: إنَّ معنىٰ متكلم: خالق للكلام. وقولهم هذا فرع للأصل الباطل الذي أصّلوه، وهو [أنّه لا يقوم بالله وصف ولا فعل].

(٢) لا يتعلق بمشيئته وقدرته، وهو مذهب الأشاعرة، ونفوا عنه الحرف والصوت، وقالوا: إنّها حكاية له دالّة عليه، وهي مخلوقة، وهي أربع معانٍ في نفسه الأمر والنهي والخبر والاستفهام، فهي أنواع لذلك المعنىٰ القديم الذي لا يسمع، وذلك المعنىٰ هو المتلو المقروء وهو غير مخلوق. والأصوات والحروف هي تلاوة العباد وهي مخلوقة.

وبنوا هذا القول علىٰ أنَّ الكلام لابدَّ أن يقوم بالمتكلم، والحروف والأصوات حادثة فلا يمكن أن تقوم بذات الرَّب تعالىٰ لأنّه [ليس محلاً للحوادث] فهي مخلوقة منفصلة عن الرّب، والقرآن اسم ذلك المعنىٰ وهو غير مخلوق.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١)﴾ [النساء: ١٦٤]. ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ (٢)﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣)﴾ [القصص: ٦٥] ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].....

---

(١) تَأْكِيْدُ التَكْلِيْمِ بِالمَصْدَرِ تَكْلِيْمًا يَرْفَعُ مَا تَوَهَمَهُ المُعَطِلَةُ وَالجَهْمِيَّةُ وَالمُعْتَزِلَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَنَّ المُرَادَ بِكَلَامِ اللهِ الإِلهَامَ أَوْ الإِشَارَةَ أَوْ المَعْنَىٰ النَفْسِي وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ المَعَانِي المَجَازِيَةِ، قَالَ الفَرَاءُ: العَرَبُ تُسَمِّي مَا يُوْصَلُ إِلَىٰ الإِنْسَانِ كَلَامًا بِأَيِّ طَرِيْقٍ وَصَلَ، فَإِذَا حَقَّقَتَهُ بِالمَصْدَرِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا حَقِيْقَةَ الكَلَامِ(١).

(٢) دَلَّتْ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ الكَلَامَ تَعَلَّقَ بِمَشِيْئَتِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الكَلَامَ صَارَ حِيْنَ المَجِيءِ لَا سَابِقًا عَلَيْهِ.

(٣) هَذِهِ الآيَاتُ فِيْهَا إِثْبَاتُ النِدَاءِ، وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للهراس (١٥٠).

﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ [الفتح: ١٥]، ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦]، ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢، ١٥٥]، ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ(١) ﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣]..

(١) هَـذِهِ الآيَـاتُ تُفِيْـدُ أَنَّ القُـرْآنَ المَتْلُـو المَسْـمُوعُ المَكْتُـوبُ بَـيْنَ دِفَّتَـي المُصْحَفِ كَلَامُ اللهِ عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ مُنَزَّلٌ(١)، وَغَيْرُ مَخْلُوقٍ(٢)، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ

---

(١) كما قال تعالىٰ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾، وقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾.

(٢) والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والعطف بالواو يقتضي

يَعُوْدُ وَاللهُ تَكَلَّمَ بِهِ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ فَهُوَ كَلَامُهُ لَا كَلَامَ غَيْرِهِ، وَإِذَا قَرَأَ النَّاسُ القُرْآنَ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المَصَاحِفِ لَمْ يُخْرِجْهُ ذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللهِ، فَإِنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيْقَةً إِلَىٰ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَىٰ مَنْ بَلَّغَهُ مُؤَدِيًا، وَاللهُ تَكَلَّمَ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيْهِ بِلَفْظِ نَفْسِهِ لَيْسَ شَيءٌ مِنْهُ كَلَامًا لِغَيْرِهِ، لَا لِجِبْرِيْلَ عليه السلام، وَلَا لِمُحَمَدٍ ﷺ، وَلَا لِغَيْرِهِ، وَاللهُ تَكَلَّمَ بِهِ أَيْضًا بِصَوْتٍ فَإِذَا قَرَأَهُ العِبَادُ قَرَؤوهُ بِصَوْتِ أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا قَالَ القَارِئُ مَثَلاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،

المغايرة فالخلق غير الأمر. والقرآن من الأمر كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢].

والقائلون بخلق القرآن هم المعتزلة، واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الرعد: ١٦]، قالوا: والقرآن شيء فيدخل في عموم كل فيكون مخلوقًا.

واستدلالهم هذا باطل، وهم أوّل من أبطله ونقضه بقولهم: إنّ أفعال العباد غير مخلوقة لله، وإنَّما العباد هم الذين يخلقونها !!

وكذلك يلزمهم أن يقولوا: إنَّ ذات الله مخلوقة !! لأنّ الله سمىٰ نفسه شيئًا فقال: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وكذلك عموم كل في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرآئن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٢٣] المراد من كلِّ شيء يحتاج إليه الملوك. والمراد بقوله: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] أي كل شيء مخلوق وموجود سوىٰ الله فهو مخلوق. فيدخل في هذا العموم أفعال العباد حتمًا، ولم يدخل في العموم الخالق تعالىٰ وصفاته.

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(١)﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢)﴾ [المطففين: ٢٣، ٣٥]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].....

كَانَ هَذَا الكَلَامُ المَسْمُوعُ مِنْهُ كَلَامَ اللهِ، لَا كَلَامَ نَفْسِهِ، وَكَانَ مَنْ قَرَأَهُ بِصَوْتِ نَفْسِهِ لَا بِصَوتِ اللهِ.

(١) وَإِضَافَةُ النَظَرِ إِلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي هُوَ مَحِلّهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ وَتَعْدِيَتِهُ بِأَدَاةِ (إِلَىٰ) الصَرِيْحَةِ فِي نَظَرِ العَيْن، وَإِخْلَاءُ الكَلَامِ مِنْ قَرِيْنَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ خِلَافِ مَوضُوعِهِ وَحَقِيْقَتِهِ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ المُرَادَ النَظَرَ بِالعَيْنِ الَّتِي فِي الوَجْهِ إِلَىٰ الرَّبِ جَلَّ جَلَالُهُ. وَذَلِكَ أَنَّ النَظَرَ لَهُ عِدَّةُ اِسْتِعْمَالَاتٍ بِحَسَبِ صِلَاتِهِ وَتَعْدِيَتِهِ:

١ - إِنْ عُدِّيَ بِنَفْسِهِ فَمَعْنَاهُ التَوَقُفُ وَالاِنْتِظَارُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

٢ - إِنْ عُدِّيَ بِفِي فَمَعْنَاهُ التَفَكُرُ وَالاِعْتِبَارُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

٣- إِنْ عُدِّيَ بِإِلَىٰ فَمَعْنَاهَا المُعَايَنَةُ بِالأَبْصَارِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

(٢) هَذِهِ الآيَةُ فِي بَيَانِ أَنَّ مِنْ نَعِيْمِ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِهِمْ وَهُمْ عَلَىٰ الأَرَائِكِ.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(١)﴾ [ق: ٣٥]، وَهَذَا البَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيْرٌ مَنْ تَدَبّرَ القُرْآنَ طَلَباً لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيّنَ لَهُ طَرِيْقَ الحَقِ...

(١) جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الزِيَادَةِ بِأَنَّهَا النَظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « ...فَيُكْشَفُ الحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَظَرِ إِلَىٰ رَبِهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ تَلَىٰ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ »(١)(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٠).

(٢) وقد نفت المعتزلة رؤية الله بناء علىٰ نفيهم الجهة عن الله، ولأنّ المرئي يجب أن يكون في جهة من الرائي، وما دامت الجهة مستحيلة، وهي شرط الرؤية، فالرؤية كذلك مستحيلة.

واحتجّوا علىٰ نفيهم هذا بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقول موسىٰ عليه السلام حين سأل الرؤية: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والآية الأولىٰ لا حجّة لهم فيها، لأنّ نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية، فالمراد أنَّ الأبصار تراه لكن لا تحيط به رؤية، كما أنَّ العقول تعلمه ولكن لا تحيط به علما، لأنّ الإدراك هو الرؤية علىٰ جهة الإحاطة، فهو رؤية خاصّة، ونفي الخاص لا يستلزم نفي مطلق الرؤية.

وأما الآية الثانية لا يصلح الاستدلال بها، بل الآية تدلّ علىٰ الرؤية من وجوهٍ كثيرةٍ، منها:

١- وقوع السؤال من موسىٰ، وهو رسول الله وكليمه، وهو أعلم بما يستحيل في حق الله من هؤلاء المعتزلة، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها.

٢- أنّ الله عزّ وجلّ علَّق الرؤية علىٰ استقرار الجبل حال التجلِّي، وهو ممكنٌ، والمعلَّق علىٰ الممكن ممكنٌ.

٣-أنَّ الله تجلَّىٰ للجبل بالفعل، وهو جمادٌ، فلا يمتنع إذاً أن يتجلّىٰ لأهل محبته وأصفيائه. ومعنىٰ قوله: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ لن تستطيع رؤيتي في الدنيا، لضعف قوىٰ البشر فيها عن رؤيته سبحانه، ولو كانت الرؤية ممتنعة لذاتها، لقال: إنّي لا أُرىٰ، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي .. ونحو ذلك. والله أعلم. انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس (١٥٧).

وأمّا الأشاعرة، فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة فإنّهم يثبتون الرؤية لكنّهم يقولون: رؤية بالبصيرة لا بالبصر.

فَصْـــلٌ

ثُمّ فِي سُنّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١)، فَالسُنّةُ تُفَسّـرُ القُـرْآنَ وَتُبَيّنَـهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبّرَ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَسُولُ بِهِ رَبّهُ عَـزّ وَجَـلّ مِـنْ الأَحَادِيْثِ الصِحَاحِ الّتِي تَلَقَاهَا أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِالقَبُولِ، وَجَبَ الإِيْمَـانُ بِهَا كَذَلِكَ.....

(١) عَطْفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ فَيْمَا تَقَدَّمَ: وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُوْرَةِ الإِخْلَاصِ ..، يَعْنِي: وَدَخَلَ فَيْهَا مَا وَصَفَ بِهِ الرَسُولُ ﷺ رَبَّهُ فِيْمَا وَرَدَتْ بِهِ السُنَّةُ الصَحِيْحَةُ.

وَالسُنَّةُ هِيَ الأَصْلُ الثَانِي الَّذِيْ يَجِبُ الرُجُوْعُ إِلَيْهِ، وَالتَعْوِيْلُ عَلَيْهِ بَعْدَ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وَالْمُرادُ بِالحِكْمَةِ: السُنَّةُ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وَقَالَ آمِراً لِنِسَاءِ نَبِيِّهِ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وَقَالَ ﷺ: « أَلَا إِنِّي أُوْتِيْتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ».

وَحُكْمُ السُنَّةِ حُكْمُ القُرْآنِ فِي ثُبُوتِ العِلْمِ وَاليَقِيْنِ وَالاِعْتِقَادِ وَالعَمَلِ، فَإِنَّ السُنَّةَ تُبَيّنُ القُرْآنَ وَتُفَصِّلُ مُجْمَلَهُ، وَتُقَيّدُ مُطْلَقَهُ، وَتُخَصِصَ عُمُوْمَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وَأَهْلُ البِدَعِ وَالأَهْوَاءِ بِإِزَاءِ السُنَّةِ الصَحِيْحَةِ فَرِيْقَانِ:

١ - فَرِيْقٌ لَا يَتَورَّعُ عَنْ رَدِّهَا وَإِنْكَارِهَا إِذَا وَرَدَتْ بِمَا يُخَالِفُ مَذْهَبَهُ، بِدَعْوَىٰ إِنَّهَا أَحَادِيْثُ آحَادٍ لَا تُفِيْدُ إِلَّا الظَنَّ، وَالوَاجِبُ فِي بَابِ الاِعْتِقَادِ هُوَ اليَقِيْنُ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ المُعْتَزِلَةُ وَالفَلاسِفَةُ[١].

وَأَوَّلُ مَنْ اِبْتَدَعَ هَذِهِ المَقُوْلَةَ بِشْرٌ المِرِيسِي، وَقِيْلَ: الأَصَمُ وَابْنُ عُلَيَّة وَذَلِكَ لِرَدِ أَحَادِيْثِ الصِفَاتِ. وَقَالَ الخَطِيْبُ البَغْدَادِيُ: "إِنَّمَا ذَكَرَ خَبَرَ الآحَادِ بَعْضُ أَهْلِ الكَلَامِ لِعَجْزِهِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - عَنْ عِلْمِ السُنَّةِ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَوَاتَرَتْ بِهِ أَخْبَارُ مَنْ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الغَلَطُ وَالنِسْيَانِ وَهَذَا عِنْدَنَا ذَرِيْعَةٌ لِإِبْطَالِ سُنَّةِ المُصْطَفَىٰ ..."[٢].

وَقَدْ حَكَىٰ الإِمَامُ الشَافِعِيُ الإِجْمَاعَ عَلَىٰ قَبُولِ خَبَرِ الآحَادِ، وَقَالَ وَلَوْ جَازَ لِأَحَدٍ مِنْ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ إِنَّ عِلْمَ الخَاصَةِ: "أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ قَدِيْمًا وَحَدِيْثًا عَلَىٰ تَثْبِيْتِ خَبَرِ الوَاحِدِ وَالاِنْتِهَاءِ إِلَيْهِ، بِأَنَّهُ لَمْ يُعْلَمْ مِنْ فُقَهَاءِ المُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي تَثْبِيْتِ خَبَرِ الوَاحِدِ بِمَا وَصَفت مِنْ ذَلِكَ مَوْجُوداً عَلَىٰ عِلْمِهِمْ." اهـ[٣]

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (١٦١ - ١٦٣).

(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ٩٧-٩٨).

(٣) الرسالة للشافعي (٤٥٧).

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِالبَرِ: "لَيْسَ فِي الاِعْتِقَادِ كُلِّهِ فِي صِفَاتِ اللهِ وَأَسْمَائِهِ إِلَّا مَا جَاءَهُ خُصُوصاً فِي كِتَابِ اللهِ أَوْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْ أَجْمَعَتْ الأُمَّةُ عَلَيْهِ وَمَا جَاءَ مِنْ أَخْبَارِ الآحَادِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ أَوْ نَحْوٍ يُسلَّمُ لَهُ، وَلَا يُنَاظَرُ فِيْهِ." اهـ[1]

وَقَالَ أَيْضاً: "وَالَّذِي نَقُوْلُ بِهِ أَنَّهُ يُوجِبُ العَمَلَ دُوْنَ العِلْمَ كَشَهَادَةِ الشَاهِدَيْنِ وَالأَرْبَعَةِ سَوَاء، وَعَلَىٰ ذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ الفِقْهِ وَالأَثَرِ، وَكُلُّهُمْ يَدِيْنُ بِخَبَرِ الوَاحِدِ العَدْلِ فِي الاِعْتِقَادَاتِ وَيُعَادِي وَيُوَالِي عَلَيْهَا وَيَجْعَلُهَا شَرْعاً وَدِيْناً فِي مُعْتَقَدِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ جَمَاعَةُ أَهْلِ السُنَّةِ." اهـ[2]

٢- فَرِيْقٌ يُثْبِتُهَا وَيَعْتَقِدُ بِصِحَةِ النَقْلِ، وَلَكِنَّهُ يَشْتَغِلُ بِتَأْوِيْلِهَا، كَمَا يَشْتَغِلُ بِتَأْوِيْلِ آيَاتِ الكِتَابِ، حَتَّىٰ يُخْرِجَهَا عَنْ مَعَانِيْهَا الظَاهِرَةِ إِلىٰ مَا يُرِيْدُهُ مِنْ مَعَانِي بِالإِلْحَادِ وَالتَحْرِيْفِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ مُتَأَخِرُو الأَشْعَرِيَةِ، وَأَكْثَرُهُمْ تَوَسُعاً فِي هَذَا البَابِ الغَزَالِيُ[3] وَالرَازِيُ[4].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (٢/ ٩٦).

(٢) التمهيد لابن عبدالبر (١/ ٨).

(٣) وهو أبوحامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي المتكلم المتصوف الفقيه الأصولي، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ.

(٤) وهو فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني، ولد سنة ٥٤٤هـ، وكان أصولياً متكلماً مفسراً.

فَمِنْ ذَلِكَ: مِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ: « يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَمَاءِ الدُنْيَا كُلّ لَيْلَةٍ حِيْنَ يَبْقَى ثُلُثُ اللّيْلِ الآخِرِ[1] .....

(١) اخْتَلَفَتْ الرِوَايَاتُ فِي أَوَّلِ النُزُولِ عَلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَانْحَصَرَتْ فِي سِتَةِ أَشْيَاءٍ: ١- الثُلُثُ الأَخِيْرُ مِنْ اللَّيْلِ. ٢- إِذَا مَضَىٰ الثُلُثُ الأَوَّلُ.

٣- النِصْفُ. ٤- النِصْفُ أَوْ الثُلُثُ الأخِيْرُ.

٥ - الثُلُثُ الأَوَّلُ أَوْ النِصْفُ. ٦- الإِطْلَاقُ.

وَأُجِيْبَ بِأَنَّ الرِوَايَاتِ المُطْلَقَةُ مَحْمُولَةٌ عَلَىٰ المُقَيَّدَةِ، وَأَمَّا الَّتِي بِأَوْ فَإِنْ كَانَتْ لِلْشَكِ فَالمَجْزُومُ بِهِ مُقَدَمٌ عَلَىٰ المَشْكُوكِ فِيْهِ. وَإِنْ كَانَتْ لِلْتَرَدُّدِ بَيْنَ حَالَيْنِ فَيُجْمَعُ بَيْنَ تِلْكَ الرِوَايَاتِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَقَعُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الأَحْوَالِ لِكَوْنِ أَوْقَاتِ اللَّيْلِ تَخْتَلِفُ فِي الزَمَانِ وَفِي الآفَاقِ بِاخْتِلَافِ تَقَدُمِ دُخُوْلِ اللَّيْلِ عِنْدَ قَوْمٍ وَتَأَخُرِهِ عِنْدَ قَوْمٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُوْنَ النُزُولُ يَقَعُ فِي الثُلُثِ الأَوَّلِ، وَالقَوْلُ فِي النِصْفِ، وَفِي الثُلُثِ الثَانِي.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: "يُحْمَلُ عَلَىٰ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُعْلِمَ بِأَحَدِ الأُمُورِ فِي وَقْتٍ فَأَعْلَمَهُمْ بِهِ، ثُمَّ أُعْلِمَ بِهِ فِي وَقْتٍ آخِرٍ فَأَعْلَمَهُمْ بِهِ، فَنَقَلَ الصَحَابَةُ ذَلِكَ عَنْهُ. والله أعلم" اهـ[1]

(١) فتح الباري (٣/ ٣١).

فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ؟ » مُتَفَقٌ عَلَيْهِ(١). وَقَوْلُهُ ﷺ: « للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِعَبْدِهِ المُؤمِنِ التَائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ ».(٢) مُتَفَقٌ عَلَيْهِ....

(١) قَالَ الذَهَبِيُ: إِنَّ أَحَادِيْثَ النُزُوْلِ مُتَوَاتِرَةٌ، تُفِيْدُ القَطْعَ.(١) وَكَذَلِكَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ(٢).

وَهَذَا الحَدِيْثُ فِيْهِ إِثْبَاتُ النُزُولِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، نُزُولاً يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَا يُمَاثِلَ نُزُولَ الخَلْقِ.

(٢) لَفْظُ الحَدِيثِ: « للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ المُؤمِنِ مِنْ رَجُلٍ بِأَرضٍ فَلَاةٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ وَمَعَهُ رَاحِلَتَهُ عَلَيْهَا طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا، فَنَامَ وَرَاحِلَتَهُ عِنْدَ رَأسِهِ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَذَهَبَ فِي طَلَبِهَا، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا، حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ المَوْتُ مِنْ العَطَشِ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأَرْجِعَنَّ فَلَأَمُوْتَنَّ حَيْثُ كَانَ رَحْلِي، فَرَجَعَ فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ »(٣)، فِي هَذَا الحَدِيْثِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الفَرَحِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ حَقِيْقِيَّةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَىٰ مَا يَلِيْقُ بِهِ، وَإِذَا كَانَ الفَرَحُ فِي المَخْلُوقِ عَلَىٰ أَنْوَاعٍ، فَقَدْ يَكُونُ فَرَحَ خِفَّةٍ وَسُرُورٍ

(١) العلو للعلي الغفار (٧٣، ٧٩)، ومختصره (١١٠، ١١٦).

(٢) فتح المغيث للسخاوي (٣/ ٤٣).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٤ ، رقم ٢٧٤٧).

وَقَوْلِهِ ﷺ: « يَضْحَكُ اللهُ عَلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ » مُتَفَقٌ عَلَيْهِ[1] وَقَوْلُهُ: « عَجِبَ رَبُّنَا[2].....

وَطَرَبٍ وَقَدْ يَكُونُ فَرَحَ أَشَرٍ وَبَطَرٍ، فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَفَرَحُهُ لَا يُشْبِهُ فَرَحَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي أَسْبَابِهِ، وَلَا فِي غَايَاتِهِ، فَسَبَبُهُ كَمَالُ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، الَّتِي يَجِبُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لَهَا، وَغَايَتُهُ إِتْمَامَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ التَائِبِيْنَ المُنِيْبِيْنَ.

(١) هَذَا الحَدِيْثُ فِيْهِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الضَحِكِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ صِفَةٌ فِعْلِيَةٌ خَبَرِيَّةٌ، تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، ضَحِكًا لَا يُشْبِهِ ضَحِكَ المَخْلُوقِيْنَ، عِنْدَمَا يَسْتَخِفُّهُم الفَرَحُ، أَوْ يَسْتَفِزُّهُمْ الطَرَبُ بَلْ هُوَ مَعْنَىٰ يَحْدُثُ فِي ذَاتِهِ عِنْدَ وجُوْدِ مُقْتَضِيْهِ، وَيَحْدُثُ بِمَشِيْئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

(٢) هَذَا الحَدِيْثُ[1] فِيْهِ إِثْبَاتُ صِفَةِ العُجْبِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ خَبَرِيَّةٌ، تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعُجْبُهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ نَاشِئًا عَنْ خَفَاءٍ فِي الأَسْبَابِ أَوْ جَهْلٍ بِحَقَائِقِ الأُمُورِ، كَمَا هُوَ الحَالُ فِي عَجَبِ المَخْلُوقِيْنَ، بَلْ هُوَ مَعْنَىٰ يَحْدُثُ لَهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ مَشِيْئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِنْدَ وجُودِ مُقْتَضِيْهِ، وَهُوَ الشَيءُ الَّذِي يَسْتَحِقُ أَنْ يَتَعَجَّبَ مِنْهُ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٣٢)، وابن ماجة (١٨١)، بلفظ: « ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيرِهِ »، وصححه الألباني.

مِنْ قُنُوطِ[1] عبَادِهِ وَقُرْبِ خَيْرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِيْنَ[2] قَنِطِيْنَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعلمُ أَنّ فَرَجَكُمْ قَرِيْبٌ ». حَدِيْثٌ حَسَنٌ، وَقَوْلُهُ ﷺ: « لا تَزَالُ جَهَنّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ ؟ حَتّى يَضَعَ رَبُّ العِزّةِ فِيهَا رِجْلَهُ [وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيهَا قَدَمَهُ] فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ »[3] مُتَفقٌ عَلَيهِ.........................

وَهَذَا العَجَبُ الَّذِي وَصَفَ الرَسُولُ ﷺ بِهِ رَبَّهُ هُنَا مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ، وَهُوَ مِنْ كَمَالِهِ تَعَالَىٰ، فَإِذَا تَأَخَّرَ الغَيْثُ عَنْ العِبَادِ مَعَ فَقْرِهِمْ وَشِدَّةِ حَاجَتِهِمْ، وَاسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِمْ اليَأْسُ وَالقُنُوطُ، وَصَارَ نَظَرُهُمْ قَاصِراً عَلَىٰ الأَسْبَابِ الظَاهِرَةِ، وَحَسِبُوا أَنْ لَا يَكُونَ وَرَاءَهَا فَرَجٌ مِنْ القَرِيْبِ المُجِيْبِ، فَيَعْجَبُ اللهُ مِنْهُمْ.

وَهَذَا مَحِلٌّ عَجِيْبٌ حَقّاً، إِذْ كَيْفَ يَقْنَطُونَ وَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ !! وَالأَسْبَابُ لِحُصُولِهَا قَدْ تَوَفَّرَتْ؟!

(١) هُوَ اليَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ.

(٢) جَمْعُ أَزِلٍ، اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ الأَزَلِ بِمَعْنَىٰ الشِدَّةِ وَالضِيْقِ.

(٣) فِي هَذَا الحَدِيْثِ[1] إِثْبَاتُ صِفَةِ الرِجْلِ وَالقَدَمِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهِي صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ خَبَرِيَّةٌ[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٩)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) وقد أوَّلَ المعطلة القدم بنوع من الخلق كما قالوا: الذين تقدم في علمه أنَّهم أهل النَّار. وأولوا الرِجْلَ بجماعة النّاس، كما يقال: رِجْلٌ من جراد.

وَقَوْلُهُ: يَقُولُ اللهُ تَبَارِكَ وتَعَالَى: « يَـآدَمُ، فَيَقُولُ: لَبيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنّ اللهَ يَأمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَتِكَ بَعْثاً إِلَى النّارِ »[١] مُتَفَقٌ عَلَيْه. وَقَوْلُهُ: « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا سَيُكَلِمُهُ رَبُّهُ[٢] وَلَيْس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٍ »[٣]. وَقَوْلُهُ فِي رُقْيَةِ المَرِيْضِ: « رَبُنَا اللهُ الّذِي فِي السَمَاءِ، تَقَدّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتُكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حَوْبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَيْبِيْنَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكْ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَعِ [فَيَبْرأ] ». حَدِيْثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُودَاوُدَ وَغَيرُهُ[٤]..............

---

(١) فِي هَذَا الحَدِيْثِ إِثْبَاتُ القَوْلِ وَالنِدَاءِ للهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَةٌ فِعْلِيَّةٌ، ثَابِتَةٌ بِالقُرْآنِ وَالسُنَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

(٢) وَفِي هَذَا الحَدِيْثِ إِثْبَاتٌ لِصِفَةِ الكَلَامِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَىٰ هَذَا وَكَلَامُ اللهِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

الأَوَّلُ: تَكْلِيْمٌ عَامٌ لِجَمِيْعِ العِبَادِ بِلَا وَاسِطَةٍ وَهُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الحَدِيْثُ، وَهُوَ تَكْلِيْمُ مُحَاسَبَةٍ، فَهُوَ يَشْمَلُ المُؤْمِنَ وَالكَافِرَ وَالبَرَّ وَالفَاجِرَ.

الثَانِي: تَكْلِيْمُ مَحَبَّةٍ وَرِضْوَانٍ وَإِحْسَانٍ. وَهُوَ الَّذِي نَفَاهُ اللهُ عَنْ الكَافِرِيْنَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤، آل عمران: ٧٧].

(٣) وَهُوَ المُعَبِرُ عَنْ اللُّغَةِ.

(٤) هَذَا الحَدِيْثُ ضَعِيفٌ جِدًا كَمَا قَال الأَلْبَانِي رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَوْلُهُ: « أَلا تَأمَنُوني وَأَنَا أَمِيْنُ مَنْ فِي السَمَاءِ »[1]. حَدِيْثٌ صَحِيْحٌ. وَقَوْلُهُ: « وَالعَرشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ »[2]. حَدِيْثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُوْدَاوُدَ وَغَيْرُهُ.....

(١) هَذَا الحَدِيْثُ لَهُ قِصَّةٌ وَهِيَ أَنَّ عَلَيَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعَثَ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدَمٍ مَقْرُوْظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ وَالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدُ الخَيْلِ، وَالرَابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ بْنُ عِلَاقَةِ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقُ بِهَا مِنْ هَؤُلَاءِ!! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا تَأْمَنُوْنِي وَأَنَا أَمِيْنُ مَنْ فِي السَمَاءِ يَأْتِيْنِي خَبَرُ السَمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً »[1].

(٢) لَفْظُ الحَدِيْثِ عَنْ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَلِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا جُلُوْسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالبَطْحَاءِ فَمَرَّتْ سَحَابَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: « أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ » قَالَ: قُلْنَا: السَحَابُ، قَالَ: « المُزْنُ وَالعَنَانُ »، قَالَ: فَسَكَتْنَا، فَقَالَ: « أَتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَمَاءِ وَالأَرْضِ؟ » قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيْرَةُ خَمْسُمَائَةِ سَنَة، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيْرَةُ خَمْسُمَائَةِ سَنَةٍ، وَكَثْفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمَائَةِ سَنَةٍ، وَفَوْقَ السَمَاءِ السَابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَمَاءِ وَالأَرْضِ ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ العَرْشُ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَوقَ ذَلِكَ وَلَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٤)، ومسلم (١٤٤).

وَقَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: « أَيْنَ اللهُ؟ » قَالَتْ: اللهُ فِي السَمَاءِ[1]. قال: « مَنْ أَنَا؟ » قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله، قَالَ: « أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَوْلُهُ: « أَفْضَلُ الإِيْمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ »[2] حَدِيْثٌ حَسَنٌ. وَقَوْلُهُ: « إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصّلاة، فَلا يَبْصُقَنّ قِبَلَ وَجْهِه، وَلا عَنْ يَمِيْنِه، فَإِنّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ »[3]. مُتَفَقٌ عَلَيْهِ.....

مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيءٌ »[1].

(١) قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: وَقَدْ حَكَىٰ البَيْهَقِيُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الضَبْعِيُ قَالَ: العَرَبُ تَضَعُ (فِي) مَوْضِعِ (عَلَىٰ) كَقَوْلِ: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ عَلَىٰ العَرْشِ فَوْقَ السَمَاءِ كَمَا صَحّتْ الأَخْبَارُ بِذَلِكَ[2].اهـ

(٢) فِي الحَدِيْثِ إِثْبَاتُ مَعِيَّةِ اللهِ لِعِبَادِهِ، وَأَنَّ أَفْضَلَ الإِيْمَانِ هُوَ مَقَامُ الإِحْسَانِ وَالمُرَاقَبَةِ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ العَبْدُ رَبَّهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ وَيُشَاهِدَهُ، وَيَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ وَلَا شَكَ أَنَّ مَعِيَّةَ اللهِ إِذَا اسْتَحْضَرَهَا العَبْدُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ فَإِنَّهُ يَسْتَحِي مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرَاهُ حَيْثُ نَهَاهُ، وَأَنْ يَفْتَقِدَهُ حَيْثُ أَمَرَهُ.

(٣) قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةِ: إِنَّ هَذَا الحَدِيْثَ حَقٌ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَهُوَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤٢٨)، وقال: حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وصححه الذهبي أيضاً.

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٥٧).

وَقَوْلُهُ ﷺ: « اللّهُـمّ رَبّ السَـمَاوَاتِ السَـبْعِ وَالأَرْضِ، وَرَبّ العَـرْشِ العَظِيْمِ، رَبّنَا وَرَبّ كُلّ شَيءٍ، فَالِقَ الحَـبّ وَالنَـوَى، مُنْـزِلَ التَـوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ وَالقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ نَفْسِي وَمِنْ شَرّ كُـلّ دَابَـةٍ أَنْـتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الأَوّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ دُوْنَكَ شَيءٌ، اِقْضِ عَنّى الدَيْنَ وَاغْنِنِـي مِـنْ الفَقْـرِ »[1] (روايـة مسـلم). وَقَوْلُهُ ﷺ لَمّا رَفَعَ (الصَحَابَةُ) أَصْوَاتَهُمْ بِالـذِكْرِ: « أَيُّهَـا النّـاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمّ وَلا غَائِباً، إِنّمَا تَـدْعُونَ سَمِيْعاً بَصِيْراً قَرِيْباً، إِنّ الّذِيْنَ تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَـدِكُمْ مِـنْ عُنُـقِ رَاحِلَتِهِ »[2] متفق عليه.....

سُبْحَانَهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُـوَ قِبَلَ وَجْـهِ المُصَـلِّي، بَلْ هَـذَا الوَصْـفُ يَثْبُتُ لِلْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ لَوْ أَنَّهُ يُنَاجِي الشَـمْسَ وَالقَمَرَ: لَكَانَـتْ السَـمَاءُ وَالشَمْسُ وَالقَمَرُ فَوْقَهُ، وَكَانَتْ أَيْضـاً قِبَلَ وَجْهِهِ[1].اهـ

(١) فِي الحَدِيْثِ إِثْبَاتُ اسْـمِ الأَوَّلِ والآخِـرِ وَالظَـاهِرِ وَالبَـاطِنِ للهِ عَـزَّ وَجَـلَّ، وَهِيَ مِنْ الأَسْمَاءِ الحُسْنَىٰ وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَيْهَا.

(٢) أَفَادَ الحَدِيْثُ قُرْبَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ عِبَادِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ يَرْفَعُـوْا إِلَيْـهِ أَصْوَاتَهُمْ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِرَّ وَالنَجْوَىٰ، وَهَـذَا القُـرْبُ المَـذْكُورُ فِـي الحَـدِيْثِ قُرْبُ إِحَاطَةٍ وَعِلْمٍ، وَسَمْعٍ، وَرُؤْيَةٍ، فَلَا يُنَافِي عُلُوَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ.

(١) الفتوىٰ الحموية (٨٠).

قَوْلُهُ: « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوْا »[1] مُتَفَقٌ عَلَيْهِ.....

وَقُرْبُ الرَّبِ تَعَالَىٰ إِنَّمَا وَرَدَ مَخصُوصاً لَا عَاماً، وَهُوَ نَوْعَانِ: قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيْهِ بِالْإِجَابَةِ، وَمِنْ مُطِيْعِهِ بِالإِثَابَةِ، وَلَمْ يَجِئْ القُرْبُ كَمَا جَاءَتْ المَعِيَّةُ خَاصَةً وَعَامَةً، فَلَيْسَ فِي القُرْآنِ، وَلَا فِي السُنَّةِ أَنَّ اللهَ قَرِيْبٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَأَنَّهُ قَرِيْبٌ مِنْ الكَافِرِ، وَإِنَّمَا جَاءَ خَاصاً كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] فَهَذَا قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيْهِ وَسَائِلِيْهِ. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وَلَمْ يَقُلْ عَنْهَا قَرِيْبَةٌ وَإِنَّمَا كَانَ الخَيْرُ مُذَكَّراً، فَإِنَّ الرَحمَةَ لَمَّا كَانَتْ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وَقَائِمَةٌ بِذَاتِهِ فَإِذَا كَانَتْ قَرِيْبَةٌ مِنْ المُحْسِنِيْنَ فَهُوَ قَرِيْبٌ سُبْحَانَهُ.

فَقُرْبُ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ يَكُونُ وَهُوَ عَلَىٰ عَرْشِهِ، فَإِنَّ عُلُوَّهُ عَلَىٰ سَمَاوَاتِهِ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَالَّذِي يُسَهِلُ فَهْمَ هَذَا هُوَ مَعْرِفَةُ عَظَمَةِ الرَّبِ وَإِحَاطَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَأَنَّ السَمَاوَاتِ السَبْعِ بِيَدِهِ، وَالأَرَضِينَ السَبْعِ بِيَدِهِ الأُخْرَىٰ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَكَيْفَ يَسْتَحِيْلُ فِي حَقِّ مَنْ هَذَا بَعْضُ عَظَمَتِهِ أَنْ يَكُوْنَ فَوْقَ عَرْشِهِ وَيَقْرُبَ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ، وَهُوَ عَلَىٰ العَرْشِ.

(١) فِي الحَدِيْثِ تَشْبِيْهُ الرُؤيَةُ بِالرُؤيَةِ، لَا تَشْبِيْهُ المَرْئِي بِالمَرْئِي، يَعْنِي: أَنَّ رُؤْيَتَهُمْ لِرَبِهِمْ تَكُونُ مِنْ الظُهُورِ وَالوضُوحِ كَرُؤيَةِ القَمَرِ فِي أَكْمَلِ حَالَاتِهِ،

إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيْثِ الَّتِي فِيْهَا يُخْبِرُ فِيْهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ، فَإِنَّ الفِرْقَةَ النَاجِيَةَ أَهْلُ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيْفٍ وَلَا تَعْطِيْلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيْلٍ، بَلْ هُمْ الوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوَسَطُ فِي الأُمَمِ[1].....

وَهِيَ كَوْنُهُ بَدْراً، وَلَا يَحْجُبُهُ سَحَابٌ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: « لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ » رُوِيَ بِتَشْدِيْدِ المِيْمِ مِنْ التَضَامِّ، بِمَعْنَىٰ التَزَاحُمِ وَالتَلَاصُقِ. وَرُوِيَ بِتَخْفِيْفِ المِيْمِ مِنْ الضَيْمِ، بِمَعْنَىٰ الظُلْمِ، يَعْنِي: لَا يَلْحَقُكُمْ فِي رُؤْيَتِهِ ضيْمٌ وَلَا غُبْنٌ.

وَأَحَادِيْثُ إِثْبَاتِ الرُؤْيَةِ مُتَوَاتِرَةٌ، قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مَعِيْنٍ: عِنْدِي سَبْعَةَ عَشَرَ حَدِيْثًا فِي الرُؤْيَةِ كُلُّهَا صِحَاحٌ. وَقَالَ أَحْمَدُ: مَنْ قَالَ إِنَّ اللهَ لَا يُرَىٰ فَهُوَ كَافِرٌ.

(١) كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وَمَعْنَىٰ: ﴿وَسَطًا﴾ عُدُوْلاً خِيَاراً، كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي سَعِيْدِ الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً: « يُدْعَىٰ نُوْحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبُّ. فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتُ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيْرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيَشْهَدُوْنَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَيَكُونُ الرَسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيْداً، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ الوَسَطُ العَدْلُ.

فَجَعَلَ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ وَسَطًا فِي كُلِّ أُمُورِ الدِيْنِ.

وَسَطٌ فِي الأَنْبِيَاءِ، بَيْنَ مَنْ غَلَا فِيْهِمْ كَالنَصَارَىٰ وَمَنْ جَفَاهُمْ كَاليَهُودِ، بِأَنْ آمَنُوا بِهِمْ عَلَىٰ الوَجْهِ اللَائِقِ بِذَلِكَ.

وَوَسَطٌ فِي الشَرِيْعَةِ، لَا تَشْدِيْدَاتِ اليَهُودِ وَآصَارَهِمْ، وَلَا تَهَاوُنَ النَصَارَىٰ فِي بَابِ الطَهَارَةِ وَالمَطَاعِمِ. لَا كَاليَهُودِ الَّذِيْنَ لَا تَصْلُحُ لَهُمْ صَلَاةٌ إِلَّا فِي بِيَعِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ وَلَا يُطَهِرُهُمْ المَاءُ مِنْ النَجَاسَاتِ، وَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الطَيْبَاتُ، عُقُوبَةً لَهُمْ. وَلَا كَالنَصَارَىٰ الَّذِيْنَ لَا يُنَجِسُونَ شَيْئًا، وَلَا يُحَرِمُونَ شَيْئًا، بَلْ أَبَاحُوا مَا دَبَّ وَدَرَجَ بَلْ طَهَارَتُهُمْ أَكْمَلُ طَهَارَةٍ وَأَتَمَّهَا.

وَأَبَاحَ لَهُمْ الطَيِّبَاتِ مِنْ المَطَاعِمِ وَالمَشَارِبِ وَالمَلَابِسِ وَالمَنَاكِحِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ الخَبَائِثَ مِنْ ذَلِكَ.

فَلِهَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ الدِيْنِ: أَكْمَلُهُ، وَمِنْ الأَخْلَاقِ أَجَلُّهَا، وَمِنْ الأَعْمَالِ: أَفْضَلُهَا.

وَوَهَبَهُمْ مِنْ العِلْمِ وِالحِلْمِ وَالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ مَا لَمْ يَهَبْهُ لِأُمَّةٍ سِوَاهُمْ.

فَلِذَلِكَ كَانُوا: ﴿أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ كَامِلِيْنَ مُعْتَدِلِيْنَ، لِيَكُونُوا ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بِسَبَبِ عَدَالَتِهِمْ وَحُكْمِهِمْ بِالقِسْطِ، يَحْكُمُونَ عَلَىٰ النَّاسِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الأَدْيَانِ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ. فَمَا شَهِدَتْ لَهُ هَذِهِ الأُمَّةُ بِالقَبُولِ، فَهُوَ مَقْبُولٌ، وَمَا شَهِدَتْ لَهُ بِالْرَدِّ فَهُوَ مَرْدُوْدٌ.

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيْلِ(١) الجَهْمِيَّةِ(٢) ....

(١) **المُعَطِلَةُ عَلَىٰ أَنْوَاع:**

١- الجَهْمِيَّةُ، وَهُمْ الَّذِيْنَ عَطَّلُوا أَسْمَاءَ اللهِ وَصِفَاتِهِ.

٢- المُعْتَزِلَةُ، وَهُمْ الَّذِيْنَ أَثْبَتُوا الأَسْمَاءَ وَنَفَوا الصِفَاتَ.

٣- الأَشَاعِرَةُ، وَهُمْ الَّذِيْنَ أَثْبَتُوا بَعْضَ الصِفَاتِ وَنَفَوا البَعْضَ.

(٢) **الجَهْمِيَّةُ** هِيَ فِرْقَةٌ تَرْجِعُ نِسْبَتُهَا إِلَىٰ جَهْمِ بْنِ صَفْوَان التِرْمِذَي، وَيُكَنَّىٰ بِأَبِي مِحْرِزٍ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ، وَهُوَ مِنْ الجَبْرِيَّةِ الخَالِصَةِ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ ابْتَدَعَ القَوْلَ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَتَعْطِيْلِ الصِفَاتِ، كَانَ كَثِيرَ الخُصُومَةِ وَالجِدَلِ وَالمُنَاظَرَةِ، وَلَم يَكُنْ لَهُ بَصرٌ بِعِلْمِ الحَدِيْثِ، وَاشْتَغَلَ بِعِلْمِ الكَلَامِ.

وَقَدْ ظَهَرَ فِي المِائَةِ الثَانِيَةِ مِنْ الهِجْرَةِ، وَقُتِلَ سَنَةَ ١٢٨ هجرية.

وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ بِبِدْعَةِ التَعْطِيلِ هُوَ الجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ الَّذِي قَتَلَهُ خَالِدٌ القَسْرِيُ فِي يَوْمِ عِيْدِ الأَضْحَىٰ بَعْدَ أَنْ خَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ لَهُمْ: مَعَاشِرَ النَّاسِ ضَحُّوا تَقَبَل اللهُ ضَحَايَاكُمْ فَإِنِّي مُضَحٍ بِالجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، فَإِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ لَمْ يُكَلِّمْ مُوسَىٰ تَكْلِيْماً، وَأَنَّهُ لَمْ يَتخِذَ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: أَوَّلُ مَا ظَهَرَتْ هَذِهِ المَقَالَةُ مِنْ جَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، وَأَخَذَهَا عَنْهُ الجَهْمُ بْنُ صَفْوَانٍ وَأَظْهَرَهَا فَنُسِبَ إِلَيْهِ، وَقَدْ قِيْلَ: إِنَّ الجَعْدَ أَخَذَ مَقَالَتَهُ عَنْ أَبَانِ بْنِ سَمْعَانِ، وَأَخَذَهَا أَبَانُ عَنْ طَالُوتَ بْنِ أُخْتِ

لَبِيْدِ بْنِ الأَعْصَمِ اليَهُودِيِ السَاحِرِ الَّذِي سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ[1].اهـ

وَمِنْ عَقَائِدِ الجَهْمِيَّةِ:

١- إِنْكَارِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ.

٢- إِنْكَارِ عُلُوِ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ[2].

٣- القَوْلِ بِالجَبْرِ وَأَنَّ العَبْدَ مَجْبُورٌ، وَأَنَّهُ لَا فِعْلَ لَهُ أَصْلاً، وَلَيْسَ بِقَادِرٍ أَصْلاً[3].

٤- القَوْلِ بِالإِرْجَاءِ وَأَنَّ الإِيْمَانَ هُوَ المَعْرِفَةُ لَيْسَ التَصْدِيْقُ بَلْ القَوْلُ وَالعَمَلُ لَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّىٰ الإِيْمَانِ.

٥- القَوْلِ بِخَلْقِ القُرآنِ[4].

٦- إِنْكَارِ رُؤْيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالصِرَاطِ، وَالمِيْزَانِ، وَعَذَابِ القَبْرِ.

٧- القَوْلِ بِفَنَاءِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

٨- القَوْلِ بِأَنَّ اللهَ قَرِيْبٌ بِذَاتِهِ مِنْ خَلْقِهِ مُخَالِطٌ لَهُمْ.

الحُكْمُ عَلَىٰ الجَهْمِيَّةِ:

ذَهَبَ كَثِيْرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ إِلَىٰ تَكْفِيْرِ الجَهْمِيَّةِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ أَهْلِ

---

(١) الحموية (١٤).

(٢) دراسات في الأهواء والفرق (٢٥١).

(٣) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٤٦٠).

(٤) دراسات في الأهواء والفرق (٢٥٩).

وَأَهْلِ التَمْثِيْلِ المُشَبِّهَةِ[1]. وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ وبَيْنَ الجَبْرِيَةِ[2] .....

القِبْلَةِ، وَمِنْ هَؤلَاءِ الإِمَامِ أَبِي سَعِيْدِ عُثْمَانِ بْنِ سَعِيْدٍ الدَارِمْي فِي كِتَابِهِ (الرَدِّ عَلَىٰ الجَهْمِيَةِ). فَقَدْ عَقَدَ بَابًا سَمَّاهُ (بَابُ الاِحْتِجَاجِ فِي إِكْفَارِ الجَهْمِيَّةِ)، وَبَابًا آخَرَ سَمَّاهُ (بَابُ قَتْلِ الزَنَادِقَةِ وَالجَهْمِيَّةِ وَاسْتِتَابَتِهِمْ مِنْ كُفْرِهِمْ). وَسَاقَ فِيْهِ أَقْوَالَ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ[1] مِنْهُمْ سَلَامِ بْنِ أَبِي مُطِيْعٍ، وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَيَزِيْدَ بْنِ هَارُونَ، وَابْنِ المُبَارَكِ، وَوَكِيْعٍ، وَحَمَّادِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانِ، وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَغَيْرِهِمْ.

(١) أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ التَشْبِيهَ وَالقَوْلَ بِالحُلُولِ وَالتَنَاسُخِ بَيَانُ بْنُ سَمْعَانٍ الشَيْعِي، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ رَبَّهُ عَلَىٰ صُورَةِ إِنْسَانٍ، وَأَنَّ جُزْءً إِلَهِيًا حَلَّ فِي عَلَيٍ وَغَيْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ - تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُوْلُونَ عُلُواً كَبِيْراً -، وَقَدْ قَتَلَهُ خَالِدُ بْنُ عَبْدِاللهِ القَسْرِي سَنَةَ ١١٩ هِجْرِيَةً تَقْرِيْبًا[2].

(٢) القَوْلُ بِالجَبْرِ هُوَ مَذْهَبُ الجَهَمِيَّةِ وَالأَشَاعِرَةِ، يَقُوْلُونَ: إِنَّ العِبَادَ لَا إِرَادَةَ لَهُمْ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَىٰ فِعْلِ الطَاعَاتِ وَلَا تَرْكِ المَنْهِيَاتِ، وَهُمْ مَجْبُورُونَ عَلَىٰ فِعْلِ ذَلِكَ كُلِّهِ[3]. فَالجَبْرِيَّةُ غَلَوْ فِي إِثْبَاتِ القَدَرِ حَتَّىٰ نَفَوْا فِعْلَ العَبْدِ.

---

(١) الردُّ علىٰ الجهمية له (١٠٦-١١٧).

(٢) دراسات في الأهواء والفرق والبدع (٢٥٨).

(٣) وهذا القول باطل من وجوه:

وَالقَدَرِيّة[1] [وَغَيْرِهِمْ] .....

(١) هُمْ القَائِلُونَ: إِنَّ أَفْعَالَ العِبَادِ، وَطَاعَاتِهِمْ ،وَمَعَاصِيَهُمْ لَمْ تَدْخُلْ تَحْتَ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فَأَثْبَتُوا قُدْرَةَ اللهِ عَلَىٰ أَعْيَانِ المَخْلُوقَاتِ وَأَوْصَافِهَا، وَنَفَوا قُدْرَتَهُ عَلَىٰ أَفْعَالِ المُكَلَّفِيْنَ، وَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَمْ يُرِدْهَا وَلَمْ يَشَأْهَا مِنْهُمْ بَلْ هُمْ الَّذِيْنَ أَرَادُوهَا وَشَاءوهَا، وَفَعَلُوهَا اسْتِقْلَالاً بِدُوْنِ مَشِيْئَةِ اللهِ.

وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِهَذَا القَوْلِ يُنَزِّهُونَ اللهَ عَنْ الظُّلْمِ، لِأَنَّهُ لَوْ قَدَّرَ المَعَاصِي عَلَيْهِمْ، ثُمَّ عَذَّبَهُمْ عَلَيْهَا لَكَانَ ظَالِمًا لَهُمْ، وَلَلَزِمَ مِنْ إِثْبَاتِ قُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ أَفْعَالِهِمْ الجَبْرَ الَّذِي هُوَ بَاطِلٌ بِالشَرْعِ وَالعَقْلِ. وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ المُعْتَزِلَةِ.

١- أنّ إنكار الاختيار في أفعال العباد نقص في العقل، لأنّنا نعلم من أنفسنا أنَّ حركتنا ليست كحركة الجماد الذي لا يملك شيئًا لذاته في تحركه وسكونه بل إنَّنا نفرق بين الحركات الإرادية واللاإرادية كحركة المرتعش ودقات القلب.

٢- النصوص الواردة في القرآن التي فيها إسناد الفعل إلىٰ العباد كثيرة جداً ،كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾[القصص: ٢٠]، وقال: ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص: ١٥]، وقال: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٩].

٣- أنَّ الله تعالىٰ أثبت للعبد إرادة ومشيئة، وأضاف العمل إليه، فقال: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ بِالقَدَرِ مَعْبَدُ الجُهَنِي البَصْرِي فِي أَطْرَافِ عَهْدِ الصَحَابَةِ، وَأَخَذَ عَنْهُ غَيْلَانُ الدِمَشْقِي.

وَقَدْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ مَنْ سَمِعَ بِهِمْ مِنْ الصَحَابَةِ كَعَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وابْنِ عَبَاسٍ وَأَنَسَ بْنِ مَالِكٍ، وَعَبْدِاللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ، وَعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِي وَغَيْرِهِم(١).

وَلَقَّبَهُمْ السَّلَفُ بِمَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ، لِأَنَّهُمْ نَفَوا القَدَرَ وَجَعَلُوا العِبَادَ خَالِقِيْنَ مَعَ اللهِ.

وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ العِبَادَ فَاعِلُونَ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقِ أَفْعَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

---

(١) والردُّ عليهم من وجهين:

الأول: أنّ الله خالق كلّ شيء، وكلّ شيء كائن بمشيئته، وقد بيَّنَ الله تعالىٰ في كتابه أنّ أفعال العباد تقع بمشيئته فقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

الثاني: أنَّ الكون كلَّه مملوك لله تعالىٰ، والإنسان مملوك لله، ولا يمكن للملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته.

وَفِي بَابِ وَعِيْدِ اللهِ بَيْنَ المُرْجِئَةِ[1] .....

(١) الإرْجَاءُ فِي اللُّغَةِ التَأخِيْرُ وَفِي الاصْطِلَاحِ تَأْخِيْرُ العَمَلِ وَإِخْرَاجِهِ عَنْ حَقِيْقَةِ الإيمَانِ، قَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ فِي بَيَانِ سَبَبِ تَسْمِيَةِ المُرْجِئَةِ بِهَذَا الاسْمِ: "...قِيْلَ مُرْجِئَةٌ لِأَنَّهُمْ قَدَّمُوا القَوْلَ وَأَرْجَؤا العَمَلَ."

وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ بِالإرْجَاءِ قِيْلَ: "ذَرُّ بْنُ عَبْدِاللهِ الهَمَدَانِي" وَهُوَ تَابِعِيٌّ، وَقَدْ ذَمَّهُ عُلَمَاءُ عَصْرِهِ بَلْ كَانَ إبْرَاهِيْمُ النَخَعِي، وَسَعِيْدُ بْنُ جُبَيْرٍ لَا يَرُدُّونَ عَلَيْهِ السَلَامَ إِذَا سَلَّمَ، وَتُوفِيَ فِي نِهَايَةِ القَرْنِ الثَانِي.

وَقِيْلَ: أَوَّلُ مَنْ قَالَ بِالإرْجَاءِ حَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَان شَيْخُ أَبِي حَنِيْفَةَ وَتِلْمِيْذُ إبْرَاهِيمَ النَخَعِي، قَالَ مَعْمَرُ: كُنَّا نَأتِي أَبَا إِسْحَاقَ، فَيَقُولُ مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَنَقُولُ: مِنْ عِنْدِ حَمَّادٍ، فَيَقُولُ: مَا قَالَ لَكُمْ أَخُو المُرْجِئَةِ.

وَقِيْلَ: غَيْرُهُ.

وَالمُرْجِئَةُ عَلَىٰ أَقْسَامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ:

الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إنَّ الإيْمَانَ مُجَرَّدُ المَعرفَةِ وَلَوْ لَمْ يَحْصُلْ تَصْدِيْقٌ، وَهَذَا قَوْلُ الجَهْمِيَّةِ، وَهُمْ مِنْ أَشَرِّ طَوَائِفِ المُرْجِئَةِ، وَأَقْبَحِهَا، وَهَذَا كُفْرٌ بِاللهِ لِأَنَّ المُشْرِكِينَ الأَوَلِينَ فِرْعَونَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ وَإِبْلِيسَ كَانُوا يَعْرِفُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقُلُوبِهِمْ لَكِنْ لَم يَنْطِقُوا بِأَلسِنَتِهِم وَلَم يُصَدِّقُوا بِقُلُوبِهِم، وَلَم يَعْمَلُوا بِجَوَارِحِهِمْ فَلَمْ تَنْفَعُهُمْ هَذِهِ المَعْرِفَةُ.

القِسْمُ الثَانِي:

الَّـذِيْنَ قَـالُوا: إنَّ الإيْمَـانَ تَصْـدِيْقُ القَلْـبِ فَقَـطْ، وَهُـوَ مَـذْهَبُ الكُلَابِيْـةِ وَالأَشْعَرِيَّةِ وَهُوَ قَوْلٌ بَاطِلٌ لِأَنَّ الكُفَّارَ يُصَدِقُونَ بِقُلُوبِهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحكُمْ اللهُ بِإيْمَـانِهِمْ قَـالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقـرة: ١٤٦]. وَقَـالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

القِسْمُ الثَالِثُ:

الَّذِيْنَ قَالُوا: إنَّ الإيْمَـانَ نُطْقٌ بِاللِسَـانِ فَقَـط وَلَـو لَـمْ يَعْتَقِـدْ بِقَلْبِـهِ، وَهَـذَا مَذْهَبُ الكَرَّامِيَّةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا قَـوْلٌ بَاطِلٌ، لِأَنَّ المُنَـافِقِيْنَ كَـانُوا يَقُولُـونَ: نَشْـهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلّا الله وَأَنَّ مُحَمَّـداً رَسُـوْلُ اللهِ بِأَلْسِـنَتِهِمْ بَـلْ وَيَعْمَلُـونَ بِجَوَارِحِهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقُوا بِقُلُوبِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١١].

القِسْمُ الرَابِعُ:

الَّذِيْنَ يَقُولُونَ: إنَّ الإيْمَانَ اعْتِقَادٌ بِالقَلْبِ وَنُطْقٌ بِاللِسَانِ، وَأَمَّا العَمَلُ فَلا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّىٰ الإيْمَـانِ، وَهُـوَ مَـذْهَبُ مُرْجِئَةِ الفُقَهَـاءِ، وَهَـذَا بَاطِلٌ لِقَـوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « الإيْمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَـةُ

وَبَيْنَ الوَعِيدِيّةِ[1] مِنْ القَدَرِيّةِ وَغَيْرِهِمْ. .....

الأَذَىٰ عَنْ الطَرِيْقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الإِيْمَانِ »[1].

وَالمُرْجِئَةُ اتَفَقُوا عَلَىٰ أُمُورٍ:

١- أَنَّ الإِيْمَانَ لَا يَزِيْدُ وَلَا يَنْقُصُ لِأَنَّهُ شَيءٌ وَاحِدٌ.

٢- أَنَّ الأَعْمَالَ غَيْرَ دَاخِلَةٍ فِي مُسَمَّىٰ الإِيْمَانِ.

٣- أَنَّهُ لَا يَصِحُ الاِسْتِثْنَاءُ فِي الإِيْمَانِ، وَهُوَ أَنَّ تَقُولَ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ.

٤- أَنَّ الكُفْرَ لَا يَقَعُ بِالجَوَارِحِ.

٥- أَنَّهُ لَا يَضُرُ مَعَ الإِيْمَانِ ذَنْبٌ.

(١) هُمْ القَائِلُونَ أَنَّ اللهَ يَجِبُ عَلَيْهِ عَقْلاً أَنْ يُعَذِبَ العَاصِيَ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُثِيْبَ المُطِيعَ، فَمَنْ مَاتَ عَلَىٰ كَبِيْرَةٍ وَلَم يَتُبْ مِنْهَا لَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُ، وَهُمْ الخَوَارِجُ وَالمُعْتَزِلَةُ وَهَذَا بَاطِلٌ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُنَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وَقَالَ ﷺ: « بَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُوْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَىٰ اللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ

(١) أخرجه مسلم (١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَفِي بَابِ الأَسْمَاءِ وَالإِيْمَانِ وَالْدِيْنِ[1] .....

شَاءَ عَاقَبَهُ، فَبَايَعْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ »[1].

وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيْرَةِ إِذَا مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ لِلأَدِلَّةِ السَابِقَةِ. وَإِنْ عَاقَبَهُ اللهُ عَلَيْهَا فَإِنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَارِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ثُمَّ مَاتَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَإِنْ زَنَىٰ، وَإِنْ سَرَقَ »[2]. وَلِغَيْرِهَا مِنْ الأَحَادِيْثِ الدَالَةِ عَلَىٰ عَدَمِ خُلُودِ أَصْحَابِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

(١) كَانَتْ مَسْأَلَةُ الأَسْمَاءِ وَالأَحْكَامِ مِنْ أَوَّلِ مَا وَقَعَ فِيْهِ النِزَاعُ فِي الإِسْلَامِ بَيْنَ الطَوَائِفِ المُخْتَلِفَةِ، وكَانَ لِلأَحْدَاثِ السِيَاسِيَّةِ وَالحُرُوبِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ عَلِي وَمُعَاوِيَةَ رضي الله عنهما فِي ذَلِكَ الحِيْنِ، وَمَا تَرَتَبَ عَلَيْهَا مِنْ ظُهُورِ الخَوَارِجِ وَالرَافِضَةِ وَالقَدَرِيَّةِ أَثَرٌ كَبِيْرٌ فِي ذَلِكَ النِزَاعِ.

وَالمُرَادُ بِالأَسْمَاءِ هُنَا أَسْمَاءُ الدِيْنِ، مِثْلُ: مُؤمِنٌ، وَمُسْلِمٌ، وَكَافِرٌ، وَفَاسِقٌ.. وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَالمُرَادُ بِالأَحْكَامِ أَحْكَامِ أَصْحَابِهَا فِي الدُنْيَا وَالآخِرَةِ.

فَالخَوَارِجُ الحَرُورِيَةُ وَالمُعْتَزِلَةُ قَالُوا: "إِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُ اسْمَ الإِيْمَانِ إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٨٩)، ومسلم (١٥٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

مَنْ آمَنَ بِقَلْبِهِ، وَأَقَرَّ بِلِسَانِهِ، وَقَامَ بِجَمِيْعِ الوَاجِبَاتِ، وَاجْتَنَبَ جَمِيْعَ الكَبَائِرِ." لِأَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيْرَةِ عِنْدَهُمْ لَا يُسَمَّىٰ مُؤْمِنًا وَخَالِداً فِي نَارِ جَهَنَّمَ بِالاتِفَاقِ.

لَكِنْ اخْتَلَفُوا: هَلْ يُسَمَّىٰ كَافِراً أَمْ لَا؟

الخَوَارِجُ يُسَمُونَهُ كَافِراً، وَيَسْتَحِلُونَ دَمَهُ وَمَالَهُ، وَأَمَّا المُعْتَزِلَةُ فَقَالُوا: إِنَّهُ خَرَجَ مِنْ الإِيمَانِ وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الكُفْرِ، فَهُوَ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ. لِذَلِكَ قَالُوا: غَيْرُ مُسْتَبَاحِ الدَمِ وَالمَالِ.

وَأَمَّا المُرْجِئَةُ وَالجَهْمِيَّةُ فَقَدْ تَقَدَّمَ مَعَنَا أَنَّ مَنْهَجَهُمْ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ، فَمُرْتَكِبُ الكَبِيْرَةِ عِنْدَهُمْ مُؤمِنٌ كَامِلُ الإِيْمَانِ، وَلَا يَسْتَحِقُ دُخُولَ النَّارِ.

وَأَمَّا مَذْهَبُ أَهْلِ السُنَّةِ وَسَطٌ بَيْنَ هَذَيْنِ المَنْهَجَيْنِ، فَمُرْتَكِبُ الكَبِيْرَةِ عِنْدَهُمْ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيْمَانِ، وَقَدْ نَقَصَ مِنْهُ إِيْمَانٌ بِقَدْرِ مَا ارْتَكَبَ مِنْ المَعْصِيَةِ، فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ الإِيمَانَ أَصْلاً كَالخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَلَا يَقُولُونَ بِأَنَّهُ كَامِلَ الإِيْمَانِ كَالمُرْجِئَةِ وَالجَهْمِيَّةِ. وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] فَنَادَاهُمْ بِاسْمِ الإِيْمَانِ مَعَ وُجُودِ المَعْصِيَةِ وَهِيَ مُوَلَاةُ الكُفَّارِ.

وَأَمَّا حُكْمُهُ فِي الآخِرَةِ فَأَهْلُ السُنَّةِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ قَدْ يَعْفُوا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ فَيَدْخُلَ الجَنَّةَ ابْتِدَاءً، أَوْ يُعَذِبَهُ بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِ ثُمَّ يُخْرِجَهُ وَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ.

(١) هُمْ الخَوَارِجُ، وَسُمّوا بِذَلِكَ نِسْبَةً إِلَىٰ حَرُورَاءِ وَهِيَ بَلْدَةٌ بِالقُرْبِ مِنْ الكُوْفَةِ، وَإِلَيْهَا انْحَازُوا بَعْدَ خُرُوجِهُمْ عَلَىٰ عَلِيٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ فِيْهَا أَوَّلُ اجْتِمَاعٍ لَهُمْ.

وَيُسَمَّونَ أَيْضاً (المُحَكِّمَةُ) لِأَنَّهُمْ فَارَقُوا عَلِيّاً وَجَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ بِسَبَبِ التَحْكِيْمِ حِيْنَمَا زَعَمُوا أَنَّ عَلِيّاً حَكَّمَ الرِجَالَ. فَقَالُوا: لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ.

وَيُسَمَّوْنَ أَيْضاً (أَهْلُ النَهْرَوَانِ) نِسْبَةً لِلْمَكَانِ الَّذِي قَاتَلَهُمْ فِيْهِ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيسُمَّوْنَ أَيْضاً (الشُرَاةُ)، وَ(المَارِقَةُ)، وَ(المُكَفِّرَةُ)، وَ(النَاصِبَةُ).

وَالخَوَارِجُ هُمْ الَّذِيْنَ يُكَفِّرُونَ بِالكَبَائِرِ، وَيَخْرُجُونَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ وَجَمَاعَتِهِمْ.

وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الإِيْمَانَ شَيءٌ وَاحِدٌ لَا يَنْقُصُ، فَإِذَا ذَهَبَ بَعْضُهُ ذَهَبَ كُلُّهُ، وَيَتَمَيَّزُونَ بِالتَسَرُّعِ فِي تَكْفِيْرِ المُعَيَّنِ، دُوْنَ مُرَاعَاةٍ لِتَحْقِيْقِ الشُرُوْطِ وَانْتِفَاءِ المَوَانِعِ.

وَمِنْ أُصُولِهِمْ وَسِيمَاتِهِمْ[1]:

---

(١) انظر رسائل ودراسات في الأهواء والافتراق والبدع، للأستاذ الدكتور/ ناصر عبدالكريم العقل (٣٤-٣٦).

وَالمُعْتَزِلَةِ[1]، وَبَيْنَ المُرْجِئَةِ وَالجَهْمِيّةِ.....

١- التَكْفِيْرِ بِالكَبِيْرَةِ.

٢- الخُرُوْجِ عَلَىٰ أَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ.

٣- الخُرُوجِ عَلَىٰ جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ وَمُعَامَلَتِهِمْ مُعَامَلَةَ الكُفَّارِ فِي الدَّارِ وَالأَحْكَامِ، وَالبَرَاءَةِ مِنْهُمْ، وَامْتِحَانِهِمْ، وَاسْتِحْلَالِ دِمَائِهِمْ.

٤-صَرْفِ نُصُوصِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَهْيِ عَنْ المُنْكَرِ إِلَىٰ مُنَازَعَةِ الأَئِمَّةِ، وَالخُرُوجِ عَلَيْهِم.

٥-كَثْرَةِ القُرَّاءِ الجَهَلَةِ فِيْهِمْ وَالأَعْرَابِ.

٦-ظُهُورِ سِيْمَا الصَالِحِينَ فِيْهِمْ.

٧-ضَعْفِ الفِقْهِ فِي الْدِيْنِ.كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « يَقْرَؤونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ».

٨-الغُرُورِ وَالتَعَالُمِ.

٩-يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ.

(١) وَهِيَ فِرْقَةٌ تَنْتَسِبُ إِلَىٰ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ الغَزَّالِ، تَميزَتْ بِتَقْدِيْمِ العَقْلِ عَلَىٰ النَقْلِ، وَبِالأُصُولِ الخَمْسَةِ الَّتِي تُعْتَبَرُ قَاسِمًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ جَمِيْعِ فِرَقِهَا، وَمِنْ أَسْمَائِهَا القَدَرِيَّةِ، وَالوَعِيْدِيَّةِ، وَالعَدْلِيَةِ، وَسُمُّوا بِالمُعتزِلَةِ لِاعْتِزَالِ مُؤَسِسِهُمْ مَجْالِسَ الحَسَنِ البَصْرِي بَعْدَ خِلَافِهِ مَعَهُ حَوْلَ حُكْمِ الفَاسِقِ.

وَالأُصُولُ الخَمْسَةُ الَّتِي عِنْدَ المُعْتَزِلَةِ هِيَ:

١ - التَوْحِيْدُ:

وَيَعْنُونَ بِهِ إِثْبَاتُ وَحْدَانِيَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَنَفْيُ المِثْلِ عَنْهُ، وَيُرِيْدُونَ بِذَلِكَ نَفْيَ الصِفَاتِ عَنْ اللهِ، فَهُمْ لَا يَصِفُونَ اللهَ إلا بِالسُلُوبِ، فَيَقُولُونَ عَنْ اللهِ: لَا جَوْهَرَ وَلَا عَرَضَ، وَلَا طَوِيْلَ وَلَا قَصِيْرَ، وَلَا بِذِي لَوْنٍ وَلَا رَائِحَةٍ ...، وَأَمَّا الصِفَاتُ الثُبُوتِيَةُ كَالعِلْمِ وَالقُدْرَةِ فَيُنْفُونَهَا عَنْ اللهِ سُبْحَانَهُ تَحْتَ حُجَّةِ أَنَّ فِي إِثْبَاتِهَا إِثْبَاتٌ لِقِدَمِهَا، وَإِثْبَاتُ قِدَمِهَا إِثْبَاتٌ لِقَدِيْمٍ غَيْرَ اللهِ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الصِّفَةَ هِيَ عَيْنُ المَوْصُوفِ، قَالُوا: وَلَوْ شَارَكَتْهُ الصِفَاتُ فِي القِدَمِ الَّذِي هُوَ أَخَصُّ الوَصْفِ لَشَارَكَتْهُ فِي الأُلُوهِيَّةِ. فَكَانَ التَوْحِيْدُ عِنْدَهُمْ مُقْتَضِياً نَفْيَ الصِفَاتِ.

٢ - العَدْلُ:

وَيَعْنُونَ بِهِ قِيَاسَ أَحْكَامِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ مَا يَقْتَضِيْهِ العَقْلُ وَالحِكْمَةُ، وَبِنَاءً عَلَىٰ ذَلِكَ نَفَوا أُمُوراً وَأَوْجَبُوا أُخْرىٰ، فَنَفَوا أَنْ يَكُونَ اللهُ خَالِقاً لِأَفْعَالِ عِبَادِهِ وَقَالُوا: إِنَّ أَفْعَالَ العِبَادِ هُمْ الخَالِقُونَ لِأَفْعَالِ أَنْفُسِهِمْ إِنْ خَيْراً أَوْ شَرّاً.

وَأَوْجَبُوا عَلَىٰ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ فَعَلَ الأَصْلَحِ لِعِبَادِهِ، قَالَ الشَهْرَسْتَانِي: "وَاتَفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَا يَفْعَل إِلّا الصَلَاحَ وَالخَيْرَ، وَيَجِبُ مِنْ حَيْثُ الحِكْمَةِ رِعَايَةُ مَصَالِحِ العِبَادِ، وَأَمَّا الأَصْلَحُ وَاللُطْفُ فَفِي وُجُوبِهِ عِنْدَهُمْ خِلَافٌ وَسَمَّوا هَذَا النَمَطَ عَدْلاً."

وَقَالُوا أَيْضـًا: "بِأَنَّ العَقْلَ مُسْتَقِلٌ بِالتَحْسِيْنِ وَالتَقْبِيْحِ، فَمَا حَسَّنَهُ العَقْلُ كَانَ حَسَنـًا وَمَا قَبَّحَهُ كَانَ قَبِيْحـًا. وَأَوْجَبُوا الثَوَابَ عَلَىٰ فِعْلِ مَا اسْتَحْسَنَهُ العَقْلُ، وَالعِقَابَ عَلَىٰ فِعْلِ مَا اسْتَقْبَحَه."

٣- المَنْزِلَةُ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ:

وَهَذَا الأَصْلُ يُوَضِحُ حُكْمَ الفَاسِقِ فِي الدُنْيَا عِنْدَ المُعْتَزِلَةِ وَهِيَ المَسْأَلَةُ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيْهَا وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ مَعَ الحَسَنِ البَصْرِي، إِذْ يَعْتَقِدُ المُعْتَزِلَةُ أَنَّ الفَاسِقَ فِي الدُنْيَا لَا يُسَمَّىٰ مُؤْمِنـًا بِوَجْهٍ مِنْ الوجُوهِ، وَلَا يُسَمَّىٰ كَافِراً بَلْ هُوَ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ، فَإِنْ تَابَ رَجَعَ إِلَىٰ إِيْمَانِهِ وَإِنْ مَاتَ مُصِرّاً عَلَىٰ فِسْقِهِ كَانَ مِنْ المُخَلَدِيْنَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمِ.

٤-الوَعْدُ وَالوَعِيْدُ:

وَالمَقْصُودُ بِهِ إِنْفَاذُ الوَعِيْدِ فِي الآخِرَةِ عَلَىٰ أَصْحَابِ الكَبَائِرِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ فِيْهِمْ شَفَاعَةً وَلَا يُخْرِجُ أَحَداً مِنْهُمْ مِنْ النَّارِ فَهُمْ كُفَّارٌ خَارِجُونَ عَنْ المِلَّةِ خَالِدُونَ فِي نَارِ جَهَنَّمِ.

٥- الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَهْيُ عَنْ المُنْكَرِ:

لِذَلِكَ يَرَوْنَ قِتَالَ أَئِمَةِ الجَوْرِ لِمجُرَّدِ فِسْقِهِمْ، وَوجُوبَ الخُرُوجِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ القُدْرَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

هَذِهِ هِيَ الأُصُولُ الخَمْسَةُ المُتَفَقُ عَلَيْهَا بَيْنَهُمْ وَالَّتِي شُهِرُوا بِهَا، وَتَوجَدُ

وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَافِضَةِ[1].....

عَقَائِدُ أُخْرَىٰ لَهُمْ، وهي:

٦- نَفْيُ رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

حَيْثُ أَجْمَعَتْ المُعْتَزِلَةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ لَا يُرَىٰ بِالأَبْصَارِ فِي الدُنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ. قَالُوا: لَأَنَّ إثْبَاتَ الرُؤْيَةِ يَلْزَمُ مِنْهُ إثْبَاتُ الجِهَةِ للهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ الجِهَةِ وَالمَكَانِ. وَتَأَوَّلُوا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] أَيْ مُنْتَظِرَةٌ.

٧- القَوْلُ بِأَنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ:

وَقَالُوا: إِنَّ اللهَ كَلَّمَ مُوسَىٰ بِكَلَامٍ أَحْدَثَهُ فِي الشَجَرَةِ.

٨- نَفْيُ عُلُوِ اللهِ وَالاسْتِوَاءِ عَلَىٰ العَرْشِ، وَيُؤَوِلُونَهُ بِالاسْتِيلَاءِ.

٩- نَفْيُ شَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَتِهِ.

١٠- نَفْيُ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ ثَابِتَةً لَاشْتَبَهَ الوَلِيُ بِالنَّبِيِّ.

(١) الرَفْضُ فِي اللُغَةِ هُوَ التَرْكُ. يُقَالُ: رَفَضْتُ الشَيءَ أَيْ تَرَكْتُهُ.

وَالرَافِضَةُ فِي الاصْطِلَاحِ: هِيَ إِحْدَىٰ الفِرَقِ المُنْتَسِبَةِ لِلْتَشَيُّعِ لِآلِ البَيْتِ مَعَ البَرَاءَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَسَائِرِ الصَحَابَةِ إِلَّا قَلِيْلاً مِنْهُمْ بَلْ وَيُكَفِرُونَهُمْ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: الرَافِضَةُ هُمْ الَّذِيْنَ يَتَبَرَّؤُنَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَسُبُونَهُمْ وَيَنْتَقِصُونَهُمْ.

وَقَدْ انْفَرَدُوا بِهَذَا مِنْ بَيْنِ الفِرَقِ المُنْتَسِبَةِ لِلإِسْلَامِ.

وَالخَوَارِجِ(١) ....

وَيَرَىٰ جُمْهُورُ المُحَقِقِيْنَ أَنَّ سَبَبَ إِطْلَاقِ التَسْمِيَةِ هُوَ رَفْضِهِمْ لِزَيْدِ بْنِ عَلِي رَحِمَهُ اللهُ وَتَفَرُقِهِمْ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي جَيْشِهِ، حِيْنَ خُرُوجِهِ عَلَىٰ هِشَامِ بْنِ عَبْدِالمَلِكِ فِي سَنَةِ ١٢١هـ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَظْهَرُوا البَرَاءَةَ مِنْ الشَيْخَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَمِنْ عَقَائِدِ الرَافِضَةِ:

١- القَولِ بِالبَدَاءِ عَلَىٰ اللهِ، وَهُوَ الظُهُورُ بَعْدَ الخَفَاءِ، وَيُعَبِّرُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ: نَشْأَةُ رَأيٍ جَدِيْدٍ.

٢- انْكَارِ الصِفَاتِ، لِذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: لَا يُوصَفُ بِزَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ وَلَا كَيْفِيَةٍ وَلَا حَرَكَةٍ وَلَا انْتِقَالٍ، وَلَا شَيءٍ مِنْ صِفَاتِ الأَجْسَامِ وَلَا حِسًّا وَلَا جِسْمًا وَلَا صُورَةً.

٣- يَعْتَقِدُونَ أَنَّ القُرْآنَ الَذِي بَيْنَ أَيْدِيْنَا مُحَرَّفٌ زِيْدَ فِيْهِ وَأُنْقِصَ وَقَدْ أَلَّفَ النَوْرِي الطَبَرِسِي كِتَابًا بِعِنْوَانِ (فَصْلَ الخِطَابِ فِي تَحْرِيْفِ كِتَابِ رَبِّ الأَرْبَابِ).

٤- تَكْفِيْرِ جُلِّ الصَحَابَةِ وَسَبِّهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ مَعَنَا.

(١) وَمِنْ المَعْلُومِ أَنَّ الرَافِضَةَ - قَبَّحَهُمْ اللهُ - يَسُبُونَ الصَحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَيَلْعَنُونَهُمْ، وَرُبَّمَا كَفَّرُوهُمْ أَوْ كَفَّرُوا بَعْضَهُمْ، وَالغَالِبِيَةُ مِنْهُمْ مَعَ سَبِّهِمْ لِكَثِيْرٍ مِنْ الصَحَابَةِ وَالخُلَفَاءِ، يَغْلُونَ فِي عَلِيٍ وَأَوْلَادَهُ.

وَقَدْ ظَهَرَ هَؤُلَاءِ فِي حَيَاةِ عَلِيٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِزَعَامَةِ عَبْدِاللهِ بْنِ سَبَأ الَّذِي كَانَ

يَهُودِيـًا وَأَسْلَمَ وَأَرَادَ أَنْ يَكِيْدَ لِلإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، كَمَا كَادَ بُولِيسْ اليَهُودُيُ مِنْ قَبْلُ لِلْنَصْرَانِيَةِ وَأَفْسَدَهَا عَلَىٰ أَهْلِهَا، وَقَدْ حَرَّقَهُمْ عَلِيٌ بِالْنَّارِ لِإِطْفَاءِ فِتْنَتَهُمْ.

وَأَمَّا الخَوَارِجُ فَقَدْ قَابَلُوا هَـؤلَاءِ الرَوَافِضَ فَكَفَّرُوا عَلِيـًا وَمُعَاوِيَةَ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنْ الصَحَابَةِ، وَقَاتَلُوهُمْ وَاسْتَحَلّوا دِمَائَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَنَاصَبُوا آلَ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ العَدَاءَ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فَهَدَاهُمْ اللهُ إِلَىٰ الاعْتِرَافِ بِفَضْلِ أَصْحَابِ نَبِيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ أَكْمَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِيْمَانـًا وَإِسْلَامـًا وَعِلْمـًا وَحِكْمَةً، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَغْلُوا فِيْهِمْ وَلَمْ يَعْتَقِدُوا عِصْمَتَهُمْ بَلْ قَامُوا بِحُقُوقِهِمْ، وَأَحَبُوهُمْ لِعَظِيْمِ سَابِقَتِهِمْ، وَحُسْنِ بَلَائِهِمْ لِنُصْرَةِ الإِسْلَامِ، وَجِهَادِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَصْـــلٌ

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ الإِيْمَانِ بِاللهِ الإِيْمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُوْلِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمّةِ، مِنْ أَنّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ فَإِنّ هَذَا لَا تُوْجِبُهُ اللُغَةُ، [وَهُوَ خِلافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمّةِ، وَخِلافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الخَلْقَ] بَلْ القَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَعَ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَمَاءِ وَهُوَ مَعَ المُسَافِرِ وَغَيْرِ المُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ رَقِيْبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَلِعٌ عَلَيْهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَتِهِ.

وَكُلُّ هَذَا الكَلامِ الّذِي ذَكَرَهُ اللهُ -مِنْ أَنّهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَأَنّهُ مَعَنَا- حَقٌّ عَلَى حَقِيْقَتِهِ، لا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنْ الظُنُونِ الكَاذِبَةِ، مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، أَنّ السَمَاءَ تُضِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيْمَانِ، فَإِنّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُهُ السَمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَهُوَ يُمْسِكُ السَمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا، وَيُمْسِكُ السَمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ.....

فَصْـــلٌ

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيْمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيْبٌ مِنْ خَلْقِه مُجِيْبٌ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ بِقَوْلِه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ..﴾ [البقرة: ١٨٦] الآيَة، وَقَوْلِه ﷺ: « إنّ الّذي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِه »(١).

وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُنّة فِي قُرْبِه وَمَعِيّتِه لا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِه وَفَوْقِيّتِه، فَإِنّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِه شَيءٌ فِي جَمِيْعِ نُعُوتِه..

---

(١) المُصَنِفُ رَحِمَهُ اللهُ ذَكَرَ صِفَةَ القُرْبِ بَعْدَ المَعِيَّةِ، لِأَنَّ طَائِفَةً مِنْ العُلَمَاءِ المُتَقَدِمِيْنَ وَالمُتَأَخِرِيْنَ يُفَسِرُونَ القُرْبَ بِالمَعِيَةِ، كَمُقَاتِلَ بْنِ حَيَّانَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ أَبِي زَمَنِيْنَ وَغَيْرِهِمْ يَقُوْلُونَ: قُرْبَ العِلْمِ وَالمَعِيَةِ.

وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ القُرْبَ صِفَةٌ مُغَايِرَةٌ لِلْمَعِيَّةِ، لِأَنَّ المَعِيَةَ لَا يَلْزَمُ مِنْهَا القُرْبَ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الشَيءُ مَعَ الشَيءِ وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ شَاسِعٌ كَمَا تَقَدَّمَ مَعَنَا.

وَالقُرْبُ صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ اخْتِيَارِيَّةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ يَقْرُبُ مِمَّنْ شَاءَ، كَيْفَمَا شَاءَ، قُرْبًا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

وَقُرْبُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا لَمْ يَرِدْ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ عَامًّا كَالمَعِيَّةِ، وَإِنَّمَا وَرَدَ خَاصًا، وَهُوَ نُوْعَانِ:

١- قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيْهِ بِالإِجَابَةِ.

٢- قُرْبُهُ مِنْ مُطِيْعِهِ بِالإِثَابَةِ.

وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه قَرِيْبٌ فِي عُلُوِّه[1]. وَمِنْ الإِيْمَانِ بِاللهِ وَكُتُبِه الإِيْمَانُ بِأَنّ القُرْآنَ الكَرِيْمَ كَلامُ اللهِ، مُنَزّلٌ، غَيْرَ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ[1] وَإِلَيْهِ يَعُودُ[2] وَأَنّ اللهَ مُتَكَلّمٌ بِهِ حَقِيْقَةً، وَأَنّ هَذَا القُرْآنَ الّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيْقَةً، لا كَلامَ غَيْرِه. وَلَا يَجُوزُ إِطْلاقُ القَوْلِ بِأَنّهُ حِكَايَةً عَنْ كَلامِ اللهِ أَوْ عِبَارَةً، بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المَصَاحِفِ، لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيْقَةً، فَإِنّ الكَلامَ إِنّمَا يُضَافُ حَقِيْقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئاً، لا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِغاً مُؤَدِّياً.....

---

(١) هَذِهِ مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ وَهِيَ وُجُوبُ اعْتِقَادِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ مِنْ القُرْبِ وَالدُّنُوِ وَالنُّزُولِ وَالإِتْيَانِ وَالمَجِيءِ وَالاسْتِوَاءِ وَالعُلُوِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِفَاتِ. وَلَا يَرُدُّ ذَلِكَ أَنَّ اجْتِمَاعَ هَذِهِ الأَوْصَافُ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ المَخْلُوقِ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ المُنَاسِبُ لِلْمَخْلُوقِ وَأَمَّا الخَالِقُ جَلَّ وَعَلَا فَإِنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ.

(١) أَيْ أَنَّ اللهَ هُوَ المُتَكَلِمُ بِهِ وَلَمْ يَخْلُقْهُ فِي غَيْرِهِ، فَيَكُونُ كَلَاماً لِذَلِكَ المَحِلِّ الَّذِي خَلَقَهُ فِيْهِ، كَمَا يَقُولُ المُعْتَزِلَةُ، لِأَنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ صِفَةً مِنْ الصِفَاتِ فِي مَحِلٍ كَانَتْ الصِفَةُ صِفَةً لِذَلِكَ المَحَلِ وَلَمْ تَكُنْ صِفَةً لِرَبِّ العَالَمِيْنَ، لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا إِنَّمَا يَتَصِفُ بِمَا يَقُومُ بِهِ مِنْ الصِفَاتِ لَا بِمَا يَخْلُقُهُ فِي غَيْرِهِ مِنْ المَخْلُوقَاتِ.

(٢) أَيْ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي آخِرِ الزَمَانِ حِيْنَ يُرْفَعُ مِنْ المَصَاحِفِ وَالصُدُورِ، كَمَا

جَاءَ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: « يُدْرَسُ الإِسْلَامُ كَمَا يُدْرَسُ وَشِيُ الثَوبِ، حَتَّىٰ لَا يُدْرَىٰ مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ، وَلْيُسْرَىٰ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَىٰ فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَىٰ طَوَائِفٌ مِنْ النَّاسِ: الشَيْخُ الكَبِيْرُ، وَالعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فَنَحْنُ نَقُولُهَا ».

وَهَذِهِ المَقُولَةُ مَأْثُوْرَةٌ عَنْ عَمْرُوِ بْنِ دِيْنَارٍ: وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ إِلَّا القُرْآنُ فَإِنَّهُ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

(فَائِدَةٌ):

جَاءَ عَنْ الإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَالَ لَفْظِيْ بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٍ فَهُوَ جَهْمِيٌ، وَمَنْ قَالَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ.

وَقَالَ الإِمَامُ البُخَارِيُ رَحِمَهُ اللهُ الكَلَامُ كَلَامُ البَارِي، وَالصَوْتُ صُوتُ القَارِئ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ أَحْمَدَ أَرَادَ سَدَّ الذَرِيْعَةِ حَيْثُ مَنَعَ إِطْلَاقَ لَفْظِ المَخْلُوقِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا عَلَىٰ اللَّفْظِ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ عِلْمِهِ بِاللُّغَةِ وَالسُنَّةِ وَالَّذِي قَصَدَهُ أَنَّ اللَّفْظَ إِذَا أُطْلِقَ يُرَادُ بِهِ أَمْرَانِ:

أَحَدُهُمَا: المَلْفُوظُ نَفْسُهُ وَهُوَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ وَلَا فِعْلٌ لَهُ.

الثَانِي: التَلَفُّظُ بِهِ، والأَدَاءُ لَهُ وَهُوَ فِعْلُ العَبْدِ. فَإِطْلَاقُ الخَلْقِ عَلَىٰ اللَّفْظِ قَدْ يُوهِمُ إِرَادَةَ المَعْنَىٰ الأَوَّلِ، وَهَذَا خَطَأٌ. وَإِطْلَاقُ نَفْيِ الخَلْقِ عَلَيْهِ قَدْ يُوهِمُ

وَهُوَ كَلامُ اللهِ، حُرُوفُهُ، وَمَعَانِيْهُ، لَيْسَ كَلامُ اللهِ الحُرُوفُ دُوْنَ المَعَانِي[1]، وَلا المَعَانِي دُونَ الحُرُوفِ[2].

وَقَدْ دَخَلَ أَيْضاً فِيْمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيْمَانِ بِهِ بِكُتُبِهِ وَبِمَلائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإِيْمَانُ بِأَنَّ المُؤمنينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عِيَاناً بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْواً لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لا يُضَامُونَ فِي رُؤيَتِهِ[3].....

المَعْنَىٰ الثَانِي وَهُوَ خَطَأٌ، فَمَنَعَ مِنَ الإِطْلَاقَيْنِ.

وَالبُخَارِيُّ فَصَّلَ وَمَيَّزَ وَأَشْبَعَ الكَلَامَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ مَا قَامَ بِالرَبِّ، وَبَيْنَ مَا قَامَ بِالعَبْدِ، وَأَوْقَعَ المَخْلُوقَ عَلَىٰ تَلَفُّظِ العِبَادِ وَأَصْوَاتِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَأَكْسَابِهِمْ، وَنَفَىٰ اسْمَ الخَلقِ عَنْ المَلْفُوظِ وَهُوَ القُرْآنُ. اهـ[1]

(١) وَهُوَ قَوْلُ المُعْتَزِلَةِ، وَبَعْضِ أَهْلِ الكَلَامِ أَنَّ القَوْلَ وَالكَلَامَ عِنْدَ الإِطْلَاقِ اسْمٌ لِلَّفْظِ فَقَط، وَأَمَّا المَعَانِي فَلَيْسَ جُزْءً مِنْ مُسَمَّاهُ بَلْ هُوَ مَدْلُولُ مُسَمَّاهُ.

(٢) وَهُوَ قَوْلُ الأَشَاعِرَةِ القَائِلُونَ بِالكَلَامِ النَفْسِي.

(٣) وَاخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ فِي رُؤيَةِ المُنَافِقِيْنَ لِرَبِّهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

الأَوَّل: لَا يَرَاهُ إِلَّا المُؤمِنُونَ، وَهَذَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ السَّلَفِ وَالخَلَفِ وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَرَجَّحَهُ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ وَشَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَة.

الثَانِي: يَرَاهُ جَمِيْعُ أَهْلِ المَوْقِفِ مُؤمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنْ الكُفَّارِ فَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لَكِنْ رُؤْيَةُ الكُفَّارِ لَيْسَتْ رُؤيَةَ إِكْرَامٍ وَإِنَّمَا رُؤيَةُ تَعْرِيْفٍ

(١) مختصر الصواعق (٥١٣) بتصرف.

وَتَعْذِيْبٍ كَاللِّصِ إِذَا رَأَىٰ السُلْطَانَ ثُمَّ احْتَجَبَ عَنْهُ لِيَعْظُمَ عَذَابُهُ وَيَشْتَدَّ عِقَابُهُ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَقَالَ بِهَا بَعْضُ الحَنَابِلَةِ.

الثَالِث: يَرَاهُ المُنَافِقُونَ دُونَ الكَفَّارِ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ الإِمَامِ أَحْمَدَ.

اسْتَدَلَّ أَصْحَابُ القَوْلِ الأَوَّلِ بِقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وَبِمَا جَاءَ عَنْ الشَافِعِي وَمَالِكٍ فِي ذَلِكَ.

وَقَالَ القَاضِي أَبُويَعْلَىٰ وَغَيْرِهِ: كَانَتْ الأُمَّةُ فِي رَؤيَةِ اللهِ بِالأَبْصَارِ عَلَىٰ قَوْلَيْنِ:

- مِنْهُمْ المُحِيْلُ لِلرُؤيَةِ عَلَيْهِ، وَهُمْ المُعْتَزِلَةُ.
- وَالفَرِيْقُ الآخَرُ أَهْلُ الحَقِ وَالسَّلَفِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ مُتَفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ المُؤمِنِيْنَ يَرَوْنَ اللهَ فِي المَعَادِ، وَأَنَّ الكَافِرِيْنَ لَا يَرَوْنَهُ.
- فَثَبَتَ بِهَذَا إِجْمَاعُ الأُمَّةِ مِمَّنْ يَقُولُ بِجَوَازِ الرُؤيَةِ وَمِمَّنْ يُنْكِرُهَا عَلَىٰ مَنْعِ رُؤْيَةِ الكَافِرِيْنَ للهِ، وَكُلُّ قَوْلٍ حَادِثٍ بَعْدَ الإِجْمَاعِ فَهُوَ بَاطِلٌ[1].

واسْتَدَلَّ أَصْحَابُ القَولِ الثَانِي بِعُمُومِ قَوْلِهِ ﷺ: « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ ».

وَاسْتَدَلَّ أَصْحَابُ القَوْلِ الثَالِثِ بِمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤيَةِ القَمَرِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ »، قَالُوا: لَا، ثُمَّ

(١) مجموع الفتاوىٰ لشيخ الإسلام (٦/ ٥٠١).

قَالَ: « فَإِنَّكُمْ سَتَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَوَاغِيْتَ، وَتَبْقَىٰ هَذِهِ الأُمَّةُ فِيْهَا مُنَافِقُوهَا فَيَأْتِيَهُمْ فِي غَيْرِ الصُورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُكُمْ، فَيَقُوْلُونَ: نَعُوْذ بِاللهِ مِنْكَ !! هَذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ يَجِيءَ رَبُنَا، فَإِذَا أَتَانَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيَهُمْ اللهُ فِي الصُورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُنَا فَيَتْبَعُونَهُ »[1].

وَجَاءَ نَحْوُهُ عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ وَفِيْهِ: « فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤمِنٍ، وَيَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ طَبَقًا وَاحِداً »[2].

(١) أخرجه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٢٩٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٥)، ومسلم (١٨٣).

فَصْـــلٌ

وَمِنْ الإيْمَانِ بِاليَومِ الآخِرِ الإيْمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمّا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ، فَيُؤمِنُ بِفِتْنَةِ[1] القَبْرِ، وَبِعَذَابِ القَبْرِ وَنَعِيمِه[2].

فَأَمّا الفِتْنَةُ، فَإنّ النّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ لِلرَجُلِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِيْنُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُكَ؟.....

---

(١) أَصْلُ الفِتْنَةِ وَضْعُ الذَهَبِ وَنَحْوِهِ عَلَىٰ النَّارِ لِتَخْلِيْصِهِ مِنْ الأَوْضَارِ وَالعَنَاصِرِ الغَرِيْبَةِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ فِي الاخْتِبارِ وَالامْتِحَانِ.

(٢) لِأَنَّ كُلَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الصَادِقُ المَصْدُوقُ ﷺ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ فَإنَّهُ يَجِبُ الإيْمَانُ بِهَا إيْمَانًا جَازِمًا، لِأَنَّ الإيْمَانَ بِالْيَومِ الآخِرِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الإيْمَانِ السِتَّةِ لَا يَتِمُّ وَلَا يَتَحَقَقُ إِلَّا إِذَا آمَنَ العَبْدُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ.

وَأَمَّا أَهْلُ المُرُوقِ وَالإلحَادِ مِنْ الفَلَاسِفَةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، فَيُنْكِرُونَ سُؤَالَ القَبْرِ، ونَعِيمَهُ، وَعَذَابَهُ، وَالصِرَاطَ، وَالمِيْزَانَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، بِدَعْوَىٰ أَنَّهَا لَمْ تَثْبُتْ بِالعَقْلِ، وَالعَقْلُ عِنْدَهُمْ هُوَ الحَاكِمُ الأَوَّلُ الَّذِي لَا يَجُوزُ الإيْمَانُ بِشَيءٍ إِلَّا عَنْ طَرِيْقِهِ، وَهُمْ يَرُدوْنَ الأَحَادِيْثَ الوَارِدَةَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ بِدَعْوَىٰ أَنَّهَا أَحَادِيثُ آحَادٍ لَا تُقْبَلُ فِي بَابِ الاعْتِقَادِ، وَأَمَّا الآيَاتُ فَيُؤَوِّلُونَهَا بِمَا يَصْرِفُهَا

عَنْ مَعَانِيْهَا[1].

(١) وقالوا : إنَّ النَّاظر في القبور لا يجد شيئـًا مما أخبر به النّبيّ ﷺ!!

والجواب عليهم من وجوه :

١- أنَّ ما أخبرت به الرسل قسمان:

(الأول) ما يشهد العقل والفطرة السليمة به .

(الثاني) ما لا تدركه العقول بمجردها كالغيوب التي أخبر عنها.

٢- أنَّ الله جعل الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. وجعل لكل دار أحكامـًا تختص بها، وركَّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا علىٰ الأبدان، والأرواح تبع لها، ولهذا جعل أحكام الشّريعة مرتّبة علىٰ ما يظهر من حركات الإنسان.

فالعقوبات الدنيوية تقع علىٰ البدن الظاهر وتتألم الروح بالتبعية.

وجعل أحكام البرزخ علىٰ الأرواح والأبدان تبعٌ لها في نعيمها وعذابها، وكان العذاب والنعيم علىٰ الروحِ، والبدنُ تابعٌ للروح علىٰ عكس دار الدنيا، فإذا كان يوم الحشر لدار القرار صار الحكم من النعيم والعذاب علىٰ الأرواح والأبدان.

٣- أنَّ نار البرزخ ليست كنار الدنيا مشاهدة بل نار البرزخ وإن كانت أشدُّ من نار الدنيا ولكن لا تصيب إلا من هي عليه دون من مسَّها من أهل الدنيا بل ربما دفن الرجلان في قبر واحد فيكون أحدهما منعمـًا والآخر معذبـًا.

٤- يحدث في الدنيا ما هو أعجب من ذلك فهذا جبريل ينزل علىٰ النّبيّ ﷺ فيتمثل له، ويكلمه بكلام يسمعه النّبيّ ﷺ، وأمّا من بجانب النّبيّ ﷺ لا يرىٰ جبريل ولا يسمع كلامه.

وسرُّ المسالة أنَّ توسعة القبر وضيقه وإضاءته وخضرته وناره ليس من جنس المعهود في هذا العالم بل أمورها وأحوالها مخالفة لأمور الدنيا وأحوالها.

فَيُثَبِّتُ اللهُ الّذِيْنَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ المُؤمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلامُ دِيْنِي، وَمُحَمّدٌ ﷺ نَبِيِّ. وَأَمّا المُرْتَابُ فَيَقُوْلُ: هَاهَ هَاهَ، لا أَدْرِي، سَمِعْتُ النّاسَ يَقُوْلُونَ شَيْئاً فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبّةٍ مِنْ حَدِيْدٍ، فَيَصِيْحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيءٍ إلا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ لَصُعِقَ(١).

ثُمّ بَعْدَ هَذِهِ الفِتْنَةِ إِمّا نَعِيْمٌ وَإِمّا عَذَابٌ(٢)، إِلَى أَنْ تَقُومَ القِيَامَةُ الكُبْرَى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ.....

---

(١) وَفِتْنَةُ القَبْرِ تَكُونُ لِلْمُؤمِنِ وَالمُنَافِقِ وَالكَافِرِ كَمَا قَالَ جُمْهُورُ العُلَمَاءِ وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ ابْنُ عَبْدِالبَرِ وَالسُيُوطِي وَقَالَا: إِنَّهَا تَكُونُ لِلْمُؤمِنِ وَالمُنَافِقِ فَقَطْ وَلَا تَكُونُ لِلْكَافِرِ.

وَالصَحِيْحُ هُوَ قَوْلُ الجُمْهُورِ وَاخْتَارَهُ ابْنُ القَيّمِ وَيَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قوله تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وَلِعُمُومِ الأَحَادِيْثِ الدَالَةِ عَلَىٰ فِتْنَةِ القَبْرِ.

(٢) وَالدَلِيْلُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي حَقِّ آلِ فِرْعَونَ: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥].

وَتَقُومُ القِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِه، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِه(١)، وَأَجْمَعَ عَلَيهَا المُسْلِمُونَ(٢). فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ(٣) لِرَبِّ العَالَمِينَ

(١) وَالأَدِلَّةُ عَلَىٰ البَعْثِ وَالنُّشُورِ كَثِيْرَةٌ مِنْهَا قَوْلُهُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، وَقَولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٦ – ٧].

(٢) وَحَكَىٰ الإِجْمَاعَ عَلَىٰ ذَلِكَ الرَاغِبُ الأَصْفَهَانِيُ(١)، وَالبَغْدَادِيُ(٢)، وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ إِلَّا البُوذِيُونَ، وَالصَابِئَةُ، وَمُشْرِكِي العَرَبِ بَلْ كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ يُؤمِنُونَ بِالبَعْثِ مِنْهُمْ عَبْدُالمُطَلِبِ، وَزَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ الصَلْتِ، وَقِسُ بْنُ سَاعِدَةَ، وَالنَابِغَةُ الذِبْيَانِي وَغَيْرُهُمْ.

(٣) وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَذِنَ بِانْقِضَاءِ هَذِهِ الدُنْيَا أَمَرَ إِسْرَافِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَنْفُخَ فِي الصُورِ وَهُوَ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيْهِ النَفْخَةُ الأُوْلَىٰ(٣)، فَيُصْعَقُ كُلُّ مَنْ فِي

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (١٠٦).

(٢) الفرق بين الفرق (٣٤٨).

(٣) واختلف العلماء في عدد النفخات علىٰ قولين:

الأول: أنّها ثلاث نفخات، واختاره الرازي، وابن كثير، وابن العربي، والألوسي، والشوكاني، وغيرهم.

الثاني: إنّها نفختان، واختاره القرطبي.

السَمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، فَتُصْبِحُ الأَرْضُ صَعِيْداً جُرُزاً، وَالجِبَالُ كَثِيْبًا مَهِيْلاً، وَيَحْدُثُ كُلُّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، لَا سِيَّمَا فِي سُوَرَةِ التَكْوِيْرِ وَالانْفِطَارِ وَهَذَا آخِرُ أَيَّامِ الْدُنْيَا.

ثُمَّ يَأمُرُ اللهُ السَمَاءَ فَتُمْطِرُ كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « ثمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنْ السَمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، وَلَيْسَ مِنْ الإِنْسَانِ شَيءٌ إِلَّا يَبْلَىٰ إِلَّا عَظْمًا وَاحِداً وَهُوَ عَجَبُ الذَنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ[1]، حَتَّىٰ إِذَا تَمَّ خَلْقُهُمْ وَتَرْكِيْبُهُمْ، أَمَرَ اللهُ إِسْرَافِيْلَ بِأَنْ يَنْفُخَ فِي الصُورِ النَفْخَةَ الثَانِيَةَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِن الأَجْدَاثِ أَحْيَاءً، فَيَقُولُ الكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ حِيْنَئِذٍ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢]، ويقول المؤمنون:

الأولون استدلوا بما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: « ينفخ في الصور ثلاث نفخات، الأولىٰ نفخة الفزع ، الثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين تبارك وتعالىٰ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة... ». أخرجه أبويعلىٰ الموصلي والبيهقي، انظر إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة.

واستدلّ الآخرون بقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. فالأولىٰ يحصل بها الصعق، والثانية يحصل بها البعث، وبما جاء في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ ﷺ قال: « ما بين النفختين أربعون ».

(١) أخرجه البخاري (٤٦٥١)، ومسلم(٢٩٥١).

حُفَاةً[١] غُرْلاً، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَمْسُ، وَيَلجِمُهُمْ العَرَقُ[٢] فَتُنْصَبُ المَوَازِيْنُ[٣].....

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

(١) أَيْ أنَّ المَلَائِكَةَ تَسُوقُهُمْ إِلَىٰ أَرْضِ المَحَشَرِ حُفَاةً غَيْرَ مُنْتَعِلِيْنَ وَعُرَاةً غَيْرَ مُكْتَسِيْنَ، غُرْلاً غَيْرَ مُخْتَتِنِيْنَ، جَمْعُ أَغْرَلُ، وَهُوَ الأَقْلَفُ، وَالغُرْلَةُ هِيَ القَلَفَةَ.

كَمَا جَاءَ فِي حَدِيْثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً »[١].

(٢) فَإِذَا اشْتَدَّ بِهِمْ الأَمْرُ، وَعَظُمَ الكَرْبُ، اسْتَشْفَعُوا إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالرُسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيْهِ، وَكُلُّ رَسُولٍ يُحِيْلُهُمْ إِلَىٰ مَنْ بَعْدَهُ، حَتَّىٰ يَأْتُوا نَبِيَّنَا ﷺ، فَيَقُولُ: « أَنَا لَهَا أَنَا لَهَا » وَيَشْفَعُ فِيْهِمْ، فَيَنْصَرِفُونَ إِلَىٰ فَصْلِ القَضَاءِ.

(٣) كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

هَذَا المُقَرَّرُ عِنْدَ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَبَعْضُهُمْ حَكَىٰ الاتِفَاقَ عَلَىٰ ذَلِكَ، لِمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَبَعْضِ الصَحَابَةِ فِي إِثْبَاتِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ لِحَدِيْثِ البِطَاقَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ الأَحَادِيْثِ.

وَهِيَ مَوَازِيْنٌ حَقِيْقِيَةٌ، كُلُّ مِيْزَانٍ مِنْهَا لَهُ كِفَتَانِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٩).

فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ العِبَادِ(١) ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ **[المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣].....**

(١) الَّذِي يُوزَنُ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءٍ: العَامِلُ، وَالعَمَلُ، وَصُحُفُ الأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ وَابْنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُ.

وَالدَلِيْلُ عَلَىٰ وَزْنِ العَامِلِ مَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّهُ لَيُؤتَىٰ بِالْرَجُلِ السَمِيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] »[(١)]، وَلِحَدِيْثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي عُودَ أَرَاكٍ، وَكَانَ دَقِيْقَ السَاقَيْنِ فَجَعَلَتْ الرِيْحُ تَكْفَؤُه، فَضَحِكَ القَوْمُ مِنْهُ، رسول الله ﷺ: «مِمَّا تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نبيَّ الله مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيْزَانِ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ »[(٢)].

وَأَمَّا وَزْنُ العَمَلِ فَدَلِيْلُهُ مَا جَاءَ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « الطَهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ، وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ المِيْزَانِ »[(٣)]، وَعَنْ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٥)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٩١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « كَلِمَتَانِ خَفِيْفَتَانِ عَلَىٰ اللِسَانِ ثَقِيْلَتَانِ فِي المِيْزَانِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيْمِ »(١).

وَالعَمَلُ عَرَضٌ يُوزَنُ بِقُدْرَةِ اللهِ دُونَ تَحْوِيْلِهِ إِلَىٰ جِسْمٍ أَوْ نُوْرٍ أَوْ ظُلْمَةٍ مَعَ أَنَّهُ لَا مَانِعَ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ الأَعْرَاضَ إِلَىٰ أَجْسَامٍ لَكِنْ القَوْلَ بِأَنَّهُ لَا يَزِنَهَا إِلَّا إِذَا حَوَّلَهَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيْلٍ.

وَأَمَّا دَلِيْلُ وَزْنِ صَحَائِفِ الأَعْمَالِ حَدِيْثُ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « يُصَاحُ بِرَجُلٍ فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍ مِثْلَ مَدِّ البَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبُّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبُّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَيُخْرِجُ بِطَاقَةً فِيْهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبُّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ فَتُوضَعُ السِجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتْ السِجِلَاتُ وَثَقُلَتْ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيءٌ »(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) أخرجه ابن ماجة (٤٣٠٠)، والحاكم (١٩٣٧)، وصححه الألباني.

وَيُحَاسِبُ[1] اللهُ[2] الخَلائِقَ[3]، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، كَمَا وَصَفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَأَمَّا الكُفَّارُ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ، فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُجْزَوْنَ بِهَا. ....

---

(١) المُرَادُ بِالمُحَاسَبَةِ هُنَا تَذْكِيْرُهُمْ وَإِنْبَاؤُهُمْ بِمَا قَدَّمُوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ[1]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وَقَالَ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

(٢) وَالَّذِي يَتَوَلَّىٰ مُحَاسَبَةَ الخَلَائِقِ رَبُّ العَالَمِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦]، وَقَالَ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وَفِي الحَدِيْثِ القُدُسِي: « يَا عِبَادِي إِنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيْهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلّا نَفْسَهُ »[2].

(٣) الَّذِيْنَ يَشْمَلُهُمْ الحِسَابُ هُمْ:

---

(١) لا كما يقول القاضي عبدالجبار المعتزلي: إنَّه يكون بخلق العلم الضروري في قلب العبد، أنّه يستحق من الثواب كذا، ومن العقوبة كذا. انظر شرح الأصول الخمسة له (٧٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

وَالصِرَاطُ[1] مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ.....

١- الأَنْبِيَاءُ يُسْأَلُونَ عَنْ تَبْلِيغِهِمْ الدَعْوَةَ إِلَىٰ أَقْوَامِهِمْ لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَىٰ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ سُؤَالَ مُنَاقَشَةٍ وَتَقْرِيعٍ، كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ ومُحَمَّدُ الأَمِيْنَ الشِنْقِيْطِي وَغَيْرُهُمْ، وَدَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

٢- المُؤمِنُونَ مِنْ أَتْبَاعِ الأَنْبِيَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]. إِلَّا السَبْعُونَ الأَلْفَ الَّذِيْنَ وَرَدَ النَصَّ بِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُحَاسَبُونَ.

٣- الكُفَّارُ كَمَا هُوَ الصَحِيْحُ مِنْ قَوْلَي أَهْلِ العِلْمِ، قَالَ بِهِ أَبُوحَفْصٍ المَكِي مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ، وَأَبُوسُلَيْمَانَ الدِمَشْقِي، وأَبُوطَالِبٍ المَكِي، وَالقُرْطُبِيُ، وَالفَخْرُ الرَازِيُ وَغَيْرُهُمْ، وَحِسَابُهُمْ لَا يَكُونُ بِوَزْنِ أَعْمَالِهِمْ لِأَنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَىٰ وَيَقِفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

(١) لُغَةً: هُوَ الطَرِيْقُ الوَاضِحُ المُسْتَقِيْمُ، واصْطِلَاحًا: جِسْرٌ مَمْدُودٌ عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّمَ، أَرَقُ مِنْ الشَعْرَةِ، وَأَحَدُ مِنْ السَيْفِ، يَعْبُرُهُ الخَلَائِقُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُ كَلَمْحِ البَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُ كَالبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُ كَالرِيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُ كَالفَرَسِ الجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُ كَرَاكِبِ الإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْواً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْياً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحُفُ زَحْفاً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ خَطْفاً، وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمِ، فَإِنّ الجِسْرَ عَلَيْهِ كَلالِيْبٌ تَخْطَفُ النّاسَ بِأعْمَالِهِمْ فَمَنْ مَرّ عَلَى الصِرَاطِ دَخَلَ الجَنّةَ.

فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ، وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنّةِ وَالنّارِ، فَيُقْتَصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا ذَهَبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنّةِ.

وَأَوّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الجَنّةِ مُحَمّدٌ ﷺ[1]، وَأَوّلُ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ الأُمَمِ أُمّتُهُ[2]. وَلَهُ ﷺ فِي القِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ.

أَمّا الشَفَاعَةُ الأُوْلَى: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ المَوْقِفِ حَتّى يُقْضَي بَيْنَهُمْ[3]

---

(١) لِمَا جَاءَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجَنَّةِ »[1]، وَعَنْهُ أَيْضاً قَالَ ﷺ: « آتِي بَابَ الجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ »[2].

(٢) لِمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ ﷺ: « نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولاً الجَنَّةِ »[3].

(٣) وَهَذِهِ هِيَ الشَفَاعَةُ العُظْمَىٰ، وَهِيَ المَقَامُ المَحْمُودُ الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (٨٥٥).

بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ: آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَنْ الشَفَاعَةِ حَتّى تَنْتَهِي إِلَيْهِ. وَأَمّا الشَفَاعَةُ الثَانِيَةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الجَنّةِ(١) أَنْ يَدْخُلُوا الجَنّةَ.

وَهَاتَانِ الشَفَاعَتَانِ خَاصَتَانِ لَهُ.

أَمّا الشَفَاعَةُ الثَالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيمَنْ اسْتَحَقَ النّارَ، وَهَذِهِ الشَفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النّبِيينَ وَالصدّقِيْنَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنْ اسْتَحَقَ النّارَ أَنْ لا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا(٢).....

النَّبِيُونَ، وَالَّذِي وَعَدَهُ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُ إِيَاهُ بِقَولِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يَعْنِي يَحْمَدُهُ عَلَيْهِ أَهْلُ المَوْقِفِ جَمِيْعاً.

وَقَدْ أَمَرَنَا نَبِيُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ إِذَا سَمِعْنَا النِدَاءَ أَنْ نَقُولَ بَعْدَ الصَلَاةِ عَلَيْهِ: « اللهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَعْوَةِ التَامَّةِ وَالصَلَاةِ القَائِمَةِ آتِ مُحَمَّداً الوَسِيْلَةَ وَالفَضِيْلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَهُ »(١).

(١) وَيَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ حَدِيْثُ أَنَسٍ رضي الله عنه السَابِقُ وَفِيهِ: « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجَنَّةِ »، وَعَنْهُ أَيْضاً: « آتِي بَابَ الجَنّةِ فَأَسْتَفْتِحُ. فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ ».

(٢) وَالأَحَادِيْثُ الوَرِدَةُ فِي ذَلِكَ كَثِيْرَةٌ مِنْهَا مَا جَاءَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مَرْفُوعاً: « يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٩)، ومسلم (٥٢٩).

وَيُخْرِجُ اللهُ مِنْ النّارِ أَقْوَاماً بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ، بَلْ بِفَضْلِه وَرَحمَتِه، وَيَبْقَى فِي الجَنّةِ فَضْلٌ عَمَنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُنْيَا، فَيُنَشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَاماً، فَيُدْخِلُهُمْ الجَنّةَ.

وَأَصْنَافُ مَا تَتَضَمّنَهُ الْدّارُ الآخِرَةُ مِنْ الحِسَابِ وَالثَوَابِ وَالعِقَابِ وَالجَنّةِ وَالنّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ، فِي الكُتُبِ المُنَزّلَةِ مِنْ السَمَاءِ، وَالآثَارِ مِنْ العِلْمِ المَأثُورِ عَنْ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي العِلْمِ المَوْرُوثِ عَنْ مُحَمّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي فَمَنْ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.....

يُسَمَّوْنَ الجَهَنَّمِيِينَ »[1].

وَهَذَا النُوعُ مِنْ الشَفَاعَةِ يُنْكِرُهَا الخَوَارِجُ وَالمُعْتَزِلَةُ، لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ اسْتَحَقَ النَّارَ فَإِنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يَدْخُلَهَا، وَمَنْ دَخَلَهَا فَإِنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَداً وَاسْتَدَلُّوا عَلَىٰ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وَقَولِهِ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]. وَهَذِهِ الآيَاتُ كُلُّهَا وَارِدَةٌ فِي نَفْيِ الشَفَاعَةِ لِلْكَافِرِ. وَقَدْ أَنْكَرَ السَّلَفُ هَذِهِ المَقَالَةَ فَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَنْ أَنْكَرَ الشَفَاعَةَ فَلَا نَصِيْبَ لَهُ مِنْهَا. وَعَنْ ابْنِ عَبَاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ خَطَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يُكَذِّبُونَ بِالرَجْمِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالدَجَالِ، وَيُكَذِّبُونَ بِعَذَابِ القَبْرِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالشَفَاعَةِ، وَيُكَذِّبُونَ بِقَوْمٍ يَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ.

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٧٤٠)،وصححه الألباني.

وَتُؤمِنُ الفِرْقَةُ النَاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ(١).....

إِنَّ أَصْلَ الجَزَاءِ عَلَىٰ الأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ثَابِتٌ بِالعَقْلِ كَمَا هُوَ ثَابِتٌ بِالسَمْعِ، وَقَدْ نَبَّهَ اللهُ العُقُولَ إِلَىٰ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

فَإِنَّهُ لَا يَلِيْقُ فِي حِكْمَةِ الحَكِيْمِ أَنْ يُتْرَكَ النَّاسُ مُهْمَلِيْنَ، لَا يُؤْمَرُونَ وَلَا يُنْهَوْنَ، وَلَا يُعَاقَبُونَ وَلَا يُثَابُونَ، كَمَا لَا يَلِيْقُ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يُسَوي بَيْنَ المُؤمِنِ وَالكَافِرِ، وَالبَرِ وَالفَاجِرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

فَإِنَّ العُقُولَ الصَحِيْحَةَ تَأْبَىٰ ذَلِكَ وَتُنْكِرُهُ أَشَدَّ الإِنْكَارِ.

وَكَذَلِكَ نَبَّهَهُمْ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِمَا أَوْقَعَهُ مِنْ أَيَامِهِ فِي الدُنْيَا مِنْ إِكْرَامِ الطَائِعِيْنَ، وَخُذْلَانِ الطَاغِيْنَ.

وَأَمَّا تَفَاصِيْلُ الأَجْزِيَةِ وَمَقَادِيْرُهَا، فَلَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالسَمْعِ وَالمَنْقُولِ الصَحِيْحِ عَنْ المَعْصُومِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنْ الهَوَىٰ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ.

(١) الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ السِتَّةِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ حَدِيْثُ جِبْرِيْلَ المَشْهُورُ.

وَالإِيْمَانُ بِالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ، كُلٌّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:

الْدَرَجَةُ الأُوْلَى: الإِيْمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى: [عَلِيْمٌ بِالخَلْقِ وَهُمْ] عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ القَدِيْمِ الّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً أَبَداً، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ مِنْ الطَاعَاتِ وَالمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمّ كَتَبَ اللهُ فِي اللّوْحِ المَحْفُوظِ مَقَادِيْرَ الخَلْقِ(١) ....

---

(١) وَهَذِهِ الدَرَجَةُ تَتَضَمَّنُ مَرْتَبَتَيْنِ:

الأُولَىٰ: الإِيْمَانُ بِعِلْمِ اللهِ السَابِقِ المُحِيْطِ بِكُلِّ شَيءٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: ٧٠]، وَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، وَفِي الحَدِيْثِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَفِيْهِ: « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، قَالَ لَهُ: اُكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ »(١).

الثَانِيَةُ: وَهِيَ أَنَّ اللهَ كَتَبَ مَقَادِيْرَ كُلِّ شَيءٍ فِي اللَّوحِ المَحْفُوظِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنَّ اللهَ كَتَبَ مَقَادِيْرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِيْنَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ »(٢).

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٧٠٠)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

وقوله ﷺ: « وكان عرشه على الماء » استدلّ به جمهور العلماء على أنّ العرش أول المخلوقات وخالف في ذلك ابن جرير وابن الجوزي مستدلين بحديث ابن عباس رضي الله عنهما

وَأمّا الدرَجَةُ الثَانِيَةُ[(١)]، فَهِيَ مَشِيْئَةُ الله النَافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَامِلَةُ، وَهُوَ الإِيْمَانُ بِأَنّهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأ لَمْ يَكُنْ، وَأَنّهُ مَا فِي السَمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلا سُكُونٍ، إلّا بِمَشِيْئَةِ الله سُبْحَانَهُ [لا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لا يُرِيْدُ][(٢)]، وَأَنّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ مِنْ المَوْجُودَاتِ وَالمَعْدُومَات، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَمَاءِ إلا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلا رَبّ سِوَاهُ...

(١) هَذِهِ الدَرَجَةُ تَتَضَمَّنُ مَرْتَبَتَينِ:

الأُوْلَىٰ: المَشِيْئَةُ النَافِذَةُ، وَالقُدْرَةُ التَامَّةُ الشَامِلَةُ، وَهِيَ الإِيْمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَالَمْ يَشَأ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّ أَفْعَالَ العِبَادِ مِنْ الطَاعَاتِ وَالمَعَاصِي وَاقِعَةٌ بِتِلْكَ المَشِيْئَةِ العَامَّةِ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا كَائِنٌ، سَوَاءٌ كَانَ مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ أَمْ لَا.

الثَانِيَةُ: الخَلْقُ وَالإِيْجَادُ فَكُلُّ مَا سِوَىٰ اللهِ مَخْلُوقٌ وَكُلُّ الأَفْعَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا هُوَ خَالِقُهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

(٢) هَذِهِ العِبَارَةُ تَحْتَاجُ إِلَىٰ تَقْيِيْدٍ بِأَنْ يُقَالَ: لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيْدُ إِرَادَةً كَوْنِيَةً، لِأَنَّ مَا لَا يُرِيْدُهُ شَرْعـًا قَدْ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مِثْلَ الكُفْرَ وَالمَعَاصِيَ.

وَمِنْ هُنَا نَقُولُ: هَلْ المَعَاصِي مُرَادَةٌ للهِ؟ فِيهِ تَفْصِيْلٌ:

قال ﷺ: « أوّل شيء خلقه الله القلم، وأمره أنْ يكتب كلّ شيء » أخرجه ابن أبي عاصم في السنّة (١٠٨)، والبيهقي (١٧٤٨٢)، وصححه الألباني.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَمَرَ العِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ المُتَقِيْنَ وَالمُحْسِنِيْنَ وَالمُقْسِطِيْنَ، وَيَرْضَى عَنْ الّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الكَافِرِيْنَ، وَلا يَرضَى عَنْ القَوْمِ الفَاسِقِيْنَ، وَلا يَأمُرُ بِالفَحْشَاءِ، وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ، وَلا يُحِبُّ الفَسَادَ[1].....

إِنْ كَانَ المَقْصُودُ بِالإِرَادَةِ هُنَا الإِرَادَةُ الشَرْعِيَةُ، فَلَيْسَتْ مُرَادَةً لَهُ، لِأَنَّهُ لَا يُحِبُّهَا، وَأَمَّا إِنْ كَانَ المَقْصُودُ بِالإِرَادَةِ هُنَا الإِرَادَةُ الكَوْنِيَّةُ فَهِيَ مُرَادَةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِمَشِيْئَتِهِ.

(١) لَا يَلْزَمُ مِنْ تَقْدِيْرِ اللهِ لِلْكُفْرِ وَالفَحْشَاءِ وَالفَسَادِ أَنْ يَكُونَ مَحْبُوباً لَهُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَرَاهَتِهِ لِلْشَيءِ أَنْ لَا يَكُونَ مُرَاداً لَهُ بِالإِرَادَةِ الكَوْنِيَّةِ بَلْ هُوَ يَكْرَهُ الشَيءَ وَيُرِيْدُهُ كَوْناً، وَيُوْقِعُ الشَيءَ وَلَا يَرْضَىٰ عَنْهُ، وَلَا يُرِيْدُهُ شَرْعاً.

فَإِنْ قِيْلَ: كَيْفَ يَقَعُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُحِبُّهُ اللهُ وَلَا يَرْضَاهُ؟

الجَوَابُ: أَنَّ الَّذِي يَقَعُ مِنْ فِعْلِهِ وَهُوَ مَكْرُوهٌ لَهُ مِنْ وَجْهٍ، وَمَحْبُوبٌ لَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرٍ، لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ المَصَالِحِ، فَالكُفْرُ مَكْرُوهٌ لَهُ وَمَعَ ذَلِكَ أَوْقَعَ اللهُ الكُفْرَ لِأَنَّهُ لَوْلَا وُجُودُ الكُفْرِ مَا عُرِفَ الإِيْمَانُ وَالدَعْوَةُ وَالجِهَادُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ العِبَادَاتِ.

وَكَذَلِكَ المَرَضُ كَالدَوَاءِ المُرِّ الطَعْمِ الخَبِيْثِ الرَائِحَةِ يَتَنَاوَلُهُ المَرِيْضُ وَهُوَ مُرْتَاحٌ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ المَصَالِحِ.

وَالعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيْقَةً(١)، وَاللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ(٢).....

فَلَا مُنَافَاةَ أَصْلاً بَيْنَ مَا ثَبَتَ مِنْ عُمُومِ مَشِيْئَتِهِ سُبْحَانَهُ لِجَمِيْعِ الأَشْيَاءِ وَبَيْنَ تَكْلِيفِهِ العِبَادَ بِمَا شَاءَ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ، فَإِنَّ تِلْكَ المَشِيْئَةَ لَا تُنَافِي حُرِّيَةَ العَبْدِ وَاخْتِيَارَهُ لِلْفِعْلِ، وَلِهَذَا جَمَعَ اللهُ بَيْنَ المَشِيْئَتَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ – ٢٩].

(١) لِأَنَّ العَبْدَ إِذَا صَلَّىٰ وَصَامَ، وَفَعَلَ الخَيْرَ، أَوْ عَمِلَ شَيْئًا مِنْ المَعَاصِي كَانَ هُوَ الفَاعِلُ لِذَلِكَ العَمَلِ الصَالِحِ، وَلِذَلِكَ العَمَلِ السَيِّءِ، وَفِعْلُهُ المَذْكُورُ بِلَا رَيْبٍ قَدْ وَقَعَ بِاخْتِيَارِهِ، وَهُوَ يَحِسُ بِضَرُورَةِ أَنَّهُ غَيْرُ مَجْبُورٍ عَلَىٰ الفِعْلِ أَوْ التَرْكِ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَمْ يَفْعَلْ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الوَاقِعُ، فَهُوَ الَّذِي نَصَّ اللهُ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ، وَنَصَّ عَلَيْهِ رَسُولُهُ، حَيْثُ أَضَافَ الأَعْمَالَ صَالِحَهَا وَسَيِّئَهَا إِلَىٰ العِبَادِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ فَاعِلُونَ لَهَا، وَأَنَّهُمْ مَمْدُوحُونَ عَلَيْهَا – إِنْ كَانَتْ صَالِحَةً – وَمُثَابُونَ، وَمَلُومُونَ عَلَيْهَا – إِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً – وَمُعَاقَبُونَ عَلَيْهَا.

فَقَدْ تَبَيَّنَ بِلَا رَيْبٍ أَنَّهَا وَاقِعَةٌ مِنْهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِذَا شَاؤُوا فَعَلُوا، وَإِذَا شَاؤُوا تَرَكُوا، وَأَنَّ هَذَا الأَمْرَ ثَابِتٌ عَقْلاً وَحِسّاً وَشَرْعاً وَمُشَاهَدَةً.

وَهَذَا فِيْهِ رَدٌّ عَلَىٰ الجَبْرِيَّةِ.

(٢) ذَلِكَ أَنَّ أَفْعَالَ العِبَادِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِإِرَادَةٍ وَقُدْرَةٍ، وَاللهُ الخَالِقُ لَهُمْ وَلِإِرَادَتِهِمْ وَلِقُدْرَتِهِمْ، وَالَّذِي خَلَق مَا بِهِ تَقَعُ الأَفْعَالُ هُوَ الخَالِقُ لِلأَفْعَالِ.

وَهَذَا فِيْهِ رَدٌّ عَلَىٰ المُعْتَزِلَةِ القَائِلُونَ أَنَّ العَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ.

وَالعَبْدُ هُوَ المُؤْمِنُ، وَالكَافِرُ، وَالبَرُّ وَالفَاجِرُ، وَالمُصَلِّي وَالصَائِمُ، وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ [وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَقُدْرَتِهِمْ، وَإِرَادَتِهِمْ]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

وَهَذِهِ المَرْتَبَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: « مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ »(١).

وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ(٢)، حَتَّى سَلَبُوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حُكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.....

---

(١) وَهُمُ المُعْتَزِلَةُ القَائِلُونَ، إنَّ العَبْدَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَ مَا هُوَ ثَابِتٌ بِالضَرُورَةِ مِنْ اخْتِيَارِ العَبْدِ فِي فِعْلِهِ وَمَسْؤُلِيَتِهِ عَنْهُ، وَبَيْنَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُصُوصُ مِنْ عُمُومِ خَلْقِهِ تَعَالَىٰ وَمَشِيْئَتِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ العُمُومَ فِي زَعْمِهِمْ إِبْطَالٌ لِمَسْؤُلِيَةِ العَبْدِ عِنْدَ فِعْلِهِ، وَهَدْمٌ لِلْتَكَالِيْفِ، فَرَجَّحُوا جَانِبَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَخَصَّصُوا النُصُوصَ الدَالَةَ عَلَىٰ عُمُومِ الخَلْقِ وَالمَشِيْئَةِ بِمَا عَدَا أَفْعَالَ العِبَادِ، وَأَثْبَتُوا أَنَّ العَبْدَ خَالِقٌ لِفِعْلِهِ بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَأَثْبَتُوا خَالِقَيْنِ غَيْرَ اللهِ، وَلِهَذَا سُمُّوا مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ لِأَنَّ المَجُوسَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الشَيَاطِيْنَ تَخْلُقُ الشَرَّ وَالأَشْيَاءَ المُؤذِيَةَ، فَيَجْعَلُوهَا خَالِقًا مَعَ اللهِ، وَكَذَلِكَ هَؤلَاءِ يَجْعَلُونَ العِبَادَ خَالِقِيْنَ مَعَ اللهِ.

(٢) وَهُمُ الجَبْرِيَّةُ مِنَ الجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، القَائِلُونَ إِنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ لِأَفْعَالِ العِبَادِ، وَالعِبَادُ لَيْسُوا فَاعِلِيْنَ حَقِيْقَةً وَلَكِنْ أُضِيْفَ الفَعْلُ إِلَيْهِمْ مِنْ بَابِ

التَجَوّزِ، وَإِلَّا فَالفَاعِلُ حَقِيْقَةً هُوَ اللهُ وَهَؤلَاءِ غَلَو فِي إِثْبَاتِ القَدَرِ حَتَّىٰ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ فِعْلٌ حَقِيْقَةً، بَلْ هُوَ بِزَعْمِهِمْ لَا حُرِّيَةَ لَهُ، وَلَا اخْتِيَارَ وَلَا فِعْلَ، كَالرِيْشَةِ فِي مَهَبِ الرِيْحِ، وَهَذَا اتِهَامٌ للهِ بِالظُلْمِ، وَتَكْلِيْفُ العِبَادِ بِمَا لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ، وَمُجَازَاتُهُمْ عَلَىٰ مَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِمْ، اتِهَامٌ لَهُ جَلَّ وَعَلَا بِالْعَبَثِ فِي تَكْلِيْفِ العِبَادِ، وَأَبْطَلُوا الحِكْمَةَ مِنْ الأَمْرِ وَالنَهيِ.

فَصْـــلٌ

وَمِنْ أُصُولِ [أَهْلِ السُنّة] وَالجَمَاعَةِ أَنّ الـدِيْنَ وَالإِيْمَـانَ، قَـوْلٌ وَعَمَـلٌ، قَـوْلُ القَلْـبِ(١) وَاللِسَـانِ(٢)، وَعَمَـلُ القَلْـبِ(٣) وَاللِسَـانِ(٤) وَالجَوَارِحِ(٥).

وَأَنَّ الإِيْمَانَ يَزِيْدُ بِالطَاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ(٦).....

(١) وَهُوَ التَصْدِيْقُ وَالإِقْرَارُ.

(٢) وَهُوَ النُطْقُ بِالشَهَادَتَيْنِ.

(٣) وَهُوَ النِيَّةُ وَالإِخْلَاصُ، وَالانْقِيَادُ، وَالتَوَكُّلُ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

(٤) مَا لَا يُؤَدَّىٰ إِلَّا بِهِ مِنْ عِبَادَاتٍ كَتِلَاوَةِ القُرْآنِ، وَقِرَاءَةِ الأَذْكَارِ.

(٥) مَـذْهَبُ أَهْـلِ السُـنَّةِ وَالجَمَاعَـةِ أَنَّ الإِيْمَـانَ: (قَـوْلٌ بِاللِسَـانِ، وَاعْتِقَـادٌ بِالجَنَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ، يَزِيْدُ بِالطَاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالعِصْيَانِ).

فَلَيْسَ الإِيْمَانُ عِنْدَهُمْ قَوْلٌ وَعَمَلٌ بِدُوْنِ اعْتِقَادٍ، لِأَنَّ هَذَا إِيْمَانُ المُنَافِقِيْنَ، وَلَيْسَ مُجَرَدُ المَعْرِفَةِ وَبِدُونِ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، لِأَنَّ هَذَا إِيْمَانُ الكَافِرِيْنَ الجَاحِدِيْنَ، قَـالَ تَعَـالَىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمـل: ١٤]، وَقَـالَ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وَلَيْسَ الإِيْمَـانُ اعْتِقَـادٌ فَقَـطْ، أَوْ قَـوْلٌ وَاعْتِقَـادٌ دُوْنَ عَمَـلٍ، لِأَنَّ هَـذَا إِيْمَـانُ المُرْجِئَةِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ كَثِيْراً مَا يُسَمِّي الأَعْمَالَ إِيْمَانـًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعَاصِي وَالكَبَائِرِ(١).....

يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢ – ٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣] أَيْ صَلَاتُكُمْ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، سَمَّىٰ الصَلَاةَ إِيْمَانًا.

(٦) وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١]، وَقَولُهُ: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤ – ١٢٥].

وَقَدْ قَسَّمَ اللهُ المُؤمِنِيْنَ إِلَىٰ ثَلَاثِ طَبَقَاتٍ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢].

وَقَالَ ﷺ: « مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِيْنٍ أَذْهَبُ لِلُبِّ الرَجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ »(١).

(١) وَلا يُخْرِجُونَهُ مِنَ الإِسْلَامِ بِعَمَلٍ إِذَا كَانَ فِعْلاً مَنْهِيًا عَنْهُ مِثْلَ الزِنَا، وَالسَرِقَةِ، وَشُرْبِ الخَمْرِ، مَا لَمْ يَتَضَمَّنْ تَرْكَ الإِيْمَانِ، وَأَمَّا إِنْ تَضَمَّنَ تَرْكَ

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨)، ومسلم (٨٠).

كَمَا يَفْعَلُ الخَوَارِجُ، بَلْ الأُخُوَّةُ الإِيْمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي [آيَةِ القِصَاصِ]: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨][(١)]...

وَقَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩][(٢)]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٠].....

مَا أَمَرَ اللهُ بِالإِيْمَانِ بِهِ مِثْلَ الإِيْمَانِ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، فَإِنَّهُ يَكْفُرُ بِهِ مِثْلُ سَبِّ الرَّبِ، أَوْ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ الاسْتِهْزَاءِ بِشَيءٍ مِنْ شَرَائِعِ الْدِّيْنِ.

وَكَذَلِكَ يَكْفُرُ بِعَدَمِ اعْتِقَادِ وُجُوبِ الوَاجِبَاتِ الظَاهِرَةِ المُتَوَاتِرَةِ.

فَلا يَكْفِي بِتَرْكِ المَأْمُورِ بِهِ إِذَا كَانَ مُعْتَقِداً لِوجُوبِهِ، وَلَا بِفِعْلِ المَنْهِي عَنْهُ إِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ بِتَحْرِيْمِهِ لِأَنَّهُ أَدَّىٰ بَعْضَ الوَاجِبِ وَهُوَ الإِيْمَانُ بِوجُوبِ الوَاجِبِ وَتَحْرِيْمِ المُحَرَّمِ، وَتَرَكَ البَعْضَ وَهُوَ الأَدَاءُ.

(١) فَسَمَّاهُ أَخًا وَهُوَ قَاتِلٌ.

(٢) فَوَصَفَ اللهُ الطَائِفَتَيْنِ بِالإِيْمَانِ مَعَ وُقُوعِ التَقَاتُلِ بَيْنَهُمْ، وَوقُوعِ البَغْيِ وَالتَعَدِّي.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ سَلْبِ اسْمِ الإِيْمَانِ عَنْ العَاصِي، مَا ثَبَتَ عَنْ أَبِي

وَلا يَسْلُبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ[1] [الإِسْلامَ] بِالكُلِّيَةِ، وَلا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُ المُعْتَزِلَةُ[2]. بَلْ الفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيْمَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء: ٩٢، المجادلة: ٣]، وَقَدْ لا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيْمَانِ المُطْلَقِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢]، وَقَوْلِهِ ﷺ: « لا يَزْنِي الزَانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَارِقُ حِيْنَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِيْنَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِيْنَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ »..............

ذَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَّا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ جِبْرِيْلَ: « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ شَرِبَ الخَمْرَ عَلَىٰ رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍ »[1].

وَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيْثِ الشَفَاعَةِ فِي أَهْلِ الكَبَائِرِ، وَقَوْلُهُ: « أَخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ بُرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ »[2]

(١) وَهُوَ الَّذِي يَرْتَكِبُ الكَبَائِرَ مَعَ اعْتِقَادِ حُرْمَتِهَا.

(٢) وَالخَوَارِجُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٨٩)، ومسلم (٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٩٨)، وصححه الألباني.

[وَنَقُولُ] هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيْمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيْمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيْرَتِهِ، فَلا يُعْطَى الاسْمُ المُطْلَقُ، وَلا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمَ[1].....

(١) وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١]، فَنَادَاهُمْ بِاسْمِ الإِيْمَانِ مَعَ وُجُودِ المَعْصِيَةِ وَهِيَ مُوَالَاةُ الكُفَّارِ مِنْهُمْ.

فَصْـــلٌ

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُـنّةِ وَالجَمَاعَـةِ سَـلامَةُ قُلُـوبِهِمْ، وَألْسِـنَتِهِمْ لأصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[1].....

(١) الأَصْحَابُ جَمْعُ صَاحِبٍ، وَالصَاحِبُ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ صَحِبَهُ يصحبه، وَذَلِكَ يَقَعُ عَلَىٰ قَلِيْلِ الصُحْبَةِ وَكَثِيْرِهَا.

وَالتَعْرِيْفَاتُ الاصْطِلَاحِيَّةُ عِنْدَّ أَهْلِ الحَدِيْثِ كَثِيْرَةٌ، وَالتَعْرِيْفُ المُعْتَمَدُ هُوَ مَا قَرَّرَهُ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: "وَأَصَحُّ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ الصَّحَابِيَّ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ، وَمَاتَ عَلَىٰ الإِسْلَامِ."

وَيُعْرَفُ الصَّحَابِيُ بِمَا يَأتِي:

١. أَنْ تَثْبُتَ صُحْبَتُهُ بِطَرِيْقِ التَّوَاتُرِ المَقْطُوعِ بِهِ.

٢. أَنْ تَثْبُتَ بِطَرِيْقِ الاسْتِفَاضَة وَالشُّهْرَة.

٣. أنْ يَرْوِيَ عَنْ أَحَدِ الصَّحَابَةِ أَنْ فُلَانًا لَهُ صُحْبَةٌ، وَكَذَا عِنْدَ آحَادِ التَّابِعِيْنَ بِنَاءً عَلَىٰ قَبُولِ التَزَّكِيَةِ مِنْ الوَاحِدِ عَلَىٰ الرَّاجِحِ.

٤. أَنْ تَثْبُتَ بِإِخْبَارِهِ عَنْ نَفْسِهِ إِذَا كَانَ ثَابِتَ العَدَالَةِ وَالمُعَاصَرَةِ بِقَوْلِهِ: أَنَا صَحَابِيٌ.

عَدَالَةُ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ:

وَعَدَالَةُ الصَّحَابَةِ ثَابِتَةٌ بِالكِتَابِ وَالسُنَّةِ وَالإِجْمَاعِ، فَمِنْ الكِتَابِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]. وَقَولُهُ أَيْضًا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ

ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وَمِنْ السُنَّةِ قَوْلُهُ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ »(١)

وَحَكَىٰ الإجْمَاعَ عَلَىٰ ذَلِكَ جَمْعٌ غَفِيْرٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ.

والمُخَالِفُونَ فِي هَذَا البَابِ طَائِفَتَانِ:

١- الرَّافِضَةُ، وَهُمْ الَّذِيْنَ كَفَّرُوا الصَّحَابَةَ الكِرَامَ إلَّا عَدداً يَسِيْراً مِنْهُمْ كَالمِقْدَادِ بْنِ الأسْوَدِ، وَعَمَّارِ بْنِ يَاسِر، وَسَلْمَانِ الفَارِسِيّ، وَأَبِي ذَرٍ الغِفَارِي.

٢- جُمْهُورُ المُعْتَزِلَةِ وَالشِيْعَةِ، القَائِلُونَ إنَّ الصَّحَابَةَ عُدُولٌ إلا مَنْ قَاتَلَ عَلِيـًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.(٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٠٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) والجواب: أنَّ قتالهم كان عن تأويل وشبهة لا انتهاكا للحرمات، كما جاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال النَّبيّ ﷺ: « تمرق مارقة علىٰ حين فرقة من المسلمين تقتلهم أدنىٰ الطائفتين إلىٰ الحق ». أخرجه مسلم

فهذا الحديث يدلُّ علىٰ أنّ مع كل طائفة حق لكنّ عليّـًا كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان أقرب إلىٰ الحق، ولحديث الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال النّبيّ ﷺ - وكان معه علىٰ المنبر -: « إنَّ ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » أخرجه البخاري.

كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِه: « لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَده لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ »(١)..............

---

(١) فَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الَّتِي فَارَقُوا بِهَا أَهْلَ الزَيْغِ وَالضَّلَالِ أَنَّهُمْ لَا يَزْرُونَ بِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا يَطْعَنُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْمِلُونَ لَهُ حِقْداً وَلَا بُغْضاً، وَلَا احْتِقَاراً، فَقُلُوبُهُمْ وَأَلسِنَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بَرَاءٌ، وَلَا يَقُولُونَ فِيهِمْ إِلَّا مَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ....﴾ الآية، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ كَمَالِ مَحَبَّتِهِمْ لَهُمْ، وَهُمْ اسْتَحَقُّوا كُلَّ هَذَا لِأُمُورٍ:

١- لِعَظِيْمِ فَضْلِهِمْ، وَشَرَفِ مَنْزِلَتِهِمْ.

٢- لِسَبْقِهِمْ وَسُرْعَةِ اسْتِجَابَتِهِمْ.

٣- لِاخْتِصَاصِهِمْ بِصُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

٤- لِإِحْسَانِهِمْ إِلَىٰ جَمِيعِ الأُمَّةِ.

٥- لِأَنَّهُمْ هُمْ المُبَلِغُونَ لِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ المُصْطَفَىٰ ﷺ فَمَا وَصَلَ لِإِحَدٍ مِنْ عِلْمٍ وَلَا خَبَرٍ إِلّا بِوَاسِطَتِهِمْ.

٦- لِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ سَبِّهِمْ.

وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ(١) -وَهُوَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَّةِ(٢)- وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلَ. وَيُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِيْنَ عَلَى الأَنْصَارِ(٣)..

---

(١) لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

(٢) عَلَىٰ المَشْهُورِ، وَقَدْ صَحَّ أَنَّ سُوْرَةَ الفَتْحِ نَزَلَتْ عَقِيبه.

وَسُمِّيَ هَذَا الصُلْحُ فَتْحاً لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ نَتَائِجَ بَعِيْدَةِ المَدَىٰ فِي عِزَّةِ الإِسْلَامِ، وَقُوَّتِهِ وَانْتِشَارِهِ، وَدُخُولِ النَّاسِ فِيْهِ.

(٣) لِأَنَّ المُهَاجِرِيْنَ جَمَعُوا الوَصْفَيْنِ: (النُّصْرَةَ، وَالهِجْرَةَ).

وَقَدْ جَاءَ القُرْآنُ الكَرِيمُ بِتَقْدِيْمِ المُهَاجِرِيْنَ عَلَىٰ الأَنْصَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وَقَدْ صَحَّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ لِلأَنْصَارِ: (نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمْ الوُزَرَاءُ)(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٧).

وَيُؤمِنُونَ بِأنّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ-وَكَانُوا ثَلاثَ مِئَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ-: « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »[1].....

(١) عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيّاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُبَيْرَ وَالمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ قَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّىٰ تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ضَغِيْنَةً، وَكَانَ مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا، فَانْطَلَقْنَا تَعَادَىٰ بِنَا خَيْلُنَا حَتَّىٰ أَنْهَيْنَا إِلَىٰ الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالضَغِيْنَةِ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَإِذَا فِيْهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَىٰ أُنَاسٍ مِنْ المُشْرِكِيْنَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَءاً مُلْصَقاً فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ اَكُنْ مِنْ أَنْفَسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ المُهَاجِرِيْنَ لَهُمْ قَرَابَاتٍ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيْهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَأَحْبَبْتُ إِذَا فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيْهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَداً يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْراً وَلَا ارْتِدَاداً وَلَا رِضاً بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلَامِ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَقَدْ صَدَقَكُمْ، وَقَالَ: عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، فَقَالَ: إِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً، وَمَا يُدْرِيْكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ.[1]

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٥).

وَبِأَنَّهُ لا يَدْخُلُ النّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَجَرَةِ(١)، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النّبِيُّ ﷺ(٢)، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ(٣).....

---

(١) وَهِيَ البَيْعَةُ المَشْهُورَةُ بِبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَكَانَتْ بِمَكَانٍ يُسَمَّىٰ الحُدَيْبِيَةُ، فِي شَهْرِ ذِيْ القعْدَةِ سَنَةَ سِتٍ مِنْ الهِجْرَةِ بِلَا خِلَافٍ بَيْنَ عُلَمَاءِ المَغَازِي وَالسِّيَرِ.

(٢) لِمَا جَاءَ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: أَخْبَرَتْنِي أُمُّ بِشْرٍ: أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: « لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِيْنَ بَايَعُوا تَحْتَهَا »، قَالَتْ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْتَهَرَهَا فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢] »(١).

وَجَاءَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِنَّ عَبْداً لِحَاطِبٍ جَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَشْكُو حَاطِباً فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَيَدْخُلَنَّ حَاطِباً النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « كَذَبْتَ لَا يَدْخُلَهَا فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً أَوْ الحُدَيْبِيَةَ »(٢).

(٣) كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ – ١٩].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٥).

وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعْ مِئَةٍ[1]. وَيَشْهَدُونَ بِالجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ، كَالعَشَرَةِ[2]، وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَاسٍ[3]..

---

(١) كَمَا جَاءَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ: « أَنْتُمْ خَيْرَ أَهْلِ الأَرْضِ وَكُنَّا أَلْفاً وَأَرْبَعْمِائَةٍ »[1].

وَبَايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ مُنَاجَزَةِ قُرَيْشٍ الحَرْبَ وَعَلَىٰ أَلَّا يَفِرُّوا، وَلَا يُوَلُّوهُمْ الدُّبُرَ.

(٢) لِمَا جَاءَ عَنْ سَعِيْدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « عَشَرَةٌ فِي الجَنَّةِ أَبُوبَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ وَعُثْمَانُ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَعَبْدُالرَحْمَنِ وَأَبُوعُبَيْدَةَ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ »، قَالَ: فَعَدَّ هَؤلَاءِ التِسْعَةَ، وَسَكَتَ عَنْ العَاشِرِ، فَقَالَ القَوْمُ: نُنْشِدُكَ اللهَ يَا أَبَا الأَعْوَرِ - وَهُوَ سَعِيْدُ بْنُ زَيْدٍ - مَنْ العَاشِرُ؟ قَالَ: نَشَدْتُمُونِي بِاللهِ أَبُوالأَعْوَرِ فِي الجَنَّةِ.

(٣) بْنِ مَالِكِ بْنِ امْرُئِ القَيْسِ الأَنْصَارِي الخَزْرَجِي، يُقَالُ لَهُ: خَطِيْبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، شَهِدَ أُحُداً وَمَا بَعْدَهَا مِنْ المَشَاهِدِ، وَقُتِلَ يَوْمَ اليَمَامَةِ فِي خِلَافَةِ أبي بَكْرٍ الصِدِيْقِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِين -.

وَقَدْ وَرَدَتْ بِشَارَتُهُ فِي حَدِيْثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمُهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِساً فِي بَيْتِهِ مُنَكِّساً رَأسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢٣)، ومسلم (١٨٥٦).

وَغَيْرِهِمْ مِنْ الصَّحَابَةِ[١].....

كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَىٰ الرَجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ لَهُ: « اذْهَبْ إِلَيْهِ وَقُلْ لَهُ إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ »[١].

(١) كَبِلَالِ بْنِ رَبَاحٍ فَقَدْ بَشَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا قَالَ لَهُ: « يَا بِلَالُ حَدِثْنِي بِأَرْجَىٰ عَمَلٍ عَمِلْتَهُ عِنْدَكَ فِي الإِسْلَامِ مَنْفَعَةً، فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَ فِي الجَنَّةِ »، قَالَ بِلَالٌ: (مَا عَمِلْتُ عَمَلاً فِي الإِسْلَامِ أَرْجَىٰ عِنْدِي مَنْفَعَةً مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَرُ طَهُوراً تَامًا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلّا صَلّيْتُ بِذَلِكَ الطَهُورِ مَا كَتَبَ اللهُ لِي أَنْ أُصَلّي)[٢].

وَكَذَلِكَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ اللَّخْمِي بَشَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا قَالَ: لِعَبْدٍ لِحَاطِبٍ: « كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلَهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً وَالحُدَيْبِيَةَ ».

وَكَذَلِكَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنِ بْنِ حَرْثَانِ مِنْ السَّابِقِيْنَ الأَوَلِيْنَ البَدْرِيِيْنَ، قُتِلَ شَهِيْداً فِي حُرُوبِ الرِدَّةِ بَشَّرَهُ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَمَا ذَكَرَ صِفَاتِ السَّبْعِيْنَ أَلْفًا الَّذِيْنَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَقَالَ: عُكَّاشَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: « أَنْتَ مِنْهُمْ »[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٧٤)،ومسلم (٢١٦).

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُوبَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ[1]، وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيْمِ عُثْمَانَ فِي البَيْعَةِ[2].....

وَكَذَلِكَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « لَمِنْدِيْلِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهَا[1] وَأَلْيَنُ »[2].

(١) تَفْضِيْلُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلَىٰ سَائِرِ الصَحَابَةِ الكِرَامِ مَحِلُ اتِفَاقٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ، وَالدَلِيْلُ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَا نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَداً، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ لَا نُفَاضِلَ بَيْنَهُمْ)[3].

وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ عَنْ أَمِيْرِ المُؤْمِنِينَ عَلَيِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُوبَكْرٍ، وَبَعْدَ أَبِي بَكْرٍ عُمَرُ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَمِّيَ لَكُمْ الثَالِثَ لَفَعلْتُ)[4].

(٢) وَقَدْ حَكَىٰ الإجمَاعَ عَلَىٰ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ العِلمِ مِنْهُمْ حَارِثَةُ بْنِ

(١) أي خير من حلّة أهديت للنّبي ﷺ فجعل الصحابة يمسّونها ويعجبون من لينها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٩٤).

(٤) رواه ابن أبي عاصم في السنّة (٢/ ٥٧٠)، وصححه الألباني.

مُضَرَّبٍ قَالَ: حَجَجْتُ فِي إِمَارَةِ عُمَرَ فَلَمْ يَكُونُوا يَشُكُّونَ أَنَّ الخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِهِ لِعُثْمَان[1].

وَقَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنِّي لَوَاقِفٌ مَعَ عُمَرَ تَمَسُّ رُكْبَتِي رُكْبَتَهُ فَقَالَ: مَنْ تَرَىٰ قَوْمَكَ يُؤَمِّرُونَ؟ قَالَ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْنَدُوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ ابْنِ عَفَّانَ)[2].

وَنَقَلَ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ عَنْ شُرَيْكِ بْنِ عَبْدِاللهِ القَاضِي أَنَّهُ قَالَ: "قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَاسْتَخْلَفَ المُسْلِمُونَ أَبَابَكْرٍ فَلَو عَلِمُوا أَنَّ أَحَداً فِيْهِمْ أَفْضَلَ مِنْهُ كَانُوا قَدْ غَشُّوا، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ أَبُوبَكْرٍ عُمَرَ فَقَامَ بِمَا بِهِ مِنْ الحَقِ وَالعَدْلِ فَلَمَّا احْتَضَرَ جَعَلَ الأَمْرَ شُورَىٰ بَيْنَ سِتَةٍ، فَاجْتَمَعُوا عَلَىٰ عُثْمَانَ، فَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ فِيْهِمْ أَفْضَلَ مِنْهُ كَانُوا قَد غَشَّوْنَا"[3].

وَنَقَلَ الإِمَامُ مُحَمَّدٌ المَقْدِسِيُّ عَنْ الإِمَامِ الشَافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: "وَاعْلَمُوا أَنَّ الإِمَامَ الحَقَّ بَعْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِجَعْلِ أَهْلِ الشُوْرَىٰ اِخْتِيَارِ الإِمَامَةِ إِلَىٰ عَبْدِالرَحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَاخْتِيَارِهِ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَصَوَّبُوا رَأيَهُ فِيْمَا فَعَلَهُ وَأَقَامَ النَّاسَ عَلَىٰ مَحَجَّةِ الحَقِ وَبَسْطِ العَدْلِ إِلَىٰ أَنْ اُسْتُشْهِدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"[4].

---

(١) المصنف لابن شيبة (١٤/ ٥٨٨).

(٢) المصنف لابن شيبة (١٤/ ٥٨٨).

(٣) ميزان الاعتدال (٢/ ٢٧٣).

(٤) الردّ علىٰ الرافضة (٣١٩-٣٢٠).

مَعَ أَنّ بَعْضَ أَهْلِ السُنّةِ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِي ﷺ بَعْدَ اتفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ: وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِي[1]، وَقَدّمَ قَوْمٌ عَلِيّاً[2]، وَقَوْمٌ تَوَقَفُوا[3]. لَكِنْ اسْتَقَرّ أَمْرُ أَهْلِ السُنّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمّ عَلِيّ[4].

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَىٰ بَيْعَةِ أَحَدٍ مَا اجْتَمَعُوا عَلَىٰ بَيْعَةِ عُثْمَانَ"[1].

وَقَالَ أَبُوالحَسَنِ الأَشْعَرِيُ: وَثَبَتَتْ إِمَامَةُ عُثْمَانَ ﷺ بَعْدَ عُمَرَ بِعَقْدِ مَنْ عَقَدَ لَهُ الإِمَامَةَ مِنْ أَصْحَابِ الشُورَىٰ الَّذِيْنَ نَصَّ عَلَيْهِمْ عُمَرُ فَاخْتَارُوهُ وَرَضَوا بِإِمَامَتِهِ، وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ[2].

(١) وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنْ تَرْتِيْبَهُمْ فِي الفَضْلِ كَتَرْتِيْبِهِمْ فِي الخَلَافَةِ.

(٢) وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الكُوفَةِ ومِنْهُمْ ابْنُ خَزَيْمَةَ، وَسُفْيَانَ الثَوْرِي، وَقَدْ ثَبَتَ رُجُوعَهُ عَنْهُ.

(٣) وَقَالَ بِهِ بَعْضُ أَهْلِ المَدِيْنَةِ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ مَالِكٍ.

(٤) وَقَدْ حَصَلَ الإِجْمَاعُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ بَعْدَ مَقْتَلِ عُمَرَ، وَقَدْ حَكَىٰ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ عِنْدَمَا قَالَ لَمَّا اُسْتُخْلِفَ عُثْمَانُ: أَمَّرْنَا خَيْرَ مَنْ بَقِيَ

---

(١) منهاج السنّة (٣/ ١٦٦).

(٢) الإبانة عن أصول الديانة (٦٨).

وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ المَسْأَلَةُ -مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ- لَيْسَتْ مِنْ الأُصُولِ الّتِي يُضَلِّلُ المُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُنّةِ.

لَكِنْ الّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا، مَسْأَلَةُ الخِلافَةُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنّ الخَلِيْفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُوبَكْرٍ، وَعُمَرُ، ثُمّ عُثْمَانُ، ثُمّ عَلِيٌّ، وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ، فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِه.

وَيُحِبُونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١) وَيَتَوَلّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: .....

وَلَمْ نَأْلُ(١).

وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّا اجْتَمَعْنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فَلَمْ نَأْلُ عَنْ خَيْرِنَا ذِيْ فَوْقَ فَبَايَعْنَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ عُثْمَانَ(٢).

وَقَدْ حَكَىٰ الإِجْمَاعَ أَيْضًا: عَبْدُالرَحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قِصّةٍ لِعَلِيٍّ وَعُثْمَانَ حِيْنَ التَّشَاوِرِ، وَقَالَ: أَفَتَجْعَلُونَهُ -الاخْتِيَارَ- إِلَيَّ وَاللهُ عَلَيَّ أَلَّا آلُو عَنْ أَفْضَلِكُمْ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ: يَا عَلِيُّ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ(٣).

(١) وَآلُ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ هُمْ مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِمْ الصَّدَقَةُ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ آلُ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٨٣٦).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٨٤٢، ٨٨٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨١).

عَلِيٍّ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَقِيْلٍ، وَآلُ العَبَّاسِ، وآلُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِالمُطَلِبِ.

وَقَدْ اسْتَقَرَتْ لِآلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ فِي نُفُوسِ المُؤْمِنِيْنَ مَكَانَةٌ رَفِيْعَةٌ، لِقُرْبِهِمْ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ وَاتِّصَالِهِمْ بِنَسَبِهِ، وَلِنُصْرَتِهِمْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَشَدِّ الظُّرُوفِ، لِذَلِكَ حَفِظَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ وَأَوْصَىٰ بِهِمْ أُمَتَهُ خَيْراً، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَلَاةُ وَالسَلَامُ: « أَمَّا بَعْدُ: أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشَكُ أَنْ يَأْتِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيْبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيْكُمْ ثِقَلَيْنِ: أَوَّلَهُمَا: كِتَابُ اللهِ فِيْهِ الهُدَىٰ وَالنُورُ، فَخُذُوا بِكَتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَحَثَّ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيْهِ ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِرُكُمْ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِرُكُمْ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي »[1].

وَعَرَفَ المُسْلِمُونَ لَهُمْ الفَضْلَ مِنْ الرَعِيْلِ الأَوْلِ، فَقَدْ قَالَ أَبُوبَكْرٍ الصِّدّيْقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي[2].

وَقَالَ أَيْضاً: أَرْقَبُوا مُحَمَّداً ﷺ[3] فِي أَهْلِ بَيْتِهِ[4]. وَقَالَ عُمَرُ لِلعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: وَاللهُ لَإِسْلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَىٰ مِنْ إِسْلَامِ الخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، لِأَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ مِنْ إِسْلَامِ الخَطَّابِ[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٠٨)، ومسلم (١٧٥٩).

(٣) أي احفظوه فيهم، فلا تؤذوهم، ولا تُسيئوا إليهم.

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٠٩).

(٥) أخرجه الطبراني (٧٢٦٤).

حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيْرِ خُمٍّ[1]: « أُذَكِّرُكُمْ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي »[2].....

(١) وَقِيْلَ: اسْمُ رَجُلٍ صَبَّاغٍ أُضِيْفَ إِلَيْهِ الغَدِيرُ الَّذِي بَيْنَ مَكَةَ وَالمَدِيْنَةِ بَالجُحْفَةِ.

وَقِيْلَ: اسْمُ غَيْظَهٍ هُنَاكَ نُسِبَ إِلَيْهَا الغَدِيْرُ، وَالغَيْظَةُ الشَّجَرُ المُلْتَفُ.

(٢) فَتَجِبُ مَوَدَّةُ آلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ، مُوَدَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَىٰ مَوَدَّةِ غَيْرِهِمْ مِنْ المُؤمِنِيْنَ، لِأَنَّ مَوَدَّتَهُمْ مَوَدَةٌ لِلنَبِي ﷺ.

وَكَذَلِكَ مِنْ حُقُوقِهِمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمْ، وَالصَّلَاةُ عَلَيْهِمْ تَبَعٌ لِلصَّلَاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا جَاءَ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُولُوا: « اللَّهُمّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَتِهِ، كَمَا صَلَّيْتُ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيْمَ، وَبَارَكَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزْوَجِهِ وَذُرِّيَتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيْمَ، إِنَّكَ حَمِيْدٌ مَجِيْدٌ »[1]

وَمِنْ حُقُوقِهِمْ إِعْطَاؤهُمْ خُمُسَ الخُمُسِ مِنْ الغَنِيْمَةِ وَالفَيءِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال: ٤١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ ﴾ [الحشر: ٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٩)، ومسلم (٤٠٧).

وَمِنْ حُقُوقِهِمْ مَعْرِفَةُ فَضْلِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ، لِمَا جَاءَ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيْلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ »[1]. فَنَسَبُهُ ﷺ وَنَسَبُ آلِهِ مِنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ وَأَعْلَاهُ فِي العَرَبِ وَالعَجَمِ.

وَتَتَلَخَّصُ عَقِيْدَةُ أَهْلِ السُنَّةِ فِي آلِ البَيْتِ فِي أَنَّهُمْ يُحِبُونَ المُؤمِنِينَ مِنْهُمْ، وَيَرَوْنَ أَنَّ المُؤمِنَ مِنْ آلِ البَيْتِ لَه حَقَّانِ: حَقُّ الإِيْمَانِ، وَحَقُّ القَرَابَةِ.

وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ مَا شَرَفُوا إِلّا لِقُرْبِهِم مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَمَعَ كُلِّ هَذِهِ المَكَانَةِ الَّتِي أَكْرَمَ اللهُ بِهَا آلَ بَيْتِ نَبِيِّهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَشْرُوطٌ بِالصَّلَاحِ وَالتَّقْوَىٰ، وَهُمْ فِيْمَا عَدَا مَا لَهُمْ مِنْ خَصَائِصٍ كَغَيْرِهِمْ مِنْ المُسْلِمِيْنَ، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِيْنَ مِنْ حُقُوقٍ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَىٰ المُسْلِمِيْنَ مِنْ وَاجِبَاتٍ، فَلَيْسَ قُرْبَهُمْ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ بِمُجِيْزٍ لَهُمْ تَجَاوُزُ أَحْكَامِ اللهِ وَشَرْعِهِ، وَأَنْ يَنَالُوا النَجَاةَ فِي الآخِرَةِ دُوْنَ تَقْوَىٰ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، فَكُلُّ عِبَادِ اللهِ فِي مِيْزَانِ اللهِ سَوَاءٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَأَيْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا »[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، مسلم (١٦٨٨).

وَقَالَ أَيْضاً لِلْعَبّاسِ عَمِّهُ: وَقَدْ اشْتَكَى إِلَيْهِ أَنّ بَعَضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ[1]. فَقَالَ: « وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِه، لا يُؤمِنُونَ حَتّى يُحِبُوكُمْ، للهِ وَلِقَرَابَتِي ». وَقَالَ: « إِنّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيْلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيْلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشاً، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ». وَيَتَوَلّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَهَاتِ المُؤمِنِيْنَ، وَيُؤمِنُونَ بِأَنّهُنّ أَزْوَاجَهُ فِي الآخِرَةِ[1].....

وَقَالَ ﷺ: « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »[1].

فَمَدَارُ النَّجَاةِ الإِيْمَانُ وَالعَمَلُ الصَالِحُ لَا عَلَىٰ الأَحْسَابِ وَالأَنْسَابِ.

(١) فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ قُرَيْشاً إِذَا لَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لَقَوْهُمْ بِبِشْرٍ حَسَنٍ، وَإِذَا لَقَوْنَا لَقَوْنَا بِوُجُوهٍ لَا نَعْرِفُهَا.

(١) وَهُنَّ :

١- خَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَقَدْ مَاتَتْ فِي حَيَاتِهِ ﷺ.

٢- سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

٣- عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِدِّيْقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

٤- حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

٥- زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَقَدْ مَاتَتْ فِي حَيَاتِهِ ﷺ.

٦- أُمُّ سَلَمَةَ هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ المَخْزُومِيّةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

خُصُوصاً خَدِيْجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا(١) أُمّ أَكْثَرِ أَوْلادِه. وَأَوّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ المَنْزِلَةُ العَالِيَةُ.....

٧- أُمُّ حَبِيْبَةَ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٨- جُوَيْرِةُ بِنْتُ الحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَكَانَ اسْمُهَا بَرَّةُ فَسَمَّاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جُوَيْرِةَ.

٩- مَيْمُونَةُ بِنْتُ الحَارِثِ الهِلَالِيَّةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

١٠- صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

١١- زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَيَجِبُ اعْتِقَادُ أَنَّهُنَّ أُمَهَاتُ المُؤمِنِيْنَ، وَأَنَّهُنَّ مُبَرَّآتٌ وَمُطَهَرَاتٌ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الدُنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالتَرَضِي عَلَيْهِنَّ.

وَسَبُّ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ كُفْرٌ، لِأَنَّ فِي هَذَا تَنْقِيْصٌ وَأَذَىٰ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

(١) هِيَ أُمُّ المُؤمِنِيْنَ خَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِالعُزَّىٰ بْنِ قُصَيٍ تَجْتَمِعُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُصَيٍ، وَهِيَ مِنْ أَقْرَبِ نِسَائِهِ إِلَيْهِ فِي النَّسَبِ، تَزَوَّجَهَا وَهُوَ ابْنُ خَمْسَةٍ وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، وَبَقِيَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ أَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِالرِسَالَةِ، وَمَنَاقِبُهَا كَثِيْرَةٌ مِنْهَا:

١- أَنَّهَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ مِنْ النِسَاءِ.

٢- أَنَّهَا كَانَتْ تُقَوِّي قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بِدَايَةِ نُزُولِ الوَحْيِ وَتُطَمِّنُهُ مِمَّا كَانَ يَخْشَاهُ، وَأَنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِ.

٣- أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا حَتَّىٰ فَارَقَتْ الحَيَاةَ.

٤-أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « خَيْرُ نِسَائِهَا[١] مَرْيَمُ[٢]، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيْجَةُ »[٣].

٥- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: (مَا غِرْتُ عَلَىٰ امْرَأَةٍ لِلنَّبِيِّ مَا غِرْتُ عَلَىٰ خَدِيْجَةَ هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوّجَنِي لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُبَشِّرُهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَاةَ فَيُهْدِي فِي خِلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ)[٤].

٦- أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا السَّلَامَ مَعَ جِبْرِيْلَ وَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبِ اللُؤْلُؤِ المُجَوَّفِ المَنْظُومِ بِالدُرِّ وَاليَاقُوتِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَىٰ جِبْرِيْلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ خَدِيْجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَها إِنَاءٌ فِيْهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيْهِ وَلَا نَصَبَ)[٥].

---

(١) أي نساء الدنيا.

(٢) بنت عمران.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٩)، ومسلم (٢٤٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٠٥)، ومسلم (٢٤٣٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم (٢٤٣٢).

وَالصِّدِيْقَةَ بَنْتَ الصِّدِيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[١] الَّتِي قَالَ فِيْهَا النَّبِيُّ ﷺ: « فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَى سَائِرِ الطَعَامِ »......

٧- أَنَّهَا مِمَّنْ كَمُلَ مِنَ النِسَاءِ عَنْ مُرَّةَ بْنِ إِيَاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: « كَمُلَ مِنَ الرِجَالِ كَثِيْرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَان، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِسَاءِ كَفَضْلِ الثَرِيْدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَعَامِ »[١].

٨- أَنَّهَا لَمْ تُعَارِضْ النَّبِيَّ ﷺ وَلَمْ تُعَاتِبْهُ أَوْ تَهْجُرْهُ.

٩- قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: « حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِيْنَ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَان، وَخَدِيْجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةَ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ »[٢].

١٠- أَنَّهَا أُمُّ أَوْلَادِهِ إِلَّا إِبْرَاهِيْمَ فَإِنَّهُ مِنْ مَارِيَةَ القِبْطِيَّةَ.

(١) هِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِدِيقِ عَبْدِاللهِ بْنِ عُثْمَانَ، وَأُمُّهَا رُومَانُ بِنْتُ عَامِرٍ الكِنَانِيَةُ وَلِدَتْ بَعْدَ المَبْعَثِ بِأَرْبَعِ سِنِيْنَ أَوْ خَمْسٍ تَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ وَهِيَ بِنْتُ سِتٍ، وَقِيْلَ: سَبْعٍ، وَيُجْمَعُ بِأَنَّهَا أَكْمَلَتْ السَادِسَةَ وَدَخَلَتْ السَابِعَةَ، وَدَخَلَ بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِيْنَ وَمِنْ مَنَاقِبِهَا:

١- كَانَتْ أَحَبُّ نِسَائِهِ إِلَيْهِ، فَقَدْ سُئِلَ ﷺ: « أَيُّ النِسَاءِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٤٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤١٤)، والترمذي (٣٨٧٨).

قَالَ: عَائِشَةُ، قِيلَ: وَمِنْ الرِجَالِ: قَالَ: أَبُوهَا »[1].

٢- أَنَّ جِبْرِيْلَ أَرْسَلَ سَلَامَهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْماً « يَا عَائِشُ هَذَا جَبْرِيْلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ »، فَقَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ[2].

٣- أَنَّهَا مِمَّنْ كَمُلَ مِنْ النِّسَاءِ قَالَ ﷺ: « كَمُلَ مِنْ الرِجَالِ كَثِيْرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَآنَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَونَ وَخَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَعَامِ »[3].

٤- أَنَّهَا لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ آيَةَ التَخْيِيرِ بَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَا فَاخْتَارَتْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، قَالَتْ: لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَخْيِيْرِ أَزْوَاجِهِ بَدَأَ بِيْ فَقَالَ: « إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْراً فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا يَعْمَلَ حَتَّىٰ تَسْتَأمِرِي أَبَوَيْكِ »، قَالَتْ: (وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأمُرَانِي بِفِرَاقِهِ)، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: « إِنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَائُهُ قَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا... ﴾ [الأحزاب: ٢٨] »، قَالَتْ: (فَقُلْتُ: فَفِي أَيِّ هَذَا اسْتَأمِرُ أَبَوَيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيْدُ اللهَ وَرَسُولَهُ

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٥).

(٣) وقد تقدّم.

وَالدَّارَ الآخِرَةَ)، قَالَتْ: (ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُهُ مِثْلَ مَا فَعَلَتُ)[١].

٥- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَآهَا فِي صُورَتِهَا قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أُرِيْتُكِ فِي المَنَامِ ثَلاثَ لَيَالٍ، جَاءَنِي بِكِ المَلَكُ فِي سَرْقَةٍ مِنْ حَرِيْرٍ[٢]، فَيَقُولُ: هَذِهِ امْرَأَتُكَ فَاكَشِفْ عَنْها فَإِذَا أَنْتِ هِيَ، فَأَقُولُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ »[٣].

٦- أَنَّ الوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي لِحَافِهَا دُوْنَ غَيْرِهَا، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ، فَاجْتَمَعَ صَواحِبِي إِلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ، فَقُلْنَ: يا أُمَّ سَلَمَةَ، وَاللهِ إِنَّ النَّاسَ يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ وَإِنَّا نُرِيْدُ الخَيْرَ كَمَا تَرِيْدُهُ عَائِشَةُ، فَأْمُرِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ أَنْ يُهْدُوا إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ أَوْ حَيْثُ مَا دَارَ، قَالَتْ: فَذَكَرَتْ ذَلِكَ أُمُّ سَلَمَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَعْرَضَ عَنِّي فَلَمَّا عَادَ إِلَيَّ ذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَأَعْرَضَ عَنِّي فَلَمَّا كَانَ فِي الثَالِثَةِ ذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: « يا أُمَّ سَلَمَةَ لَا تُؤذِيْنِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّهُ وَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرَهَا »[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٠٧)، ومسلم (١٤٧٥).

(٢) قطعة من جيد الحرير.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٨٢)، ومسلم (٢٤٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦٤).

٧- شَهَادَةُ البَارِي جَلَّ وَعَلَا بِالْبَرَاءَةِ مِمَّا رُمِيَتْ بِهِ مِنْ الإِفْكِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ [النور: ١١].

٨- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا لَحِقَ بِالرَفِيْقِ الأَعْلَىٰ كَانَ فِي بَيْتِهَا بَيْنَ سَحرِهَا وَنَحْرِهَا وَكَانَ مُسْنِداً ظَهْرَهُ إِلَىٰ صَدْرِهَا(١).

قَالَ ابْنُ القَيْمِ رَحِمَهُ اللهُ: وَاخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ فِي تَفْضِيْلِ خَدِيْجَةَ عَلَىٰ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ - عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ ثَالِثُهَا الوَقْفُ، وَسَأَلْتُ شَيْخَنَا ابْنَ تَيْمِيَّةَ فَقَالَ: اُخْتُصَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِخَاصِيَّةٍ فَخَدِيْجَةُ كَانَ تَأْثِيْرُهَا فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ، وَكَانَتْ تُسَلِّي الرَسُولَ ﷺ وَتُثَبِتَهُ وَتُسَكِّنَهُ وَتَبْذُلَ دُوْنَهُ مَالَهَا فَأَدْرَكَتْ غُرَّةَ الإِسْلَامِ وَاحْتَمَلَتْ الأَذَىٰ فِي اللهِ وَفِي رَسُولِهِ، وَكَانَ نُصْرَتُهَا لِلرَسُولِ فِي أَعْظَمِ أَوْقَاتِ الحَاجَةِ، فَلَهَا مِنْ النُصْرَةِ وَالبَذْلِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهَا، وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَأْثِيْرُهَا فِي آخِرِ الإِسْلَامِ فَلَهَا مِنْ التَّفَقُّهِ فِي الْدِيْنِ وَتَبْلِيْغِهِ إِلَىٰ الأُمَّةِ، وَانْتِفَاعِ بَنِيهَا مِمَّا أَدَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ العِلْمِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهَا، هَذَا مَعْنَىٰ كَلَامِهِ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٠)، ومسلم (٤٤٧٣).

(٢) جلاء الأفهام (١٢٤).

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيْقَةِ الرَوَافِضِ الّذِيْنَ يُبْغِضُونَ الصَحَابَةَ وَيَسُبُونَهُمْ، وَطَرِيْقَةِ النَوَاصِبِ الّذِيْنَ يُؤذُونَ أَهْلَ البَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ وَيُمْسِكُونَ عَمّا شَجَرَ بَيْنَ الصَحَابَةِ(١) وَيَقُولُونَ: إنّ هَذِهِ الآثَارَ المَرْوِيَّةُ فِي مَسَاوِيْهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيْدَ فِيْهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَحِيْحُ مِنْهُ هُمْ فِيْهِ مَعْذُورُونَ: إمّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيْبُونَ وَإمّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يَعْتَقِدُونَ أَنّ كُلّ وَاحِدٍ مِنَ الصَحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإثْمِ وَصَغَائِرِهِ، بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُنُوبُ فِي الجُمْلَةِ.....

(١) وَالمُرَادُ بِذَلِكَ حَرْبُ الجَمَلِ وَصِفّيْنَ وَقَدْ بَدَأَ التَشَاجُرُ بَيْنَ الصَحَابَةِ الكِرَامِ بَعْدَ مَقْتَلِ الخَلِيْفَةِ الرَاشِدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا عَلَىٰ يَدِ الخَارِجِيْنَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَالكُوفَةِ، وَالبَصْرَةِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ لِلْهِجْرَةِ.

وَأَمَّا الدَافِعُ لِهَذِهِ الحَرْبِ هُوَ مُطَالَبَةُ الخَلِيْفَةِ الرَاشِدِ الرَابِعِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِوجُوبِ الإسْرَاعِ بِأَخْذِ القَوَدِ مِنْ أُولئِكَ القَتَلَةِ وَمِمّنْ كَانَ يُطَالِبُ بِذَلِكَ أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةُ وَطَلْحَةُ وَالزُبَيْرُ بْنُ العَوَامِ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَيْنَمَا كَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرَىٰ إرْجَاءَ الأُمُورِ حَتَّىٰ يُبَايِعَهُ أَهْلُ الشَامِ وَيَسْتَتِبَّ لَهُ الأَمْرُ لِيَتَمَكَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ القَبْضِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيْرِينَ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ وَمِنْ قَبَائِلَ مُخْتَلِفَةٍ، وَكَانَ لَهُمْ مِنَ التَمْكِينِ وَالقُوَّةِ الشَيءَ الكَثِيْرِ.

وَمَوْقِفُ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الإمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ إلَّا فِيْمَا يَلِيْقُ بِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِمَا يُسَبِّبُهُ الخَوْضُ فِي ذَلِكَ مِنْ تَوْلِيْدِ العَدَاوَةِ وَالحِقْدِ وَالبُغْضِ لِأَحَدِ

الطَرَفَيْنِ وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الذُنُوبِ، لِأَنَّ الوَاجِبَ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُحِبَّ الجَمِيْعَ وَيَتَرَضَّىٰ عَنْهُمْ، وَيَتَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ، وَيَحْفَظَ لَهُمْ فَضَائِلَهَم وَيَعْتَرِفَ لَهُمْ بِسَوَابِقِهُم، وَيَنْشُرَ مَنَاقِبَهُمْ، وَأَنَّ الَّذِي حَصَلَ بَيْنَهُمْ إِنَّمَا كَانَ عَنْ اجْتِهَادٍ وَالجَمِيْعُ مُثَابُونَ فِي حَالَتَي الصَوَابِ وَالخَطَأِ غَيْرَ أَنَّ ثَوَابَ المُصِيْبِ ضِعْفَ ثَوَابِ المُخْطِئِ فِي اجْتِهَادِهِ، وَأَنَّ القَاتِلَ وَالمَقْتُولَ مِنْ الصَّحَابَةِ فِي الجَنَّةِ.

وَمِمَّا وَرَدَ فِي ذَلِكَ عَنْ السَّلَفِ الصَالِحِ:

١. سُئِلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالعَزِيْزِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ القِتَالِ الَّذِي حَصَلَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: تِلْكَ دِمَاءٌ طَهَّرَ اللهُ يَدِيَ مِنْهَا أَفَلَا أُطَهِّرُ مِنْهَا لِسَانِي، مَثْلُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِثْلَ العُيُونِ، وَدَوَاءُ العُيُونِ تَرَكُ مَسِّهَا[١].

قَالَ البَيْهَقِيُ مُعَلِقًا عَلَىٰ قَوْلِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِالعَزِيْزِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "هَذَا حَسَنٌ جَمِيْلٌ لِأَنَّ سُكُوتَ الرَجُلِ عَمَّا لَا يَعْنِيْهِ هُوَ الصَوَابُ"[٢].

٢. قَالَ عَامِرُ بْنُ شَرَحْبِيْل الشَعْبِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي المُقْتَتِلِينَ مِنْ الصَحَابَةِ: لِأَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَمْ يَفِرُّ أَحَدٌ مِنْ أَحَدٍ[٣].

٣. سُئِلَ الحَسَنُ البَصْرِيُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قِتَالِ الصَحَابَةِ فِيْمَا بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِتَالٌ

---

(١) مناقب الشافعي للرازي (١٣٦)، الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٥/ ٣٩٤).

(٢) مناقب الشافعي للرازي (١٣٦).

(٣) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٣٠٣).

شَهِدَهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَغِبْنَا، وَعَلِمُوا وَجَهِلْنَا، وَاجْتَمَعُوا فَاتَّبَعْنَا، وَاخْتَلَفُوا فَوَقَفْنَا[1].

٤. سُئِلَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَادِقِ عَمَّا وَقَعَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: أَقُولُ مَا قَالَ اللهُ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[طه: ٥٢][2].

٥. قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بَعْدَ أَنْ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ: (مَا أَقُولُ فِيهِمْ إِلَّا الحُسْنَىٰ)[3]. وَمَرَّةً سَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: اِقْرَأْ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١][4].

٦. قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "وَاتَّفَقَ أَهْلُ السُنَّةِ عَلَىٰ وُجُوبِ مَنْعِ الطَّعْنِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَلَوْ عُرِفَ المُحِقُّ مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي تِلْكَ الحُرُوبِ إِلَّا عَنْ اجْتِهَادٍ بَلْ ثَبَتَ أَنَّهُ يُؤجَرُ أَجْراً وَاحِداً، وَأَنَّ المُصِيبَ يُؤجَرُ أَجْرَيْنِ"[5].

٧. قَالَ العَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ: أَدْرَكْتُ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْضُهُمْ يَقُولُ

---

(١) ذكره القرطبي في إحكام القران (١٦/ ٣٣٢).

(٢) ذكره الباقلاني في الإنصاف (٦٩).

(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (١٦٤).

(٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (١٢٦).

(٥) فتح الباري (١٣/ ٣٤).

لِبَعْضٍ: اُذْكُرُوا مَحَاسِنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِتَأْتَلِفَ عَلَيْهَا القُلُوبُ، وَلَا تَذْكُرُوا مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ فَتُحَرِّشُوا النَّاسَ عَلَيْهِمْ(١).

وَقَدْ وَرَدَتْ بَعْضُ النُصُوصِ فِيْهَا الإِشَارَةُ إِلَىٰ مَا وَقَعَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ، وَبِمَا وصِفُوا بِهِ فِيْهَا:

١ - قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

"هَذَا إِذَا حَصَلَ اقْتِتَالٌ بَيْنَ عُمُومِ المُؤْمِنِيْنَ وَلَمْ يُخْرِجُهُمْ ذَلِكَ مِنْ الإِيْمَانِ فَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِيْنَ اقْتَتَلُوا فِي مَوْقِعَةِ الجَمَلِ وَبَعْدَهَا أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيْمَانِ الَّذِي ذُكِرَ فِي هَذِهِ الآيَةِ فَهُمْ لَا يَزَالُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ مُؤْمِنِيْنَ إِيْمَانًا حَقِيْقِيًا وَلَمْ يُؤَثِّرْ مَا حَصَلَ بَيْنَهُمْ مِنْ شِجَارٍ فِي إِيْمَانِهِمْ بِحَالٍ مِنْ الأَحْوَالِ لِأَنَّهُ كَانَ عَنْ اجْتِهَادٍ"(٢).

٢ - مَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَا تَقُومُ السَاعَةُ حَتَّىٰ تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيْمَتَانِ وَتَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيْمَةٌ وَدَعْوَاهَا وَاحِدَةٌ »(٣).

---

(١) كتاب الشرح والإبانة عن أصول السنة والديانة لابن بطة (١٦٥).

(٢) انظر العواصم لابن العربي (١٦٩-١٧٠)، وأحكام القران له (٠٤/ ١٧١٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٠٤)، ومسلم (١٥٧).

وَلَهُمْ مِنْ السَوَابِقِ وَالفَضَائِلِ مَا يُوْجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ -إِنْ صَدَرَ- حَتّى إِنّهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنْ السّيِئَاتِ مَا لا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، لأَنّ لَهُمْ مِنْ الحَسَنَاتِ الّتِي تَمْحُو مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ. وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ

وَالمُرَادُ بِالفِئَتَيْنِ جَمَاعَةُ عَلِيٍّ وجَمَاعَةُ مُعَاوِيَةَ، وَالمُرَادُ بِالْدَعْوَةِ الإِسْلَامُ عَلَىٰ الرَاجِحِ، وَقِيْلَ: اعْتِقَادُ كُلٍّ مِنْهُمَا الحَقَّ[1].

٣- عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنْ المُسْلِمِيْنَ تَقْتُلُهُمْ أَوْلَىٰ الطَائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ »[2].

قَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ: ''وَفِيْهِ أَنَّ أَصْحَابَ عَلِيٍّ أَدْنَىٰ الطَائِفَتَيْنِ إِلَىٰ الحَقِّ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ عَلِيّاً هُوَ المُصِيْبُ وَإِنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ مُجْتَهِداً وَهُوَ مَأْجُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ وَلَكِنْ عَلِيٌّ هُوَ الإِمَامُ فَلَهُ أَجْرَانِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيْحِ البُخَارِي مِنْ حَدِيْثِ عَمْرو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ »''[3].

٤- وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: بَيْنَما النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ جَاءَ الحَسَنُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنْ المُسْلِمِيْنَ »[4].

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٤).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٣١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٣٠).

رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ القُرُونِ، وَأَنَّ المُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَأَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً مِمَّنْ بَعْدَهُمْ(١).

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ، فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ، بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ المُحَقَّقَةِ فَكَيْفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا مِنْهَا مُجْتَهِدِيْنَ: إِنْ أَصَابُوا فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالخَطَأُ مَغْفُورٌ.

ثُمَّ إِنَّ القَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْفُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ القَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ، مِنَ الإِيْمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيْلِهِ، وَالهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالعِلْمِ النَافِعِ، وَالعَمَلِ الصَالِحِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيْرَةِ القَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيْرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الفَضَائِلِ، عَلِمَ يَقِيْناً أَنَّهُمْ خَيْرُ الخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ، لا كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمُ الصَفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ.....

---

(١) كَمَا جَاءَ مِنْ حَدِيْثِ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَو أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيْفَهُ »(١).

وَجَاءَ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيْهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ ﷺ قَالَ: « النُجُومُ أَمَنَةُ السَمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُجُومُ أَتَىٰ السَمَاءُ مَا تُوْعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَىٰ أَصْحَابِي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٥٤١).

مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَىٰ أُمَّتِي مَا تُوْعَدُ »[1].

وَجَاءَ عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: « قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِئُ قَوْمٌ تَبْدُرُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِيْنَهُ، وَتَبْدُرُ يَمِيْنَهُ شَهَادَتَهُ »[2].

وَجَاءَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي القُرآنِ الكَرِيْمِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ فَضْلِهِمْ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣ – ٣٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٣٣).

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُنَّةِ التَّصْدِيْقُ بِكَرَامَاتِ[1] الأَوْلِيَاءِ[2].....

(١) الكَرَامَاتُ جَمْعُ كَرَامَةٍ وَهِيَ النِّعْمَةُ الخَاصَةُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥].

وَاصْطِلَاحًا: هِيَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، يُجْرِيْهِ اللهُ عَلَىٰ يَدِ وَلِيٍ مِنْ أَوْلِيَاءِهِ، مَعُوْنَةً لَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ دِيْنِيٍ أَوْ دُنْيَوِيٍ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ حُصُولَ الأَمْرِ الخَارِقِ لِلْعَادَةِ لَيْسَ مِيْزَانًا فِي بَيَانِ الوِلَايَةِ وَالحَقِّ، بَلْ المِيْزَانُ الإِيْمَانُ وَالتَقْوَىٰ وَالسِيْرَةُ الحَسَنَةُ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَغْتَرَّ بِمَنْ يَمْشِي عَلَىٰ المَاءِ، أَوْ يَطِيْرُ عَلَىٰ الهَوَاءِ حَتَّىٰ يَأْتِي شَاهِدَيْنِ مِنْ الكِتَابِ وَالسُنَّةِ. لِأَنَّ الأَمْرَ الخَارِقَ قَدْ يَظْهَرُ عَلَىٰ يَدِ السَّاحِرِ.

(٢) جَمْعُ وَلِيٍ، وَهُوَ كُلُّ مُؤمِنٍ تَقِيٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٣].

وَعَرَّفَهُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ: هُوَ مَنْ فَعَلَ المَأْمُورَ، وَتَرَكَ المَحْظُورَ، وَصَبَرَ عَلَىٰ المَقْدُورِ، فَأَحَبَّ اللهَ وَأَحَبَّهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ.

وَيُفَرَّقُ بَيْنَ الكَرَامَةِ وَالمُعْجِزَةِ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

١- الكَرَامَةُ تَظْهَرُ مِنْ غَيْرِ دَعْوَىٰ الرِسَالَةِ، وَأَنَّ المُعْجِزَةَ تَظْهَرُ عِنْدَ دَعْوَىٰ الأَنْبِيَاءِ فَيُطَالَبُونَ بِالبَرَاهِيْنِ عَلَىٰ صِدْقِ دَعْوَاهُمْ[1].

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٢١).

٢- أَنَّ الكَرَامَةَ لَيْسَ فِيْهَا تَحَدِي، وَأَنَّ المُعْجِزَةَ فِيْهَا تَحَدِي، كَمَا قَالَ المَازِرِي: "الفَرْقُ بَيْنَ المُعْجِزَةِ وَالكَرَامَةِ وَالسِّحْرِ: أَنَّ السِّحْرَ يَكُونُ بِمُعَانَاةِ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ حَتَّىٰ يَتِمَّ لِلسَّاحِرِ مَا يُرِيْدُ، وَالكَرَامَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ ذَلِكَ، بَلْ إِنَّمَا تَقَعُ غَالِبًا اتِفَاقًا، وَأَمَّا المُعْجِزَةُ فَتَمْتَازُ عَنْ الكَرَامَةِ بِالتَّحَدِي." اهـ[1]

وَلِلْمُعْجِزَةِ خَمْسُ عَلَامَاتٍ:

١- أَنْ تَكُونَ مِمَّا لَا يَقْدِرَ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ.

٢- أَنْ تَخْرِقَ العَادَةَ.

٣- أَنْ يَسْتَشْهِدَ بِهَا مُدَّعِي الرِسَالَةِ عَلَىٰ اللهِ.

٤- أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ وِفْقِ دَعْوَىٰ المُتَحَدِّي بِهَا، المُسْتَشْهَدُ بِكَوْنِهَا مُعْجِزَةً لَهُ.

٥- أَنْ لَا يَأْتِيَ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا أَتَىٰ بِهِ المُتَحَدِّي عَلَىٰ وَجْهِ المُعَارَضَةِ.

وَيُفَرَّقُ بَيْنَ الكَرَامَةِ وَالمُعْجِزَةِ وَبَيْنَ السِّحْرِ بِأَمْرَيْنِ:

١- أَنَّ السِّحْرَ يَكُونُ بِمُعَانَاةِ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ حَتَّىٰ يَتِمَّ لِلْسَاحِرِ مَا يُرِيْدُ، كَمَا قَالَ المَازِرِيُ.

٢- بِالنَظَرِ إِلَىٰ حَالِ مَنْ يَقَعُ مِنْهُ الخَارِقُ، فَإِنْ كَانَ مُتَمَسِكًا بِالشَرِيْعَةِ مُجْتَنِبًا لِلْمُوبِقَاتِ، فَالَّذِي يَظْهَرُ عَلَىٰ يَدِهِ مِنْ الخَوَارِقِ كَرَامَةٌ وَإِلَّا كَانَ

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٣).

وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ العُلُومِ، وَالمُكَاشَفَات، وَأَنْوَاعِ القُدْرَةِ وَالتَأثِيْرَات[1].

وَالمَأثُورُ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمّةِ مِنْ الصّحَابَةِ وَالتَابِعِيْنَ وَسَائِرِ فِرَقِ الأُمّةِ، وَهِيَ مَوجُودَةٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ[2].....

سِحْراً[1].

وَقَدْ أَنْكَرَتْ الفَلَاسِفَةُ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ، كَمَا أَنْكَرُوا مُعْجِزَاتِ الأَنْبِيَاءِ، وَأَنْكَرَتْ الكَرَامَاتِ أَيْضاً المُعْتَزِلَةُ وَبَعْضُ الأَشَاعِرَةِ بِدَعْوَىٰ الْتِبَاسِهَا بِالمُعْجِزَةِ، وَهِيَ دَعْوَىٰ بَاطِلَةٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعَنَا بَيَانُ الفَرْقِ بَيْنَ المُعْجِزَةِ وَالكَرَامَةِ.

(١) الكَرَامَاتُ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

١- كَرَامَاتٌ مِنْ جِهَةِ العِلْمِ وَالكَشْفِ، مِثْلُ مَا حَصَلَ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِيْقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَمَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَىٰ مَا فِي بَطْنِ زَوْجَتِهِ أَنَّهُ أُنْثَىٰ.

وَمِثْلُ مَا حَصَلَ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَابِ وَهُوَ عَلَىٰ المِنْبَرِ عِنْدَمَا قَالَ: (يَا سَارِيَةُ الجَبَلَ).

٢-كَرَامَاتٌ مِنْ جِهَةِ القُدْرَةِ وَالتَأْثِيْرِ، مِثْلُ مَا حَصَلَ لِأَبِي العَلَاءِ الحَضْرَمِي عِنْدَمَا مَشَىٰ عَلَىٰ المَاءِ.

(٢) وَوُقُوعُ الكَرَامَاتِ يَتَضَمَّنُ حِكَماً وَمَصَالِحَ كَثِيْرَةً، مِنْهَا:

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٣).

١ - أَنَّهَا كَالمُعْجِزَةِ تَدُلُّ أَعْظَمَ دِلَالَةٍ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ وَنُفُوذِ مَشِيْئَتِهِ، وَأَنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ، وَأَنَّ لَهُ فَوْقَ هَذِهِ السُنَنِ وَالأَسْبَابِ المُعْتَادَةِ سُنَنٌ أُخْرَىٰ لِيَقَعَ عَلَيْهَا عِلْمُ البَشَرِ، وَلَا تُدْرِكَهَا أَعْمَالُهُمْ.

٢ - أَنَّ وُقوعَ الكَرَامَاتِ هُوَ فِي الحَقِيْقَةِ مُعْجِزَةً لِلأَنْبِيَاءِ، لِأَنَّ تِلْكَ الكَرَامَاتِ لَمْ تَحْصُلْ لَهُمْ إِلَّا بِبَرَكَةِ مُتَابَعَتِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِمْ وَسَيرِهِمْ عَلَىٰ هَدْيِهِمْ.

٣-أَنَّ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ هِيَ البُشْرَىٰ الَّتِي عَجَّلَهَا اللهُ لَهُمْ فِي الدُنْيَا.

فَصْــلٌ

ثُمّ إنّ مِنْ طَرِيْقَةِ أَهْلِ السُنّةِ وَالجَمَاعَةِ اتبَاعُ(١)...............

(١) وَذَلِكَ بِسُلُوكِ طَرِيْقَةِ الرَسُولِ ﷺ وَالسَيْرِ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِ، قَالَ ابْنُ القَيّمِ: الاتبَاعُ سُلُوكُ طَرِيْقِ المُتَّبَعِ، وَالإِتْيَانُ بِمِثْلِ مَا أَتَىٰ بِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر: ٧]، وَقَالَ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وَقَالَ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فَاتِبَاعُهُ ﷺ مِنْ أَعْظَمِ الفُرُوضِ، بَلْ كُلُّ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ يُخَالِفُ مَا عَلَيْهِ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ مَرْدُوْدٌ عَلَىٰ فَاعِلِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ كَمَا جَاءَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ ». فَاتِبَاعُ الرَسُولِ شَرْطٌ لِصِحَةِ العَمَلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وَقَالَ: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧، الملك: ٢]، قَالَ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، وَقِيْلَ: يَا أَبَا عَلِي مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: "إِنَّ العَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالخَالِصُ أَنْ يَكُونَ للهِ، وَالصَوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ سُنَّةِ الرَسُولِ ﷺ".

آثَارِ رَسُولِ[(١)] اللهِ ﷺ..................................

وَقَدْ اتَّفَقَ المُسْلِمُونَ عَلَىٰ أَنَّ حُبَّ الرَسُولِ ﷺ فَرْضٌ بَلْ لَا يَتِمُّ الإِيْمَانُ وَالإِسْلَامُ إِلَّا بِكَوْنِهِ

أَحَبُ إِلَىٰ العَبْدِ مِنْ نَفْسِهِ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِ، وَاتَفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ حُبَّهُ لَا يَتَحَقَقُ إِلَّا بِاتِبَاعِ آثَارِهِ، وَالتَسْلِيْمِ لِمَا جَاءَ بِهِ، وَالعَمَلِ عَلَىٰ سُنَّتِهِ وَتَرْكِ مَا خَالَفَ قَوْلَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

(١) أَيْ كُلُّ ما أُثِرَ عَنْهُ، وَرُوِيَ عَنْهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَقْرِيْرٍ، وَلَيْسَ المُرَادُ بِالآثَارِ أَثَارَهُ الحِسِّيَةِ كَمَوْضِعِ نَوْمِهِ ﷺ وَجُلُوسِهِ وَقِيَامِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَلَا يَنْبَغِي تَتَبُّعُ ذَلِكَ، لِأَنَّه وَسِيْلَةٌ إِلَىٰ الفِتْنَةِ بِتِلْكَ المَوَاضِعِ وَرُبَّمَا آلَ إِلَىٰ جَعْلِهَا مَعَابِدَ وَلِذَلِكَ قَطَعَ عُمَرُ بْنُ الخَطَابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الشَجَرَةَ الَّتِي بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَهَا الصَّحَابَةَ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ أُنَاساً يَذْهَبُونَ إِلَىٰ الشَّجَرَةِ فَيُصَلُونَ تَحْتَهَا، وَنَهَىٰ عَنْ اتِبَاعِ آثَارِهِ الحِسِيَّةِ، وَقَالَ: إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِاتِبَاعِ آثَارِ أَنْبِيَائِكُمْ، وَأَمَّا مَا كَانَ يَفْعَلُهُ ابْنُ عُمَرَ مِنْ تَتَبُّعِ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ خَالَفَهُ أَبُوهُ وَجُمْهُورِ الصَّحَابَةِ، وَالصَوَابُ مَعَهُمْ حَسْماً لِمَوَادِ الشِرْكِ وَسَدّاً لِلْذَرَائِعِ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ، وَالإِسْلَامُ مَبْنِيٌ عَلَىٰ أَصْلَيْنِ: أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ، وَأَنْ نَعْبُدَهُ بِمَا شَرَعَ لَا بِالْبِدَعِ.

بَاطِناً وَظَاهِراً(١)، وَاتِبَاعُ سَبِيْلِ الأَوَلِيْنَ مِنْ المُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ(٢).

وَأَمَّا التَبَرُّكُ بِآثَارِ جَسَدِهِ الشَّرِيْفِ ﷺ كَشَعْرِهِ، وَرِيْقِهِ، وَعَرَقِهِ، وَمَا مَسَّ جَسَدَهُ فَكُلُّهُ جَائِزٌ، لِأَنَّ السُنَّةَ قَدْ صَحَّتْ بِذَلِكَ، وَقَدْ قَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ بَيْنَ النَّاسِ شَعْرَ رَأسِهِ، لِمَا قَدْ جَعَلَ اللهُ فِيْهِ مِنْ الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ بِخِلَافِ غَيْرِهِ فَإِنَّهُ عَلَىٰ الصَحِيْحِ لَا يَجُوزُ التَبَرُّكُ بِآثَارِهِمْ لِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

١- أَنَّ غَيْرَهُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهِ ﷺ.

٢- أَنَّ الصَّحَابَةَ الكِرَامُ لَمْ يَفْعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ مَعَ غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا مَعَ الصِّدِيْقِ، وَلَا مَعَ عُمَرَ، وَلَا مَعَ غَيْرِهِمَ، وَلَوْ كَانَ سَائِغاً أَوْ قُرْبَةً لَسَبَقُوْنَا إِلَيْهِ، وَلَمْ يُجْمِعُوا عَلَىٰ تَرْكِهِ فَلَمَّا تَرَكُوهُ عُلِمَ أَنَّ الحَقَ تَرْكُ ذَلِكَ وَعَدَمُ إِلْحَاقِ غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ.

٣- أَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُوقِعُ فِي الغُلُوِ وَأَنْوَاعِ الشِرْكِ فَوَجَبَ سَدُّ الذَرَائِعِ بِالمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ.

(١) إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ الإِخْلَاصِ فِي العَمَلِ، وَأَنَّهُ كُلُّ عَمَلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللهِ فَلَيْسَ لِعَامِلِهِ فِيْهِ ثَوَابٌ، كَمَا أَنَّهُ كُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ عَلَيْهِ أَمْرُ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَىٰ عَامِلِهِ.

(٢) لِمَا خَصَّهُمْ اللهُ بِهِ مِنْ العِلْمِ وَالفَضْلِ وَالفِقْهِ عَنْ اللهِ وَرَسُولِهِ فَقَدْ شَاهَدُوا التَنْزِيْلَ، وَسَمِعُوا التَأْوِيْلَ، وَتَلَقُوا عَنْ الرَسُولِ ﷺ بِلَا وَاسِطَةٍ، فَهُمْ أَحَقُ

بِإِصَابَةِ الصَوَابِ، وَأَجْدَرُ بِاتِبَاعِ السُنَّةِ وَالكِتَابِ. قَالَ ابْنُ القَيْمِ: "وَمِنْ المُحَالِ أَنْ يَكُونَ الصَوَابُ فِي غَيْرِ طَرِيْقِ مَنْ سَبَقَ إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ." اهـ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وَهَذَا مُتَنَاوِلٌ لِكُلِّ مَنْ اتَّبَعَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ. قَالَ الشَاطِبِيُ: لِلْصَّحَابَةِ سُنَّةٌ يَعْمَلُ عَلَيْهَا وَيُرْجَعُ إِلَيْهَا، وَمِنْ الدَلِيْلِ عَلَىٰ ذَلِكَ أُمُورٌ ثُمَّ سَاقَهَا، وَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: (مَنْ كَانَ مُسْتَنّاً فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ فَإِنَّ الحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الفَتْنَةُ، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ أَبَرُّ هَذِهِ الأُمَّةِ قُلُوباً وَأَعْمَقُهَا عِلْماً، وَأَقَلُّهَا تَكَلُّفاً، قَوْمٌ اخْتَارَهُمْ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِيْنِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ وَتَمَسَّكُوا بِهَدْيِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ الهُدَىٰ المُسْتَقِيْمِ.)اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: "أُصُولُ السُنَّةِ عِنْدَنَا التَمَسُكُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلِهَذَا كَانَ اعْتِقَادُ الفِرْقَةِ النَاجِيَةِ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا شَهِدَ لَهُمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: « مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي »".

وَأَكْثَرُ العُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّ قَوْلَ الصَحَابِي حُجَّةً يَجِبُ اتِبَاعُهَا، وَيَحْرُمُ الخُرُوجُ عَلَيْهَا حَيْثُ إِذَا لَمْ يُخَالِف دَلِيلًا مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ.

وَاتِبَاعُ وَصِيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَيْثُ قَالَ[1]: « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةَ الخُلَفَاءِ الرَاشِدِيْنَ المَهْدِيينَ[2]مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَوَاجِذ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ[3]، فَإِنّ كُلّ مُحْدَثَةٍ[4] بِدْعَةٌ، وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٍ، وَكُلّ .....

(١) فِي حَدِيْثِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1].

(٢) وَهُمْ أَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كَمَا كَانَ فِي حَدِيْثِ سَفِيْنَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « خِلَافَةُ النُبُوَةُ ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ يُؤتِي اللهُ المُلْكَ – أَوْ مُلْكَهُ- مَنْ يَشَاءُ »[2]. وَعِنْدَ التِرْمِذِي وَأَحْمَدَ: « ثُمَّ مُلْكًا بَعْدَ ذَلِكَ ». وَوَصَفَ الخُلَفَاءَ بَالرُشْدِ، لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا الحَقَّ وَقَضَوا بِهِ، وَالرَاشِدُ ضِدُّ الغَاوِي، وَالغَاوِي مَنْ عَرَفَ الحَقَّ وَعَمِلَ بِخِلَافِهِ.

(٣) يَعْنِي أَنَّ اللهَ هَدَاهُمْ إِلَىٰ الحَقِّ وَلَمْ يُضِلَّهُمْ عَنْهُ، فَالأَقْسَامُ ثَلَاثَةٌ: رَاشِدٌ وَغَاوٍ وَضَالٌ، فَالرَاشِدُ عَرَفَ الحَقَّ وَاتَّبَعَهُ وَالغَاوِي عَرَفَهُ وَلَمْ يَتَبِعَهُ، وَالضَالُ لَمْ يَعْرِفْهُ بِالكُلِّيَةِ. انْتَهَىٰ مِنْ كَلَامِ ابْنِ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ.

(٤) بِضَمِّ المِيْمِ وَسُكُونِ الحَاءِ جَمْعُ مُحْدَثَةٍ، وَالمُرَادُ بِهَا البِدَعُ، وَالبِدَعُ لُغَةً: كُلُّ شَيءٍ عُمِلَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَأَمَّا البِدْعَةُ الشَرْعِيَّةُ فَهِيَ مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيْلٌ شَرْعِيٌ، فَلَفْظُ البِدْعَةِ فِي اللُّغَةِ أَعَمُّ مِنْ البِدْعَةِ فِي الشَّرِيْعَةِ، وَهَذَا

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجة(٤٢)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجة ابو داود(٤٦٤٦)، والترمذي(٢٢٢٦)، واحمد(٢١٩٢٢)، وصححه الالباني.

الحَدِيْثُ دَلَّ عَلَىٰ التَحْذِيْرِ مِنْ البِدَعِ وَالرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ تَقْسِيْمَ البِدْعَةِ إِلَىٰ حَسَنَةٍ وَقَبِيْحَةٍ، وَأَمَّا قَوْلُ عُمَرَ: (نِعْمَتْ البِدْعَةُ) فَالمُرَادُ بِهَا البِدْعَةُ اللُّغَوِيَّةُ، إِذْ أَصْلُ التَرَاوِيْحِ مَشْرُوعَةٌ، فَقَدْ صَلَّاهَا الرَسُولُ ﷺ بِأَصْحَابِهِ ثُمَّ تَرَكَهَا لَمَّا خَشِيَّ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْهِمْ، وَتَنْقَسِمُ البِدْعَةُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:

١ - بِدْعَةٌ اعْتِقَادِيَّةٌ، وَهِيَ اعْتِقَادُ خِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَسُولُ ﷺ كَقَوْلِهِ ﷺ: « وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً ».

٢ - بِدْعَةٌ عَمَلِيَّةٌ وَهِيَ التَعَبُّدُ بِغَيْرِ مَا شَرَعَ اللهُ وَرَسُولُهُ فَمَنْ تَعَبَّدَ بِغَيْرِ مَا شَرَعَ أَوْ حَرَّمَ مَا لَمْ يُحَرِمْهُ الشَرْعُ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ. وَالبِدْعَتَانِ غَالِبًا مُتَلَازِمَتَانِ، قَلَّ أَنْ تَنْفَكَّ إِحْدَاهُمَا عَنْ الأُخْرَىٰ. قَالَ ابْنُ دَقِيْقِ العِيْدِ: "اعْلَمْ أَنَّ المُحْدَثَ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: مُحْدَثٌ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ مِنْ الشَرِيْعَةِ فَهَذَا بَاطِلٌ مَذْمُومٌ، وَمُحْدَثٌ يَحْمِلُ النَظِيْرَ عَلَىٰ النَظِيْرِ فَهَذَا لَيْسَ بِمَذْمُومٍ، لِأَنَّ البِدْعَةَ وَلَفْظُ المُحْدَثِ لَا يُذَمَّانِ لِمُجَرَدِ الاسْمِ بَلْ لِمَعْنَىٰ مُخَالَفَةِ السُنَّةِ، وَالدَاعِي إِلَىٰ الضَلَالَةِ، وَلَا يُذَمُّ ذَلِكَ مُطْلَقًا، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] الآيَةُ، وَقَالَ عُمَرُ: (نِعْمَتْ البِدْعَةُ هَذِهِ). يَعْنِي التَرَاوِيْحَ.

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ: "وَأَصْلُ ضَلَالِ أَهْلِ الأَرْضِ إِنَّمَا تَنشَأُ مِنْ هَذَيْنِ: إِمَّا اتِخَاذُ دِيْنٍ لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ أَوْ تَحْرِيْمُ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ، وَلِهَذَا كَانَ الأَصْلُ الَّذِي بَنَىٰ عَلَيْهِ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ مَذَاهِبِهِمْ، أَنَّ أَعْمَالَ

وَيَعْلَمُونَ أَنّ أَصْدَقَ الكَلامِ كَلامُ اللهِ(١)، وَخَيْرَ الهَدْيِ(٢) هَدْيُ مُحَمّدٍ ﷺ

الخَلْقِ تَنْقَسِمُ إِلَىٰ عِبَادَاتٍ يَتَخِذُونَهَا، وَإِلَىٰ عَادَاتٍ يَنْتَفِعُونَ بِهَا فِي مَعَاشِهِمْ، فَالأَصْلُ فِي العِبَادَاتِ التَحْرِيْمُ إِلَّا مَا شَرَعَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلِهَذَا يُشْتَرَطُ لِلْعِبَادَةِ شَرْطَانِ: الإِخْلَاصُ وَالمُتَابَعَةُ.

كَمَا قَالَ ﷺ: « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ »، وَكَانَ ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: « إِنَّ خَيْرَ الحَدِيْثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ »، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْنَسَائِي: «وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ ».

وَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اتَبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيْتُمْ). وَقَالَ الأَوْزَاعِيُ رَحِمَهُ اللَّهُ: "عَلَيْكَ بِآثَارِ مَنْ سَلَفَ وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ، وَإِيَّاكَ وَآرَاءِ الرِجَالِ، وَإِنْ زَخْرَفُوهُ لَكَ بِالقَوْلِ".

(١) كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

(٢) بِفَتْحِ الهَاءِ وَسُكُونِ الدَالِ، السَمْتُ وَالطَرِيْقَةُ وَالسِيْرَةُ. وَقُرِئَ بِالضَمِّ أَيْ: الدِلَالَةُ والإِرْشَادُ.

وَيُؤْثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ(١)، وَيُقَدِمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ(٢).....

(١) لِأَنَّنَا أُمِرْنَا بِالاعْتِصَامِ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُ وَأَكْثَرُ المُفَسِرِيْنَ: هُوَ القُرْآنُ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إِنَّ هَذَا القُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللهِ، وَهُوَ لنُوْرُ المُبِيْنُ وَهُوَ الشِفَاءُ النَافِعُ، وَعِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَنَجَاةً لِمَنْ اتَّبَعَهُ). وَقَالَ عَلِيُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (هُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِيْنُ، وَالذِكْرُ الحَكِيْمُ، وَهُوَ الصِرَاطُ المُسْتَقِيْمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيْغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَخْتَلِفُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ. وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دُعِيَ إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ).

(٢) لِأَنَّ دِيْنَهُ أَكْمَلُ الأَدْيَانِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَشَرِيْعَتَهُ أَفْضَلُ الشَرَائِعِ، فَمَنْ ادَّعَىٰ أَنَّ هَدْيَ غَيْرِهِ أَكْمَلُ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ أَوْ ادَّعَىٰ غِنَاهُ عَنْ الرِسَالَةِ بِمُكَاشَفَةٍ أَوْ مُخَاطَبَةٍ أَوْ عِصْمَةٍ فَهُوَ كَافِرٌ. وَكَذَلِكَ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الخُرُوجُ عَنْ شَرِيْعَتِهِ أَوْ تَكْذِيْبُ خَبَرِهِ ﷺ فَهُوَ كَافِرٌ.

وَكَذَلِكَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ دِيْنَهُ قَاصِرٌ لَا يُنَاسِبُ الزَمَانَ، وَأَنَّ النُظُمَ الغَرْبِيَّةُ الوَضْعِيَةُ أَحْسَنُ مِنْ نِظَامِ الشَرِيْعَةِ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَيَجِبُ أَنْ يُسْتَتَابَ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الكِتَابِ وَالسُنَّة(١)، وَسُمُّوا أَهْلَ الجَمَاعَة(٢) لأنّ الجَمَاعَةَ هِيَ الاجْتِمَاعُ وَضِدُّهَا الفُرْقَةُ(٣)، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ لِنَفْسِ القَوْمِ المُجْتَمِعِينَ.....

(١) لِاتِبَاعِهِمْ لِلْكِتَابِ وَالسُنَّةِ فِي الأُصُولِ وَالفُرُوعِ، وَتَحْكِيمَهُمَا فِي القَلِيلِ وَالكَثِير وَتَقْدِيْمَهُمَا عَلَىٰ قَوْلِ كُلِّ أَحَدٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

(٢) لِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَىٰ الاقْتِدَاءِ بِالْكِتَابِ وَالسُنَّةِ، وَلَمْ يَتَفَرَّقُوا فِي الدِيْنِ شِيَعًا وَأَحْزَابًا، لِأَنَّ اللهَ بَرَّأَ نَبِيَّهُمْ مِنْ المُتَفَرِقِيْنَ فِي الْدِيْنِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

(٣) المُفَارَقَةُ وَهِيَ المُبَايَنَةُ والمُفَاصَلَةُ وَالانْقِطَاعُ، وَالافْتِرَاقُ مَأْخُوذٌ مِنْ الانْشِعَابِ وَالشُذُوذِ، وَمِنْهُ الخُرُوجُ عَنْ الأَصْلِ، وَالخُرُوجُ عَنْ الجَمَاعَةِ.

وَفِي الاصْطِلَاحِ الافْتِرَاقُ هُوَ الخُرُوجُ عَنْ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فِي أَصْلٍ أَوْ أَكْثَرِ مِنْ أُصُولِ الْدِيْنِ القَطْعِيَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ الأُصُولُ الاعْتِقَادِيَّةُ أَوْ العَمَلِيَّةُ المُتَعَلِقَةُ بِالقَطْعِيَاتِ، أَوْ المُتَعَلِقَةُ بِمَصَالِحِ الأُمَّةِ العُظْمَىٰ أَوْ بِهِمَا مَعًا.

الفَرْقُ بَيْنَ الافْتِرَاقِ وَالخِلَافِ:

١- أَنَّ الافْتِرَاقَ هُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الخِلَافِ لِأَنَّ الخِلَافَ قَدْ يَصِلُ إِلَىٰ حَدِّ الافْتِرَاقِ وَقَدْ لَا يَصِلُ.

٢- الافْتِرَاقُ مَذْمُومٌ كُلُّهُ لَكِنَّ الخِلَافَ فَمِنْهُ مَا هُوَ مَذْمُومٌ، مِثْلَ مَا كَانَ بِدَافِعِ الشَّهْوَةِ وَالهَوَىٰ، وَمِنْهُ مَا هُوَ مَمْدُوحٌ بَلْ هُوَ مِنْ الرَحْمَةِ بِهِدَايَةِ

الأُمَّةِ كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: وَلِهَذَا لَمَّا صَنَّفَ رَجُلٌ كِتَابًا سَمَّاهُ (كِتَابُ الاخْتِلَافِ) قَالَ لَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ: "سَمِّهِ كِتَابُ السِّعَةِ".

٣- الافْتِرَاقُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ أُصُولٍ كِبَارٍ أَيْ عَلَىٰ أُصُولِ الدِّيْنِ الَّتِي لَا يَسَعُ الخِلَافُ فِيْهَا الَّتِي ثَبَتَتْ بِنَصٍ قَاطِعٍ أَوْ إِجْمَاعٍ أَوْ اسْتَقَرَّتْ مَنْهَجًا عِلْمِيًّا لِأَهْلِ العِلْمِ لَا يَخْتَلِفُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ أَصْلٌ.

وَأَمَّا الخِلَافُ فَيَكُونُ فِيمَا دُوْنَ ذَلِكَ مِمَّا يَقْبَلُ التَعَدُّدَ فِي الرَأْيِ وَيَكُونُ مَحِلًّا لِلاِجْتِهَادِ، وَيَحْتَمِلُ ذلِكَ كُلَّهُ، وَتَكُونُ لَهُ مُسَوِغَاتٌ عِنْدَ قَائِلِهَا أَوْ يَحْتَمِلُ فِيْهِ الجَهْلُ وَالإِكرَاهُ وَالتَأْوِيْلُ.

٤- الافْتِرَاقُ لَا يَكُونُ عَنْ اجْتِهَادٍ وَصَاحِبُهُ لَا يُؤجَرُ عَلَيْهِ بَلْ هُوَ مَذْمُومٌ وَآثِمٌ وَأَمَّا الخِلَافُ قَدْ يَكُونُ عَنْ اجْتِهَادٍ وَحُسْنِ نِيَّةٍ وَيُؤْجَرُ عَلَيْه المُخْطِئُ مَا دَامَ مَتَحَرِّيًا لِلْحَقِ، وَلَكِنَّ المُصِيْبَ أَكْثَرُ أَجْراً، وَقَدْ يُحْمَدُ المُخْطِئُ عَلَىٰ الاجْتِهَادِ أَيْضًا أَمَّا إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ حَدِّ الافْتِرَاقِ فَهُوَ مَذْمُومٌ.

٥- الافْتِرَاقُ يَتَعَلَّقُ بِهِ الوَعِيْدُ وَكُلُّهُ شُذُوذٌ وَهَلَكَةٌ أَمَّا الخِلَافُ مَهْمَا بَلَغَ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ فِي أُمُورٍ يَسَعُ الاجْتِهَادُ فِيْهَا، أَوْ يَكُونُ صَاحِبُ الرَأْيِ المُخَالِفِ لَهُ مُسَوِّغٌ، أَوْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَ الرَأْيَ المُخَالِفَ عَنْ جَهْلٍ بِالدَلِيْلِ وَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الحُجَّةُ أَوْ عَنْ تَأوِيْلٍ لَا يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ.

وَأَمَّا أَسْبَابُهُ فَهِيَ مَا يَأتِي:

وَالإجْمَاعُ(١) هُوَ الأصْلُ الثَالِثُ الّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي العِلْمِ وَالْدِيْنِ(٢) ....

١ - اخْتِلَافُ الْدِيْنِ.

٢ - الأَهْوَاءُ وَالبِدَعُ.

٣- الجَهْلُ، وَالجَهْلُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِحَقِيْقَةِ الخِلَافِ، أَوْ بِالدَلِيْلِ، أَوْ بِطَرِيْقَةِ الاسْتِدْلَالِ، أَوْ بِمَا عِنْدَ الآخَرِ مِنْ الحَقِّ. وَالجَهْلُ وَالظُلْمُ سَبَبٌ لِكُلِّ شَرٍّ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٤ - أَخْذُ العِلْمِ عَنْ غَيْرِ أَهْلِهِ.

٥ - البُعْدُ عَنْ العُلَمَاءِ، وَالاسْتِقْلَالِيَّةُ عَنْهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَئِمَّةُ الهُدَىٰ وَالتَوْحِيْدِ، وَهُمْ أَهْلُ الشُمُولِيَّةِ فِي مَعْرِفَةِ الأَحْكَامِ، وَمَعْرِفَةِ مَقَاصِدِ الشَرْعِ وَقَوَاعِدِهِ.

٦ - التَقْصِيْرُ فِي مَعْرِفَةِ فِقْهِ الخِلَافِ.

٧- التَّشَدُّدُ وَالتَعَمُّقُ فِي الْدِّيْنِ. وَمِنْ عَلَامَاتِهِ التَّسَرُّعِ فِي إِطْلَاقِ الأَحْكَامِ، وَالحُكْمِ عَلَىٰ القُلُوبِ وَالنِيَّاتِ، وَإِسَاءَةِ الْظَنِّ بِالمُخَالِفِ وَالْتَوَقُفِ فِي المُسْلِمِيْنَ.

٨- العَصَبِيَّاتُ بِشَتَّىٰ أَنْوَاعِهَا، مَذْهَبِيَّةٌ أَوْ عُرْفِيَّةٌ، أَوْ وَطَنِيَّةٌ، أَوْ قَبَلِيَّةٌ، أَوْ حِزْبِيَّةٌ.

(١) هُوَ اتِفَاقُ مُجْتَهِدِي هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَصْرٍ مِنْ الأَعْصَارِ عَلَىٰ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ.

(٢) لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ

وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ(١) وَظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ(٢).

وَالإِجْمَاعُ(٣) الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَالِحُ، إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلافُ.....

سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، وَقَالَ ﷺ: « لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَىٰ ضَلَالَةٍ »(١).

(١) سَوَاءٌ كَانَتْ قَوْلِيَّةً أَمْ فِعْلِيَّةً أَمْ اعْتِقَادِيَّةً.

(٢) أَيْ مِمَّا يُتَعَبَّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، وَأَمَّا الأُمُورُ الدُنْيَوِيَّةُ كَتَجْهِيْزِ الجِيُوشِ وِتَدْبِيْرِ أُمُورِ الحَرْبِ، وَالعِمَارَةِ، وَالزِرَاعَةِ، وَغَيْرِهَا مِنْ المَصَالِحِ الْدُنْيَوِيَّةِ فَالأَصْلُ فِيْهَا الإِبَاحَةُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمْرِ دُنْيَاكُمْ »(٢).

(٣) الإِجْمَاعُ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

١- إِجْمَاعٌ قَطْعِيٌ، وَهُوَ مَا يُعْلَمُ وُقُوعُهُ مِنْ الأُمَّةِ بِالضَرُورَةِ كَالإِجْمَاعِ عَلَىٰ وُجُوبِ الصَلَوَاتِ الخَمْسِ، وَتَحْرِيْمِ الزِنَا، وَهَذَا النَوْعُ لَا أَحَدٌ يُنْكِرُ ثُبُوتَهُ، وَكَوْنُهُ حُجَّةً، وَيَكْفُرُ مُخَالِفَهُ إِذَا كَانَ مِمّنْ لَا يَجْهَلُهُ.

٢- إِجْمَاعٌ ظنيٌ، وَهُوَ مَا لَا يُعْلَمُ وُقُوعُهُ إِلَّا بِالتَتَبُّعِ وَالاسْتِقْرَاءِ، وَهَذَا النَوْعُ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي ثُبُوتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَصَدَهُ المُصَنِفُ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَالِحُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٧)، وأبو داود (٤٢،٣)، وابن ماجة (٣٩٥٠)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٣).

فَصْـــلٌ

ثُمّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الأُصُولِ يَأمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَينَهَوْنَ عَنْ المُنْكَرِ عَلَى مَا تُوْجِبُهُ الشَّرِيْعَةُ[1].....

(١) كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَقَالَ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وَقَالَ ﷺ: « مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ »[1].

وَالأَصْلُ أَنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِهِ البَعْضُ سَقَطَ عَنْ البَاقِيْنَ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وَتُوْجَدُ أَحْوَالٌ أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّهَا فَرْضُ عَيْنٍ مِنْهَا:

١ - عَلَىٰ مَنْ يُعَيِّنُهُ الإِمَامُ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ. قَالَ المَاوَرْدِي: إِنَّ فَرْضَهُ مُتَعَيِّنٌ عَلَىٰ المُحْتَسِبِ بِحُكْمِ الوِلَايَةِ. وَفَرْضُهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ دَاخِلٌ فِي

(١) أخرجه مسلم (٧٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فُرُوضِ الكِفَايَةِ.[١]

٢-إِذَا كَانَ المَعْرُوفُ فِي مَوْضِعٍ تُطْمَسُ مَعَالِمُهُ، وَالمُنْكَرُ يُقْتَرَفُ فِيْهِ، وَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ الأَمْرُ وَالنَّهْيُ عَنْ المُنْكَرِ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ: إِنَّ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ المُنْكَرِ فَرْضُ كِفَايَةٍ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَعَيَّنُ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ لَا يَعْلَمُ بِهِ إِلَّا هُوَ.[٢]

٣-إِذَا احْتَاجَ الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَن المُنْكَرِ إِلَىٰ جِدَالٍ وَاحْتَاجَ إِلَىٰ مُنَاقَشَةٍ كَانَ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يَصْلُحُ لِذَلِكَ، قَالَ ابْنُ العَرَبِي المَالِكِي: "قَدْ يَكُونُ - الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ المُنْكَرِ - إِذَا عَرَفَ المَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ صَلَاحِيَةَ النَظَرِ وَالاسْتِقْلَالِ بِالجِدَالِ أَوْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنْهُ[٣]، وَقَالَ النَّوَوِيُّ: ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَعَيَّنُ إِذَا كَانَ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ كَمَنْ يَرَىٰ زَوْجَتَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ خِلَافَهُ عَلَىٰ مُنْكَرٍ أَوْ تَقْصِيرٍ فِي مَعْرُوفٍ."

الحِكْمَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهِ:

١) حِفْظُ الإِسْلَامِ مِنْ الشَرْكِ وَالبِدَعِ.

٢) إِثْبَاتُ مَعَانِي الخَيْرِ وَالصَلَاحِ فِي الأُمَّةِ.

---

(١) الأحكام السلطانية (٢٤٠).

(٢) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٢/ ٢٣).

(٣) أحكام القرآن له (١/ ١٢٢).

٣) إِزَالَةُ عَوَامِلِ الفَسَادِ وَالشَرِّ مِنْ حَيَاتِنَا، وَالقَضَاءُ عَلَيْهَا أَوَّلاً بِأَوَّلٍ.

٤) تَهْيِئَةُ الجَوِّ الصَالِحِ الَّذِي تَنْمُو فِيْهِ الآدَابُ وَالفَضَائِلُ وَتَخْتَفِي فِيْهِ الرَذَائِلُ.

شُرُوْطُ الآمِرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنْ المُنْكَرِ:

١) الإِيْمَانُ، لِأَنَّ هَذَا المُقَامُ مَقَامَ نُصْرَةٍ لِلْدِيْنِ فَلَا يَقُومُ بِهِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ.

٢) العَدَالَةُ اشْتَرَطَهَا بَعْضُ الفُقَهَاءِ، وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ الله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ – ٣]. وَاسْتَدَلُّوا أَيْضاً بِحَدِيْثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « يُؤتَىٰ بِالرَجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ فَتَنْذَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا، كَمَا يَدُوْرُ الحِمَارُ فِي الرَحَىٰ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَىٰ عَنْ المُنْكَرِ. فَيَقُولُ: بَلَىٰ كُنْتُ آمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيْهِ وَأَنْهَىٰ عَنْ المُنْكَرِ وَآتِيْه »[1].

وَالصَحِيْحُ أَنَّ لِلْفَاسِقِ أَنْ يَأمُرَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰ عَنْ المُنْكَرِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ العُلَمَاءِ، لِأَنَّ فِي اشْتِرَاطِ العَدَالَةِ سَدَّاً لِبَابِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

وَالنَهْيِ عَنْ المُنْكَرِ، وَلِهَذَا قَالَ سَعِيْدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ المُنْكَرِ إلَّا مَنْ لَا يَكُونُ فِيْهِ شَيءٌ لَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِشَيءٍ. لِأَنَّهُ لَا عِصْمَةَ لِلْصَحَابَةِ فَضْلاً عَمَّنْ دُوْنَهُمْ.(١)

وَلِأَنَّ تَرْكَ الإنْسَانِ لِبَعْضِ الفُرُوضِ لَا يُسْقِطُ عَنْهُ فُرُوْضاً غَيْرَهَا، كَمَا أَنَّ تَرْكَهُ لِلْصَلَاةِ لَا يُسْقِطُ عَنْهُ الصَيَامَ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَمِلَ المُنْكَرَاتِ لَا يُسْقِطُ عَنْهُ النَّهْيَ عَنْهَا.(٢)

٣) إذْنُ الإمَامِ، وَهَذَا اشْتَرَطَهُ البعض وَقَالُوا: لِأَنَّهُ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَخْتَارَ مَنْ يُحْسِنُ القِيَامَ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ، وَأَمَّا جُمْهُورُ العُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ إِذْنَ الإِمَامِ، وَهُوَ الأَقْرَبُ.

٤) التَكْلِيْفُ، فَغَيْرُ المُكَلَّفِ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَهْيُ عَنْ المُنْكَرِ.

٥) القُدْرَةُ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ ».

وَمِنْ وُجُوهِ العَجْزِ عَدَمُ المَعْرِفَةِ، فَالَّذِي يَجْهَلُ المَعْرُوفَ وَالمُنْكَرَ غَيْرُ

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣١٢).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٤٠).

مَسْؤَولٍ عَنْ الأَمْرِ بِالأَوَّلِ وَالنَهْيِ عَنْ الثَانِي.

وَلِذَلِكَ صَرَّحَ العُلَمَاءُ بِأَنَّ العَامَّةَ لَا تَأْمُرُ وَلَا تَنْهَىٰ إلَّا فِي الأُمُورِ المَعْلُومَةِ مِنْ الدِيْنِ، وَالمُنْكَرَاتِ المَشْهُورَةِ، وَأَمَّا الأُمُورُ الاجْتِمَاعِيَّةُ وَالاجْتِهَادِيَّةُ الدَقِيْقَةُ فَهِيَ مُوْكُلَةٌ إِلَىٰ العُلَمَاءِ، كَمَا قَالَ إِمَامُ الحَرَمَيْنِ: "إِنَّ الحُكْمَ الشَرْعِيَّ إِذَا اسْتَوَىٰ فِي إِدْرَاكِهِ الخَاصُ وَالعَامُ فَفِيْهِ لِلْعَالِمِ وَغَيْرَ العَالِمِ الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ المُنْكَرِ، وَإِذَا اخْتَصَّ مُدْرِكَهُ بِالاجْتِهَادِ فَلَيْسَ لِلْعَوَامِ فِيْهِ أَمْرٌ وَنَهْيٌ بَلْ الأَمْرُ فِيْهِ مَتْرُوكٌ إِلَىٰ أَهْلِ الاجْتِهَادِ."[1]

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: "فَإِنْ كَانَ مِنْ الوَاجِبَاتِ الظَاهِرَةِ وَالمُحَرَّمَاتِ المَشْهُورَةِ كَالصَلَاةِ وَالصِيَامِ وَالزِنَا وَالخَمْرِ وَنَحْوِهِمَا فَكُلُّ المُسْلِمِيْنَ عُلَمَاءُ بِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ دَقَائِقِ الأَفْعَالِ وَالأَقْوَالِ وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالاجْتِهَادِ وَلَمْ يَكُنْ لِلْعَوَامِ مَدْخَلٌ فِيْهِ، وَلَا لَهُمْ إِنْكَارُهُ بَلْ ذَلِكَ لِلْعُلَمَاءِ."[2]

وَقَالَ الغَزَالِيُ: "العَامِّيُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يَحْتَسِبَ إلَّا فِي الجَلِيَّاتِ المَعْلُومَةِ."[3]

---

(١) شرح المقاصد (٢/ ٢٨١).

(٢) شرح صحيح مسلم (١/ ٥١)

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٨١)

٦) أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ سَيُقْبَلُ نُصْحُهُ وَيُطَاعَ أَمْرُهُ[١]، وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ المُنْكَرِ لَهُ حَالَاتٌ:

الأُوْلَىٰ: إنْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُطَاعُ فِيْمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ، وَسَيَزُولُ المُنّكَرُ بِالكُلِّيَّةِ أَوْ سَيَزُولُ وَيَحْدُثُ مُنْكَرٌ أَخَفَّ مِنْهُ، وَجَبَ عَلَيْهِ النَّهْيُ عَنْ المُنّكَرِ.

الثَانِيَةُ: إنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَنْ يُطَاعَ فِيْمَا أَمَرَ بِهِ، أَوْ نَهَىٰ عَنْهُ[٢]، أَوْ سَيَخْلُفُهُ مُنّكَرٌ فِي دَرَجَتِهِ فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ النَّهْيُ عَنْهُ، وَهُوَ بِالخَيَارِ إنْ شَاءَ نَهَىٰ عَنْ المُنّكَرِ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَهُ بِحَسَبِ مَا يُؤَدِيْهِ اجْتِهَادُهُ.

الثَالِثَةُ: إنْ عَلِمَ أَنَّ المُنّكَرَ سَيُؤَدِي إِلَىٰ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، فَإِنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّهْيُ عَنْهُ.[٣]

شُرُوطُ وُجُوبِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَهْيِ عَنْ المُنّكَرِ:

أَوَّلاً: الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ لَيْسَ لَهُ شُرُوطٌ خَاصَّةٌ، لِأَنَّهُ نَصِيْحَةٌ وَإِرْشَادٌ وَتَعْلِيْمٌ لِلْنَاسِ، وَهُوَ جَائِزٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

ثَانِيًا: النَّهْيُ عَنْ المُنّكَرِ وَتَغْيِيرِهِ لَهُ شُرُوطٌ لِوُجُوبِهِ، وَهِيَ كَمَا يَأتِي:

---

(١) قاله ابن بطال في شرح مسلم (١/ ٥٤)

(٢) في هذه الحالة يقول الغزالي: يستحب أن يأمر وينهىٰ لإظهار شعائر الإسلام وتذكير النّاس بأمر الدين .اهـ إحياء علوم الدين (٢/ ٢٦)

(٣) الحسبة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٧-٦٨).

١- وُجُودُ مُنْكَرٍ، سَوَاءٌ كَانَ الفَاعِلُ مُكَلَّفاً أَمْ غَيْرُ مُكَلَّفٍ.

٢- أَنْ يَكُونَ المُنْكَرُ مَوْجُوداً وَقْتَ الإِنْكَارِ أَوْ التَغْيِيرِ، وَأَمَّا بَعْدَ وُقُوعِهَا فَهُوَ وَقْتُ نَصِيْحَةٍ أَوْ عِقَابٍ، وَالعِقَابُ يَكُونُ مِنْ وَلِيِّ الأَمْرِ. قَالَ الغَزَالِيُ: المَعْصِيَةُ لَهَا ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ مُنْصَرِمَةً، فَالعُقُوبَةُ عَلَىٰ مَا تَصَرَّمَ مِنْهَا حَدٌّ أَوْ تَعْزِيْزٌ، وَهُوَ إِلَىٰ الوُلَاةِ لَا الآحَادِ.

الثَانِيَةُ: أَنْ تَكُونَ المَعْصِيَةُ رَاهِنَةٌ وَصَاحِبُهَا مُبَاشِرٌ لَهَا، كَلِبْسِهِ الحَرِيْرَ وَإِمْسَاكِهِ العُودَ وَالخَمْرَ، فَإِبْطَالُ هَذِهِ المَعْصِيَةِ وَاجِبٌ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ مَا لَمْ تُؤَدِّ إِلَىٰ مَعْصِيَةٍ أَفْحَشُ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، وذَلِكَ يَثْبُتُ لِلآحَادِ وَالرَّعِيَّةِ.

الثَالِثَةُ: أَنْ يَكُونَ المُنْكَرُ مُتَوَقَّعاً كَالَّذِي يَسْتَعِدُّ بِكَنْسِ المَجْلِسِ وَتَزْيِينِهِ وَجَمْعِ الرَيَاحِيْنِ لِشُرْبِ الخَمْرِ وَبَعْدُ لَمْ يُحْضِرْ الخَمْرَ فَهَذَا مَشْكُوكٌ فِيْهِ، إِذْ رُبَّمَا يَعُوقُ عَنْهُ عَائِقٌ فَلَا يَثْبُتُ لِلآحَادِ سُلْطَةٌ عَلَىٰ العَازِمِ عَلَىٰ الشُربِ إِلَّا بِطَرِيقَةِ الوَعْظِ وَالنُصْحِ، فَأَمَّا التَعْنِيْفُ وَالضَّرْبُ فَلَا يَجُوزُ لِلآحَادِ وَلِلسُّلُطَاتِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ تِلْكَ المَعْصِيَةُ عُمِلَتْ مِنْهُ بِالْعَادَةِ المُسْتَمِرَّةِ، وَقَدْ أَقْدَمَ عَلَىٰ السَبَبِ المُؤَدِّي إِلَيْهَا، وَلَمْ يَبْقَ لِحُصُولِ المَعْصِيَةِ إِلَّا مَا لَيْسَ لَهُ فِيْهِ إِلَّا الانْتِظَار.[1]

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٨٤).

وَيَقُولُ العَلَّامَةُ ابْنُ نُجَيْمٍ وَهُوَ يَبْحَثُ التَعْزِيْرَ: قَالُوا لِكُلِّ مُسْلِمٍ إقَامَتَهُ حَالَ مَبَاشَرَةِ المَعْصِيَةِ، وَأَمَّا بَعْدَ الفَرَاغِ فَلَيْسَ ذَلِكَ لِغَيْرِ الحَاكِمِ.(١)

٣- أَنْ يَكُونَ ظَاهِراً، فَلَوْ كَانَ مُسْتَتِراً فَلَا يَجُوزُ التَجَسُّسُ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢] وَلِمَا جَاءَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إنَّ الأَمِيْرَ إِذَا ابْتَغَىٰ الرِيْبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ »(٢)، وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « إنَّكَ إنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ تُفْسِدُهُمْ ».(٣)

وَقِيْلَ لِعَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ فُلَانًا تَتَقَطَّرُ لِحْيَتُهُ خَمْراً، فَقَالَ، إنَّا قَدْ نُهِيْنَا عَنْ التَجَسُّسِ، وَلَكِنْ إنْ ظَهَرَ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذْ بِهِ.(٤) لِأَنَّ الأَصْلَ أَنَّ مَنْ أَغْلَقَ بَابَ دَارِهِ وَتَسَتَّرَ بِحِيْطَانِهِ فَلَا يَجُوزُ الْدُخُولُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ لِتَعْرِفَ المَعْصِيَةَ إلَّا أَنْ يَظْهَرَ فِي الْدَّارِ ظُهُوراً يَعْرِفُهُ مَنْ هُوَ خَارِجُ الْدَّارِ، كَظُهُورِ رَائِحَةِ الخَمْرِ وَأَصْوَاتِ السُكَارَىٰ، أَوْ أَخْبَرَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ اسْتِخْبَارٍ شَخْصَانِ أَوْ شَخْصٌ وَاحِدٌ عَلَىٰ رَأْيٍ بِأَنَّ فُلَانًا يَرْتَكِبُ المَعَاصِيَ فِي بَيْتِهِ جَازَ دُخُولُ

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٥/ ٤٢).

(٢) أخرجه أبوداود (٤٨٩١)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٩٠)، وصححه الألباني.

(٤) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٢٥) بتصرف .

وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الحَجِّ وَالجِهَادِ وَالجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَاراً[1] كَانُوا أَوْ فُجّاراً.....

البَيْتِ دُوْنَ إِذْنٍ.[1]

(١) تَنْصِيْبُ الأُمَرَاءِ وَالأَئِمَّةِ لِتَدْبِيْرِ أُمُورِ النَّاسِ واتَّفَقَ أَهْلُ السُنَّةِ وَجَمِيْعُ المُرْجِئَةِ وَجَمِيْعُ الشِيْعَةِ، وَجَمِيْعُ الخَوَارِجِ أَنَّهُ وَاجِبٌ، وَأَنَّ الأُمَّةَ يَجِبُ عَلَيْهَا الانْقِيَادُ لِإِمَامٍ عَادِلٍ، يُقِيْمُ فِيْهِمْ أَحْكَامَ اللهِ، وَيَسُوسُهُمْ بِأَحْكَامِ الشَرِيْعَةِ الَّتِي أَتَىٰ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.[2]

وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، وَقَالَ: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [المائدة: ٤٨]. وَلِمَا جَاءَ عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً »[3] وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدَرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ »[4]

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٢٥) بتصرف .

(٢) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٤/ ٨٧)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٢٦٤).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٩٩).

(٤) أخرجه أبوداود (٢٦٠٨)، وأحمد (٦٦٤٧)، وصححه الألباني.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: "فَإِذَا كَانَ قَدْ أَوْجَبَ فِي أَقَلِّ الجَمَاعَاتِ وَأَقْصَرِ الاجْتِمَاعَاتِ، أَنْ يُوَلِّيَ أَحَدُهُمْ، كَانَ هَذَا تَشْبِيهًا عَلَىٰ وُجُوبِ ذَلِكَ فِيمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ"[1]

وَالإِمَامَةُ وَالإِمَارَةُ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الفِطْرَةُ وَالعَقْلُ وَعَادَاتُ النَّاسِ المُسْتَقِيمَةُ، قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: "كُلُّ بَنِي آدَمَ لَا تَتِمُّ مَصْلَحَتُهُمْ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا بِالاجْتِمَاعِ وَالتَنَاصُرِ، فَالتَعَاوُنُ وَالتَنَاصُرُ عَلَىٰ جَلْبِ مَنَافِعِهِمْ، وَالتَنَاصُرُ لِدَفْعِ مَضَارِهِمْ، وَلِهَذَا يُقَالُ: الإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَبْعِ، فَإِذَا جُمِعُوا فَلَابُدَّ لَهُمْ مِنْ أُمُورٍ يَفْعَلُونَهَا يَجْتَلِبُونَ بِهَا المَصْلَحَةَ، وَأُمُورٍ يَجْتَنِبُونَهَا لِمَا فِيهَا مِنَ المَفْسَدَةِ، وَيَكُونُونَ مُطِيعِينَ لِلآمِرِ بِتِلْكَ المَقَاصِدِ، وَلِلنَّاهِي عَنْ تِلْكَ المَفَاسِدِ، فَجَمِيعُ بَنِي آدَمَ لَابُدَّ لَهُمْ مِنْ طَاعَةِ آمِرٍ وَنَاهٍ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ أَهْلِ الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ دِينٍ، فَإِنَّهُمْ يُطِيعُونَ مُلُوكَهُمْ فِيمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ يَعُودُ بِمَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ مُصِيبِينَ تَارَةً وَمُخْطِئِينَ تَارَةً أُخْرَىٰ".[2]

وَقَدِيمًا قَالَ الشَاعِرُ صَلَاءَةَ بْنُ عُمَرَ بْنِ مَالِكٍ الأَفْوَهِ الأَوْدِيِ:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَىٰ لَا سُرَاةَ لَهُمْ ... وَلَا سُرَاةَ إِذَا جُهَالُهُمْ سَادُوا

طُرُقُ تَوْلِيَةِ الإِمَامِ، وَتَنْصِيبِ الأَمِيرِ:

---

(١) الحسبة لشيخ الإسلام (١١).

(٢) الحسبة لشيخ الإسلام (٨).

١ - الاخْتِيَارُ، وَالَّذِي يَقُومُ بِهِ أَهْلُ الحَلِّ وَالعَقْدِ، وَهِيَ الطَرِيْقَةُ الَّتِي تَمّتْ بِهَا تَوْلِيَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِدِيْقِ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٢ - الاسْتِخْلَافُ، وَهِيَ أَنْ يَعْهَدَ الخَلِيْفَةُ السَابِقُ إِلَىٰ مَنْ يَخْتَارَهُ مِنْ المُسْلِمِينَ، وَيَرَاهُ لَائِقًا بِهَذَا المَنْصِبِ مِنْ بَعْدِهِ وَهِيَ الطَرِيْقَةُ الَّتِي فَعَلَهَا أَبُوبَكْرٍ الصِدِيْقُ لَمَّا اسْتَخْلَفَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ بَعْدِهِ، وَكَذَلِكَ عَهِدَ عُمَرُ بِالخِلَافَةِ إِلَىٰ سِتَّةٍ مِنْ الصَحَابَةِ مِنْ بَعْدِهِ.

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ: "وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ انْعِقَادِ الخِلَافَةِ بِالاسْتِخْلَافِ، وَعَلَىٰ انْعِقَادِهَا بِعَقْدِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ لِإِنْسَانٍ إِذَا لَمْ يَسْتَخْلِفْ الخَلِيْفَةُ."[1]

شُرُوطُ الإِمَامِ:

١ - الإِسْلَامُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ: "وَأَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ الإِمَامَةَ لَا تَنْعَقِدُ لِكَافِرٍ وَعَلَىٰ أَنَّهُ لَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الكُفْرَ انْعَزَلَ، قَالَ: وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَةَ الصَلَوَاتِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهَا."

٢ - البُلُوغُ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَلِي أَمْرَ نَفْسِهِ لَا يَلِي أَمْرَ غَيْرِهِ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ. قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: "وَجَمِيْعُ فِرَقِ أَهْلِ القِبْلَةِ لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ يُجِيْزُ إِمَامَةَ امْرَأَةٍ وَلَا

(١) شرح صحيح مسلم (١٢/ ٢٠٥).

إِمَامَةَ صَبِيٍّ لَمْ يَبْلُغْ إِلَّا الرَّافِضَةُ فَإِنَّهَا تُجِيْزُ إِمَامَةَ الصَغِيْرِ."[١]

٣- العَقْلُ.

٤- الحُرِّيَةُ، لِأَنَّ العَبْدَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا بِالإِجْمَاعِ.[٢]

٥- الذُّكُوْرِيَّةُ، وَقَدْ حَكَىٰ الإِجْمَاعَ عَلَىٰ ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ وَقَالَ: "وَجَمِيْعُ فِرَقِ أَهْلِ القِبْلَةِ لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ يُجِيْزُ إِمَامَةَ المَرْأَةِ[٣]، وَكَذَلِكَ حَكَىٰ الإِجْمَاعَ القُرْطُبِيُ."[٤]

وَالدَلِيْلُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا حَدِيْثُ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ فَارِسًا مَلَّكُوا ابْنَةَ كِسْرَىٰ قَالَ: « لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْ أَمْرَهُمْ امْرَأَةً »[٥]، وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ...﴾ [النساء: ٣٤]، ولأَنَّ إِمَامَةَ المُسْلِمِينَ تَقْتَضِي الْدُخُولَ فِي المَحَافِلِ وَمُخَالَطَةِ الرِجَالِ وَقِيَادَةِ الجِيُوشِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا لَا يُنَاسِبُ النِّسَاءِ.

---

(١) الفصل في والملل والنحل لابن حزم (٤/ ١١٠).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٢٢).

(٣) الفصل في الملل والنحل (٤/ ١١٠).

(٤) أحكام القران (١/ ٢٧١).

(٥) أخرجة البخاري (٤٢٥).

٦- العَدَالَةُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الحَاكِمُ مِمَّنْ لَا يُقْبَلُ قَوْلُهُ، وَيَجِبُ التَّبَيُّنُ عِنْدَ حُكْمِهِ، وَلِأَنَّ الفَاسِقَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ شَاهِداً فَلَأَنْ لَا يَكُونَ قَاضِيًا أَوْلَىٰ.(١)

وَلِأَنَّ المَقْصِدَ الشَرْعِيَ مِنْ الإِمَامَةِ يَكُونُ بِرَفْعِ وَدَفْعِ ظُلْمِ الظَالِمِ، لَا تَسْلِيْطِهِ وَتَمْكِيْنِهِ، وَالظَالِمُ يَخْتَلُّ بِهِ أَمْرُ الْدِيْنِ وَالدُنْيَا، قَالَ الجُوَيْنِيُ: وَالأَبُ الفَاسِقُ عَلَىٰ فَرَطِ حَدٍّ بِهِ وَإِشْفَاقِهِ عَلَىٰ وَلَدِهِ لَا يُعْتَمَدُ فِي مَالِ وَلَدِهِ، فَكَيْفَ يُؤتَمَنُ فِي الإِمَامَةِ العُظْمَىٰ فَاسِقٌ لَا يَتَقِي اللهَ، وَمَنْ لَمْ يُقَاوِمْ عَقْلُهُ هَوَاهُ وَنَفْسَهُ الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ، وَلَمْ يَنْهَضْ رَأْيُهُ بِسِيَاسَةِ نَفْسِهِ فَأَنَّي يُصْلُحُ خُطَّةَ الإِسْلَامِ.(٢)

٧- الكَفَاءَةُ النَفْسِيَّةُ، بِأَنْ يَكُونَ شُجَاعاً جَرِيْئاً عَلَىٰ إِقَامَةِ الحُدُودِ، بَصِيْراً وَكَفِيْلاً بِحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا، حَسُنَ التَدْبِيْرِ، ذَكِيّاً فَطِناً.

٨- الكَفَاءَةُ الجَسَدِيَّةُ، بِأَنْ يَكُونَ سَالِمَ الحَوَاسِ وَالأَعْضَاءِ الَّتِي يُؤَثِرُ فَقْدُهَا عَلَىٰ الرَّأيِ وَالعَمَلِ.

---

(١) المغني والشرح الكبير (١١/ ٣٨٢).

(٢) غياث الأمم للجويني (٦٨)

٩- أَنْ يَكُونَ قُرَشِيّـًا، لِمَا جَاءَ عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيْهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ عَلَىٰ وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الْدِّيْنَ ».[١] وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَا يَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ »[٢] وَقَدْ حَكَىٰ الإِجْمَاعَ عَلَىٰ ذَلِكَ النَّوَوِيُّ، وَالقَاضِي عِيَاضٌ، وَالمَاوَرْدِيُ وَغَيْرُهُمْ.[٣]

١٠- العِلْمُ، قَالَ ابْنُ خُلْدُونٍ: "لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مُنَفِّذاً لِأَحْكَامِ اللهِ تَعَالَىٰ إِذَا كَانَ عَالِمـًا، وَمَا لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَصْلُحُ تَقْدِيْمُهُ لَهَا."[٤]

وَهَذِهِ الشُرُوطُ كُلُّهَا اشْتَرَطَهَا العُلَمَاءُ فَيْمَنْ يُرَادُ تَوْلِيَتُهُ أَمْرَ المُسْلِمِيْنَ ابْتِدَاءً وَاخْتِيَاراً، لَكِنْ إِنْ اخْتَلَّ شَرْطٌ مِنْ هَذِهِ الشُرُوطِ بَعْدَ تَوْلِيَتِهِ أَوْ اسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ الإِمَامَةِ رَجُلٌ مِنْ المُسْلِمِيْنَ تَخْتَلُّ فِيْهِ بَعْضُ هَذِهِ الشُرُوطِ، فَفِي هَذِهِ الحَالَةِ لَا تُشْتَرَطُ جَمِيْعُ تِلْكَ الشُرُوطِ لِأَنَّ ذَلِكَ سَيُؤَدِّي إِلَىٰ فِتَنٍ عَظِيْمَةٍ، الأُمَّةُ فِي غِنَىٰ عَنْهَا، عَمَلاً بِقَاعِدَةِ [ارْتِكَابِ أَخَفِّ الضَرَرَيْنِ]، فَيُتَسَاهُلُ فِي بَعْضِ الشُرُوطِ إِلَىٰ تَغَيُّرِ الأَوْضَاعِ وَيَحِيْنُ الوَقْتُ المُنَاسِبُ لِتَوْلِيَةِ مُكْتَمِلِ الشُرُوطِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٠)، ومسلم (١٨٢٠).

(٣) انظر شرح مسلم للنووي (١٢/ ٢٠٠)، والأحكام السلطانية (٦).

(٤) مقدمة ابن خلدون (١٩٣).

المَقَاصِدُ الأَسَاسِيَّةُ مِنْ الإِمَامَةِ هِيَ :

١ - إقَامَةُ الدِّيْنِ ،وَذَلِكَ بِأُمُورٍ :

أ- بِنَشْرِهِ وَالدَعْوَةِ إِلَيْهِ بِالقَلَمِ وَاللِسَانِ وَالسِّنَانِ.

ب- بِدَفْعِ الشُبَهِ وَالأَبَاطِيْلِ عَنْهُ، وَمُحَارَبَةِ البِدَعِ، وَرَدِّ شُبُهَاتِ أَصْحَابِهَا.

ج- بِحِمَايَةِ البِلَادِ وَتَحْصِيْنِ الثُغُورِ.

٢- تَنْفِيْذُ الشَرْعِ، وَيَكُونُ بِأُمُورٍ:

أ- الحُكْمِ بِالشَرْعِ، وَإِلْزَامِ النَّاسِ بِهِ.

ب- بِحَمْلِ النَّاسِ عَلَىٰ الشَّرْعِ، بَالتَّرغِيْبِ وَالتَّرْهِيْبِ.

ج- بِإِقَامَةِ العَدْلِ وَدفْعِ الظُلْمِ.

د- بِجَمْعِ الكَلِمَةِ وَمَنْعِ الفُرّقَةِ.

٣- رِعَايَةُ شُؤونِ النَّاسِ الدُنْيَوِيَّةِ، مِنْ تَعْلِيْمٍ وَصِحَّةٍ وَاقْتِصَادٍ وَزِرَاعَةٍ وَكُلُّ مَا يُصْلِحُ أَمْرَ دُنْيَاهُمْ.

وَمِنْ المُتَفَقِ عَلَيْهِ بَيْنَ العُلَمَاءِ أَنَّ الإِمَامَ مَا دَامَ قَائِمًا بِوَاجِبَاتِهِ المُلْقَاةِ عَلَىٰ عَاتِقِهِ، مَالِكًا القُدْرَةَ عَلَىٰ الاسْتِمْرَارِ فِي تَدْبِيْرِ شُؤونِ رَعِيَّتِهِ، عَادِلاً بَيْنَهُمْ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ عَزْلُهُ وَلَا الخُرُوجُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَزْلُ الإِمَامِ إِذَا تَحَقَّقَ مُوجِبًا مِنْ مُوجِبَاتِ العَزْلِ التَالِيَةِ:

١- الكُفْرَ وَالرِّدَّةَ: لِمَا جَاءَ عَنْ عُبَادَةَ بْنَ الصَامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (بَايَعْنَا - أَيْ رَسُولَ اللهِ ﷺ- عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَلَّا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنْ اللهِ فِيْهِ بُرْهَانٌ)[1]

٢- تَرْكَ الصَّلَاةِ وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهَا، لِمَا جَاءَ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِيْنَ تُحِبُونَهُمْ وَيُحِبُونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِيْنَ تَبْغَضُونَهُمْ وَيَبْغَضُونكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونكُمْ »، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ، قَالَ: « لَا مَا أَقَامُوا فِيْكُمْ الصَّلَاةَ »[2] وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ »، قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: « لَا مَا صَلَّوا »[3]

وَقَدْ حَكَىٰ الإِجْمَاعَ عَلَىٰ ذَلِكَ القَاضِي عِيَاضُ[4]

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٤٧)،ومسلم (١٧٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٥٥٨١).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٤).

(٤) شرح مسلم للنووي (١٢/ ٢٢٩).

٣- الجَـوْرَ وَالظُّلْـمَ، إنْ طَـرَأَ الفِسْـقُ عَلَـىٰ الحَـاكِمِ اسْـتَحَقَّ العَـزْلَ بِالإتِّفَاقِ[1]، وَتَعَيْينَ عَـدْلٍ مَكَانَـهُ إِنْ أُمِنَـتْ الفِتْنَـةُ، وَإِنْ كَانَـتْ المَفْسَـدَةُ المُتَرَتِبَةُ عَلَىٰ عَزْلِهِ أَقَلُّ مِنْ مَفْسَدَةِ بَقَائِهِ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا بِالفِسْقِ وَالظُّلْـمِ وَالجَـوْرِ الَّـذِي لَا تَتَحَقَـقُ مَعَـهُ المَقَاصِـدُ الشَرْعِيَّةُ لِلإِمَامَةِ، قَالَ الأَيْجِي: "وَلِلأُمَّةِ خَلَعُ الإِمَامِ وَعَزْلُهُ بِسَبَبٍ يُوجِبُهُ مِثْلَ أَنْ يُوْجَدَ مِنْهُ مَا يُوْجِبُ اخْتِلَالُ أَحْوَالِ المُسْلِمِيْنَ وَانْتِكَاسِ أُمُورِ الْـدِّيْنِ، كَمَـا كَانَ لَهُمْ نَصَبُهُ وَإِقَامَتُهُ لِانْتِظَامِهَا وَإِعْلَائِهَا."[2]

وَقَالَ التَفْتَازَانِي: "يَنْحَلُّ عَقْدُ الإِمَامَةِ بِمَا يَزُولُ بِهِ مَقْصُودُ الإِمَامَةِ."[3]

وَقَالَ ابْنُ الوَزِيْرِ: "إِذَا تَوَاصَلَ مِنْهُ العِصْيَانُ، وَفَشَـا مِنْـهُ العُـدْوَانُ وَظَهَـرَ النِسَاءُ، وَتَعَطَّلَتْ الحُقُوقُ، وَارْتَفَعَتْ الصِيَانَةُ، وَوَضَـحَتْ الخِيَانَـةُ، فَلَابُـدَّ مِـنْ اسْتِدْرَاكِ هَـذَا الأَمْـرَ المُتَفَـاقِمَ، فَإِذَا أَمْكَـنَ كَـفَّ يَـدِهِ وَتَوْلِيَـةَ غَيـرِهِ بِالصِـفَاتِ المُعْتَبَرَةِ، فَالبِدَارُ البِدَارُ، وَإِنْ لَـمْ يُمْكِـنْ ذَلِـكَ لِاسْتِظْهَارِهِ بِالشَـوْكَةِ إِلَّا بِإِرَاقَـةِ الدِمَاءِ، وَمُصَادَمَةِ الأَهْوَالِ، فَالوَجْهُ أَنْ يُقَاسَ مَا النَّاسُ مَدْفُوعُونَ إِلَيْهِ مُبْتَلُونَ بِهِ بِمَا يُفْرَضُ وُقُوعُهُ، فَإِنْ كَانَ النَاجِزُ الوَاقِعُ أَكْثَرُ مِمَّا يُتَوَقَّعُ، فَيَجِبُ احْتِمَالُ

(١) حاشية ابن عابدين (٤/ ٤٥١).

(٢) المواقف لعضد الدين الأيجي (٣/ ٥٩٥).

(٣) النجم الوهاج شرح المنهاج (٢/ ٣٤٨).

المُتَوَقَّعِ، وإلَّا فَلَا يَسُوغُ التَشَاغُلُ بِالْدَفْعِ بَلْ يَتَعَيَّنُ الصَبْرُ وَالابْتِهَالُ"[1].

وَقَالَ المُلَّا عَلي قَارِئُ عِنْدَ شَرْحِهِ حَدِيْثَ عُقْبَةَ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَعجزْتُمْ إِذَا بَعَثْتُ رَجُلاً فَلَمْ يَمْضِ لِأَمْرِي أَنْ تَجْعَلُوا مَكَانَهُ مَنْ يَمْضِي لِأَمْرِي » وَعَلَىٰ هَذَا إِذَا ظَلَمَ الأَمِيْرُ رَعِيَّتَهُ، وَلَمْ يَقُمْ بِحَقِ حِفْظِهِمْ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَعْزِلُوهُ وَيُقِيْمُوا غَيْرَهُ مَكَانَهُ، وَقِيْلَ: هَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي عَزْلِهِ إِثَارَةُ فِتْنَةٍ وَإِرَاقَةُ دَمٍ، فَإِنْ كَانَ حُصُولُ القَتْلِ فِي عَزْلِهِ أَقَلُّ مِنْ القَتْلِ فِي بَقَائِهِ عَلَىٰ العَمَلِ جَازَ لَهُمْ قَتْلُهُ وَقَتْلَ مَعْصِيَتِهِ، وَإِنْ كَانَ الأَمْرُ بِالعَكْسِ لَا يَجُوزُ لَهُمْ قَتْلُهُ.اهـ

٤- نَقْصَ التَصَرُّفِ وَيَكُونُ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

أ- بِحَجْرٍ بِأَنْ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ أَعْوَانُهُ مَنْ يَسْتَبِدُّ بِتَنْفِيْذِ الأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَظَاهُرٍ بِمَعْصِيَةٍ وَلَا مُجَاهَرَةٍ بِمُشَاقَةٍ فَلَا يَجُوزُ الخُرُوجُ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَفْعَالُهُ خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ الْدِيْنِ وَلَا تُحَقِقُ المَقَاصِدَ الشَرْعِيَّةَ مِنْ الإِمَامَةِ فَيَجِبُ عَلَىٰ الإِمَامِ أَنْ يَسْتَنْصِرَ بِمَنْ يَقْبِضَ عَلَىٰ مَنْ اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ وَيُزِيْلُ يَدَهُ وَيَمْنَعُ تَغَلُّبَهُ وَتَصَرُّفَهُ.

ب- بِقَهْرٍ، بِأَنْ يَصِيْرَ مَأْسُوْراً فِي يَدِ عَدُوٍّ قَاهِرٍ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ الخَلَاصِ مِنْهُ، وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ فِيْهَا تَفْصِيْلٌ:

---

(١) الروض الباسم لابن الوزير (١/ ٥١).

١- إِنْ كَانُوا يَرْجُونَ خَلَاصَهُ بِقِتَالٍ أَوْ فِكَاكٍ فَهُوَ بَاقٍ عَلَىٰ إِمَامَتِهِ[١]، وَعَلَىٰ الكَافَّةِ اسْتِنْقَاذُهُ لِوُجُوبِ النُّصْرَةِ.

٢- إِنْ كَانَ مَيْؤُسًا مِنْ خَلَاصِهِ بِأَنْ كَانَ بِيَدِ المُشْرِكِيْنَ فَعَلَىٰ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ تَنْصِيْبُ غَيْرِهِ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ بِأَيْدِي بُغَاةٍ مِنْ المُسْلِمِيْنَ فَلَا يَخْلُو مِنْ أَمْرَيْنِ:

الأول: إِنْ كَانَ البُغَاةُ قَدْ نَصَّبُوا لِأَنْفُسِهِمْ إِمَامًا، وَانْقَادَ النَّاسُ لِطَاعَتِهِ، فَفِي هَذِهِ الحَالَةِ يَكُونُ الإِمَامُ المَأْمُورُ مَعْزُولاً بِالإِيَاسِ مِنْ خَلَاصِهِ، وَلَيْسَ عَلَىٰ النَّاسِ وَأَهلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ أَنْ يَنْصُرُوهُ وَلَوْ تَخَلَّصَ مِنْ الأَسْرِ وَهَذِهِ طَرِيْقَةٌ مِنْ طُرِقِ انْعِقَادِ الإِمَامَةِ، وَهِيَ مَا يُسَمَّىٰ بِالقَهْرِ وَالغَلَبَةِ، وَهِيَ مُعْتَبَرَةٌ لِلْضَرُورَةِ حَتَّىٰ لَا يَقَعَ النَّاسُ فِي الفَوْضَىٰ وَالفِتْنَةِ، وَيَعُمَّ الفَسَادُ، وَقَدْ صَلَّىٰ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِأَهْلِ المَدِيْنَةِ يَوْمَ الحَرَّةِ[٢]، وَقَالَ: نَحْنُ مَعَ مَنْ غَلَبَ[٣]. وَقَالَ: (لَا أُقَاتِلُ فِي الفِتْنَةِ وَأُصَلِّي وَرَاءَ مَنْ غَلَبَ)[٤].

---

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلىٰ (٢٣)، وللماوردي (٢٠).

(٢) وهي الواقعة التي حصلت بين يزيد بن معاوية وأهل المدينة لما خلعوه لِمَا أخذوا عليه من فسق، فبعث لهم من يردهم إلىٰ الطاعة، وأنظرهم ثلاثة أيام، فلمّا رجعوا قاتلهم واستباح المدينة ثلاثة أيام. انظر البداية والنهاية (٨/ ٢٣٢).

(٣) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٤/ ١١٠).

(٤) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٤/ ١٤٩).

الثاني: إنْ لَـمْ يَنْصِّـبْ البُغَـاةُ لَهُـمْ إِمَامـًا أَوْ لَـمْ يَسْتَتِبْ الأَمْرُ لَـهُ، فَالإِمَـامُ المَأْسُورُ بَاقٍ عَلَىٰ إِمَامَتِهِ.

٣- نَقْصُ الكَفَاءَةِ، وَذَلِكَ بِعَجْزٍ عَقْلِيٍّ أَوْ جَسَدِيٍّ لَهُ تَأْثِيْرٌ عَلَىٰ الرَّأيِ أَوْ العَمَلِ كَزَوَالِ العَقْلِ أَوْ العَمَىٰ أَوْ الصَمَمِ أَوْ الخَرَسِ أَوْ كَفَقْدِ اليَدَيْنِ أَوْ الرِجْلَيْنِ.

وَسَائِلُ العَزْلِ:

١- أَنْ يَعْزِلَ الإِمَامُ نَفْسَهُ.

٢- السَيْفُ وَالثَوْرَاتُ المُسَلَّحَةُ وَهُوَ مِنْ أَخْطَرِ الطُرُقِ وَبِسَبَبِهِ تَنْشَأُ الفِتَنُ عَادَةً، وَهُـوَ الَّـذِي يَـرَاهُ جَمِيْـعُ فِـرَقِ الزَيْدِيَّـةِ وَالخَـوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَـةِ، قَـالَ شَيْخُ الإِسْلَام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كَلَامٍ لَهُ نَفِيْسٍ أَنْقُلُهُ بِتَمَامِهِ: وَلِهَذَا كَانَ الْمَشْـهُورُ مِـنْ مَـذْهَبِ أَهْـلِ السُـنَّةِ أَنَّهُـمْ لَا يَـرَوْنَ الْخُـرُوجَ عَلَـىٰ الْأَئِمَّـةِ وَقِتَـالَهُمْ بِالسَّيْفِ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ ظُلْمٌ كَمَا دَلَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْأَحَادِيـثُ الصَّـحِيحَةُ الْمُسْتَفِيضَـةُ عَـنِ النَّبِـيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ الْفَسَـادَ فِـي الْقِتَـالِ وَالْفِتْنَـةِ أَعْظَـمُ مِـنَ الْفَسَـادِ الْحَاصِـلِ بِظُلْمِهِـمْ بِـدُونِ قِتَـالٍ وَلَا فِتْنَـةٍ، وَلَعَلَّـهُ لَا يَكَـادُ يَعْـرِفُ طَائِفَةٌ خَرَجَتْ عَلَىٰ ذِي سُلْطَانٍ، إِلَّا وَكَـانَ فِـي خُرُوجِهَـا مِـنَ الْفَسَـادِ مَـا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أَزَالَتْهُ.

وَاللهُ تَعَـالَىٰ لَـمْ يَـأْمُرْ بِقِتَـالِ كُـلِّ ظَـالِمٍ وَكُـلِّ بَـاغٍ كَيْفَمَـا كَـانَ، وَلَا أَمَـرَ بِقِتَـالِ الْبَاغِينَ ابْتِدَاءً بَلْ قَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ

إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ ﴾ [الحجرات: ٩] فَلَمْ يَأْمُرْ بِقِتَالِ الْبُاغِيَةِ، ابْتِدَاءً، فَكَيْفَ يَأْمُرُ بِقِتَالِ وُلَاةِ الْأَمْرِ ابْتِدَاءً؟!!

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « سَيَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ »، قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ قَالَ: « لَا مَا صَلُّوا ». فَقَدْ نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قِتَالِهِمْ مَعَ إِخْبَارِهِ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ أُمُورًا مُنْكَرَةً، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِمْ بِالسَّيْفِ كَمَا يَرَاهُ مَنْ يُقَاتِلُ وُلَاةَ الْأَمْرِ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالزَّيْدِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا » قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: « تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ »[1].

فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْأُمَرَاءَ يَظْلِمُونَ وَيَفْعَلُونَ أُمُورًا مُنْكَرَةً، وَمَعَ هَذَا فَأُمِرْنَا أَنْ نُؤْتِيَهُمُ الْحَقَّ الَّذِي لَهُمْ، وَنَسْأَلَ اللهَ الْحَقَّ الَّذِي لَنَا، وَلَمْ يَأْذَنْ فِي أَخْذِ الْحَقِّ بِالْقِتَالِ وَلَمْ يُرَخِّصْ فِي تَرْكِ الْحَقِّ الَّذِي لَهُمْ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ رَأَىٰ مِنْ

(١) أخرجه البخاري (٦٦٤٤)، ومسلم (١٨٤٣).

أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً »[1]. وَفِي لَفْظٍ: « فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا فَمَاتَ مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً ». وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ ﷺ [لَمَّا ذَكَرَ] أَنَّهُمْ « لَا يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِهِ ». قَالَ حُذَيْفَةُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ »[2]. فَهَذَا أَمْرٌ بِالطَّاعَةِ مَعَ ظُلْمِ الْأَمِيرِ.

وَتَقَدَّمَ قَوْلُهُ ﷺ: « مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا عَنْ طَاعَةٍ »[3]. وَهَذَا نَهْيٌ عَنِ الْخُرُوجِ عَنِ السُّلْطَانِ وَإِنْ عَصَىٰ.

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ عُبَادَةَ: (بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ)، قَالَ: « إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ » وَفِي رِوَايَةٍ: « وَأَنْ نَقُولَ - أَوْ نَقُومَ - بِالْحَقِّ حَيْثُ مَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ». فَهَذَا أَمْرٌ بِالطَّاعَةِ مَعَ اسْتِئْثَارِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، وَذَلِكَ ظُلْمٌ مِنْهُ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنَازَعَةِ الْأَمْرِ أَهْلَهُ، وَذَلِكَ

(١) أخرجه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٨٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

وَيُحَافِظُونَ عَلَى الجَمَاعَاتِ[1].....

نَهْيٌ عَنِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَهْلَهُ هُمْ أُولُو الْأَمْرِ الَّذِينَ أَمِرَ بِطَاعَتِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ لَهُمْ سُلْطَانٌ يَأْمُرُونَ بِهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوَلَّىٰ وَلَا سُلْطَانَ لَهُ، وَلَا الْمُتَوَلِّي الْعَادِلَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ نَهْيٌ عَنْ مُنَازَعَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ وَإِنْ كَانَ مُسْتَأْثِرًا، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ.اهـ[1]

٣- الطُّرُقُ السِلْمِيَّةُ بِأَنْ يَعْزِلَهُ أَهْلُ الحَلِّ وَالعَقْدِ بِشَرْطِ أَلَّا يَتَرَتَّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ أَكْبَرُ مِنْ المَفْسَدَةِ المَرْجُوِّ إِزَالَتَهَا، لِأَنَّ عَزْلَهُ مِنْ النَّهْيِ عَنْ المُنْكَرِ، وَالمُنْكَرُ لَا يُرْفَعُ بِمَا هُوَ أَنْكَرَ مِنْهُ.

وَمِنْ هَذِهِ الوَسَائِلِ مَا يُسَمَّىٰ بِالعِصْيَانِ المَدَنِي وَهُوَ أَنَّ الإِمَامَ إِذَا كَانَ جَائِراً فَإِنَّهُ يُنْصَحُ فَإِنْ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ، فَإِنَّ الأُمَّةَ عَلَيْهَا أَنْ تُقَاطِعَهُ وَتُقَاطِعَ كُلَّ مَنْ لَهُ عِلَاقَةٌ بِهِ، وَحِينَئِذٍ يَجِدُ نَفْسَهُ مَنْبُوذاً مِنْ أُمَّتِهِ فَإِمَّا أَنْ يَعْتَدِلَ أَوْ يَعْتَزِلَ.

وَيَدُلُّ عَلَىٰ جَوَازِ ذَلِكَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَمَانِ أُمَرَاءٌ ظَلَمَةٌ، وَوُزَرَاءٌ فَسَقَةٌ، وَقُضَاةٌ خَوَنَةٌ، وَفُقَهَاءُ كَذَبَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ لَهُمْ جَابِيًا وَلَا عَرِيْفًا وَلَا شُرْطِيًا »[2].

(١) وَمِنْ صِفَاتِ أَهْلِ السُنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّهُمْ يُحَافِظُونَ عَلَىٰ حُضُورِ صَلَاةِ

---

(١) منهاج السنّة (٣/ ٣١٩-٣٩٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤١٩٠).

وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: « المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ المَرْصُوصِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعَهُ »، وَقَوْلِهِ ﷺ: « مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ » وَيَأْمُرُونَ بِالصَبْرِ(١) عَنْ البَلاءِ(٢) وَالشُكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ(٣).....

الفَرِيْضَةِ مَعَ الجَمَاعَةِ جُمْعَةً أَوْ غَيْرَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الإِسْلَامِ، وَخِلَافاً لِلْمُنَافِقِيْنَ الَّذِيْنَ يَتَخَلَّفُوْنَ عَنْ صَلَاةِ الجَمَاعَةِ.

(١) الصَبْرُ لُغَةً: الحَبْسُ، وَمَعْنَاهُ هُنَا حَبْسُ النَّفْسِ عَنْ الجَزَعِ، وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنْ التَّشَكِّي وَالتَّسَخُّطِ، وَحَبْسُ الجَوَارِحِ عَنْ لَطْمِ الخُدُودِ وَشَقِّ الجُيُوبِ.

(٢) الامْتِحَانُ بِالمَصَائِبِ وَالشَدَائِدِ.

وَالصَبْرِ عَلَىٰ المَصَائِبِ وَاجِبٌ لِأَنَّ اللهَ أَمَرَ بِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيْرَةٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ.. ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِضَىٰ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُخْطُ »

(٣) قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: "مَنْزِلَةُ الشُكْرِ أَعْلَىٰ المَنَازِلِ، وَهُيَ فَوْقَ مَنْزِلَةِ الرِضَا، فَالرِضَا مُنْدَرِجٌ فِي الشُكْرِ، إِذْ يَسْتَحِيْلُ وجُودُ الشُكْرِ بِدُوْنِهِ وَهُوَ نِصْفُ الإِيْمَانِ، وَالإِيْمَانُ نِصْفَانِ، نِصْفُ شُكْرٍ وَنِصْفُ صَبْرٍ ... وَأَهْلُهُ هُمْ القَلِيْلُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، وَقَالَ:

وَالرِضَا بِمُرِّ القَضَاءِ[1]، وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: « أَكْمَلُ المُؤْمِنِيْنَ إِيْمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً »[2].

﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢] ".

وَالتَحَدُّثُ بِالنِّعْمَةِ شُكْرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١].

وَالشُكْرُ مَبْنِيٌ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ:

١ - التَحَدُثُ بِالنِّعْمَةِ ظَاهِراً.

٢ - الاعْتِرَافُ بِهَا بَاطِناً.

٣- صَرْفُهَا فِيْمَا يُرْضِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ الطَاعَاتِ، وَأَشْرَفِ مَنَازِلِ السَائِرِيْنَ إِلَىٰ اللهِ، وَهُوَ مُسْتَحَبٌّ بِالإِجْمَاعِ، وَالأَدِلَّةُ عَلَىٰ فَضْلِهِ وَالحَثِّ عَلَيْهِ كَثِيْرةٌ جِداً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « ذَاقَ طَعْمَ الإِيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبّاً وَبِالإِسْلَامِ دِيْناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً »[1]

(٢) قَالَ ابْنُ القَيْمِ: "الدِّيْنُ كُلُّهُ خُلُقٌ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الخُلُقِ زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّيْنِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ يَقُومُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ: الصَبْرُ، وَالعِفَّةُ، وَالشَجَاعَةُ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤)

وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالإِحْسَانِ إِلَى اليَتَامَى وَالمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَبِيْلِ، وَالرِفْقِ بِالمَمْلُوكِ.

وَيَنْهَوْنَ عَنْ الفَخْرِ(١)، وَالخُيَلاءِ(٢)، وَالبَغْيِ(٣).....

وَالعَدْلُ، فَالصَبْرُ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ الاحْتِمَالِ وَكَظْمِ الغَيْظِ، وَالحِلْمِ وَالأَنَاةِ وَالرِفْقِ وَعَدَمِ الطَيْشِ، وَالعِفَّةُ تَحْمِلُهُ عَلَىٰ اجْتِنَابِ الرَذَائِلِ وَالقَبَائِحِ مِنْ القَوْلِ وَالفِعْلِ، وَالشَجَاعَةُ تَحْمِلُهُ عَلَىٰ عِزَّةِ النَّفْسِ وَقُوَّتِهَا عَلَىٰ إِخْرَاجِ المَحْبُوبِ وَتَحْمِلُهُ عَلَىٰ كَظْمِ الغَيْظِ، وَالحِلْمُ وَالعَدْلُ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ اعْتِدَالِ أَخْلَاقِهِ وَتَوَسُطِهِ بَيْنَ الإِفْرَاطِ وَالتَفْرِيْطِ، فَمَنْشَأُ جَمِيْعِ الأَخْلَاقِ السَافِلَةِ وَبِنَاؤهَا عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ: الجَهْلِ، وَالظُلْمِ، وَالشَهْوَةِ، وَالغَضَبِ.'' اهـ

(١) وَهُوَ المُبَاهَاةُ بِالمَكَارِمِ وَالمَنَاقِبِ، مِنْ حَسَبٍ وَنَسَبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، سَوَاءٌ كَانَ فِيْهِ أَوْ فِي آبَائِهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ »(١).

(٢) هُوَ الكِبْرُ وَالعُجْبُ.

(٣) هُوَ العُدْوَانُ عَلَىٰ النَّاسِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالاسْتِطَالَةَ[١] عَلَى الخَلْقِ بِحَقٍ أَوْ بِغَيْرِ الحَقِ، وَيَأمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلاقِ وَيَنْهَونَ عَنْ سَفَاسِفِهَا.

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِه[٢]، فَإنَّمَا هُمْ فِيْهِ مُتَبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُنَّةِ[٣] وَطَرِيْقَتُهُمْ هِيَ دِيْنُ الإسْلامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّداً ﷺ.

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ[٤]، وَفِي حَدِيْثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: « هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي » وَفِيْهِمْ الصِدِّيْقُونَ وَالشُهَدَاءُ، وَالصَالِحُونَ، وَمِنْهُمْ أَعْلامُ الهُدَى وَمَصَابِيْحُ الدُّجَى، أُوْلُو المَنَاقِبِ المَأثُورَةِ، وَالفَضَائِلِ المَذْكُورَةِ وَفِيْهِمْ الأَبْدَالُ[٥]

---

(١) هِيَ التَرَفُّعُ عَلَيْهِمْ وَاحْتِقَارُهُمْ وَالوَقِيْعَةُ فِيْهِمْ.

(٢) مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ الرِسَالَةِ وَغَيْرِهِ.

(٣) فَهُمْ مُتَبِعُونَ غَيْرَ مُبْتَدِعُونَ، مُقْتَدُونَ لَا مُبْتَدُونَ.

(٤) وَهُوَ حَدِيْثُ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَامَ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ فِيْنَا فَقَالَ: « أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً فِي الجَنَّةِ وَهِيَ الجَمَاعَةُ ».

(٥) هُمْ قَوْمٌ مِنْ الصَالِحِيْنَ لَا تَخْلُو الْدُنْيَا مِنْهُمْ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكَانَهُ آخَرَ.[١]

---

(١) مختار الصحاح للرازي مادة (بدل).

وَفِيْهِمْ أَئِمَّةُ الدِّيْنِ الَّذِيْنَ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمْ الطَائِفَةُ المَنْصُورَةُ الَّذِيْنَ قَالَ فِيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ: « لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لا يَضُرُهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلا مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَاعَةُ ».

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لا يَزِيْغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَابُ. واللهُ أَعْلَمُ.....

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيْماً كَثِيْراً[1].

---

(١) تَمَّ الفَرَاغُ مِنْ كِتَابَةِ هَذَا الشَرْحِ يَوْمَ الأَحَدِ الحَادِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ صَفَر مِنْ عَامِ أَلْفٍ وَأَرْبَعْمِائَةٍ وَخَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ مِنْ هِجْرَةِ المُصْطَفَىٰ عَلَىٰ صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَلَاةِ وَالسَلَامِ.